الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

كلية العلوم الاجتماعية

قسم الفلسفة

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة (تخصص فلسفة اللغة)

الأُصول الفلسفية لنظرية تشومسكي اللغوية

إعداد الطالبة:

خديجة مانع

تحت إشراف الأستاذ:

أ. د ميلود العربي

لجنة المناقشة:

أ.د حمادي السايح	جامعة مستغانم	رئيسا
أ.د العربي ميلود	جامعة مستغانم	مشرفا ومقررا
أ.د حموم لخضر	جامعة مستغانم	مناقشا
أ.د سواريت بن عمر	جامعة وهران 02	مناقشا
أ.د بلبولة مصطفى	جامعة الشلف	مناقشا

السنة الجامعية: 2023/2022

الإهداء

إلى وردة الروح

"أمي"

وإلى كل الذّين يكافحون في هذا العالم من أجل غاية نبيلة

أهدي لكم هذا العمل

"خديجة"

شُكر وعِرفان

بسم الله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين والحمد لله رب العالمين

"وَمَا تَوفِيقِي إلاَّ بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ"

أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ المشرف الدكتور "ميلود العربي" على مرافقته إياي خلال إعدادي لهذا العمل، وكُلي امتنان له على توجيهاته القَيِّمة. كما أتوجه بالشكر الجزيل للجنة المناقشة التّي تكبدت عناء قراءة هذا العمل.

لا يفوتني أن أشكر الأستاذ "حمادي السايح" وأساتذة قسم الفلسفة جامعة مستغانم <<طور الدكتوراه>> وزميلاتي وزملائي.

وأساتذة قسم الفلسفة بجامعة باتنة 02 "طور الليسانس"؛ وقسم الفلسفة جامعة الجزائر 02 "طور الماستر"

والأستاذة "أمال موهوب" عميدة كلية العلوم الإنسانية جامعة الجزائر 02

كما أتوجه بشكري وامتناني إلى كل من دعمني من عائلتي وصديقاتي خاصة "شريهان بلهاني"

إلى كل من دعا لي بظهر الغيب.

إلى كل من نظر إلي نظرة فخر

"خديجة"

مقدمة

مقدمة:

مما لا شك فيه أنّ اللّسانيات هي العلم الذّي يهتم بالدرجة الأولى بدراسة اللغة من جوانب عديدة كالنحو والصرف والبلاغة والدلالة وغيرها، ومعرفة خواص اللغات الإنسانية وكيفية تركيبها. غير أنّ هذه الدراسات اللسانية واللغوية لم تكن منفصلة عن الأبحاث المعرفية الإنسانية الأخرى فقد ارتبطت في كثير من النواحي بالفكر الفلسفي وما قدمه الفلاسفة من تصورات في تفسير وتأويل اللغة كواحدة من الظواهر التّي ترتبط بالذات الإنسانية ووجودها؛ ومع التحول المعرفي الذّي أحدثه كتاب محاضرات في اللسانيات العامة لعالم اللسانيات فرديناند دو سوسور، أصبح يُنظر إلى هذا العلم كعلم مستقل بذاته ذي موضوع ومنهج خاصين، ولقد سيطر هذا المسار السوسوري البنيوي على حقل الدراسات اللغوية أين أصبحت كل نظرية في مجال اللغة تنطوي تحت سقف البنيوية.

في النصف الثاني من القرن العشرين؛ كثُر الحديث في الأوساط اللّسانية خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية عن انقلاب معرفي وثورة لغوية قام بها الفيلسوف وعالم اللغويات الأمريكي نعوم تشومسكي، تمخضت عنها رؤية جديدة للظاهرة اللغوية وزعزعةٌ للأسس التّي بُنيت عليها الكثير من النظريات المسيطرة في الحقل اللغوي. فلقد عمل تشومسكي على إحياء التراث اللغوي العقلاني مع التركيز على الكثير من المقولات الفلسفية العقلية؛ مُفندا بها أفكار وفرضيات اللسانيات السوسورية والنظريات السلوكية اللغوية؛ غير أنّه لم يكتفِ بدراسة اللغة من وجهة نظر فلسفية فقط بل تعدى الأمر إلى أنّه أعلن بأنّ الخوض في فهم هذه الظاهرة سيفتح لنا آفاقا جديدة ومجالات بحث علمية واسعة في ميادين معرفية أخرى.

اتخذت النظرية اللغوية لنعوم تشومسكي طابعا عقلانيا من خلال المرجعيات والأسس الفلسفية العقلية التي أُسست عليها، فأصبحت اللغة مع هذه النظرية خِصِّيصَةً إنسانية كُليةً وهبة عقلية تتم دراستها وِفقًا لتمْثِيلاتِها الذهنية وآلياتها الداخلية لا لَتمظهُراتِها

الخارجية، أي باعتبارها بِنية باطنية لا بوصفها مظهرا خارجيا مُلاحظًا. كانت الأصول الفلسفية دعائم اتخذها تشومسكي لتشييد صرحه اللغوي العقلاني الجديد، معلنا عن عودة الفكر العقلي المتجسد في نظرية المعرفة الأفلاطونية والتصور اللغوي الديكارتي، إضافة إلى بعض الآراء العقلية والمنطقية عند بعض اللِّسانيين كنحاة بور-رويال وفيلهلم فون همبولت.

يُعد هذا البحث الذّي بين أيدينا محاولة لدراسة وفهم النظرية اللغوية المعروفة بالنحو التوليدي التحويلي لنعوم تشومسكي من خلال معرفة منطلقاتها وأصولها الفلسفية. ومن أسباب اهتمامنا بهذا الموضوع هو حضور الفكر الفلسفي في الطرح اللغوي لتشومسكي؛ على الرغم من انتمائه لمجال علم اللسانيات. ومن هنا جاءت الإشكالية الأساسية لهذا البحث كالتالي: ما هي الأصول الفلسفية التّي شكلت ملامح النظرية اللغوية لنعوم تشومسكي؟ وما الدور الذّي لعبته في تثبيت أركان هذه النظرية؟.

واندرجت تحت هذه الإشكالية مجموعة من الفرضيات والتّي من خلالها يمكننا فهم الرؤية الفلسفية لتشومسكي بصورة أوضح، وهي:

_ما هي المقولات والتصورات الفلسفية الأساسية التّي ساهمت في التقعيد للنظرية التوليدية التحويلية؟

_كيف صاغ تشومسكي تلك التصورات الفلسفية حسب رؤيته الخاصة؟

_كيف أثرت هذه الأسس الفلسفية في إحداث القطيعة مع النظريات اللسانية المختلفة؟

وللإجابة على هذه التساؤلات اتبعنا المنهج التحليلي لتحليل الأفكار والتصورات التّي قدمها نعوم تشومسكي، بالإضافة إلى استخدام المنهج المقارن في الكثير من المواضع؛ واعتمدنا أسلوب المقاربة بين آراء تشومسكي والآراء التّي تبناها مع التركيز على الكيفية التّي طرحها بها؛ حيث مثلت نظريته اللغوية براديغما في التقارب المعرفي والتلازم الفلسفي اللساني. قسمنا البحث إلى ثلاثة فصول بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة ومدخل مفاهيمي، ضبطنا في المدخل المفاهيمي مجموعة من المفاهيم والمصطلحات التّي

تتعلق بهذه النظرية، فيما اختص الفصل الأول بالحديث عن الفلاسفة الذّين مثلوا المرجعيات الأساسية لنظرية تشومسكي اللغوية وأفكارهم التّي شكلت منطلقاتِها، مع القراءة التّي قدمها تشومسكي لهذه الأفكار؛ من خلال استثمارها في تحديد ماهية اللغة وكيفية اكتسابها واستخدامها، ثم عرَّجنا على الصياغة العلمية التّي قارب بها رؤيته للظاهرة اللغوية _المتشبعة بالتصور الفلسفي_ مع كونها موهبة بيولوجية طبيعية موروثة مقيما مقاربة بايولسانية.

في الفصل الثاني تناولنا المرجعيات اللغوية العقلية التّي كانت بمثابة ركائز من ميدان علم اللغة في قيام البناء اللغوي التشومسكي، وقد حددنا في هذا الفصل التأسيسات الفلسفية العقلية لهذه المرجعيات مع فحوى نظرياتهم التّي ساعدت النحو التشومسكي في أخذ مكانته في ميدان علم اللغة؛ ودعمت ثورته ضد النظريات اللسانية الأخرى، وقد اعتمد تشومسكي على عدة افتراضات استقاها من هذه المرجعيات اللغوية خاصة منها تلك المتعلقة بالبناء المنطقي للغة والنحو الكلي والخصائص الداخلية الذهنية للغة.

أمّا الفصل الثالث المعنون باللسانيات السوسورية والسلوكية والدحض التشومسكي لها، قدمنا فيه المنظور العام لهذه النظريات للظاهرة اللغوية القائم على المنهج الوصفي، فكانت اللسانيات السوسورية التّي جعلت من اللغة نظاما من العلامات وواقعة اجتماعية أولى محطات النقد التشومسكي الذّي رأى فيها تقليلا من شأن اللغة كظاهرة إنسانية ومن قيمة الإنسان كفاعل لغوي حر. في حين ارتكز دحضه وتفنيده للمدرسة السلوكية في علم اللغة على نفي النظرة الآلية التّي كان يُنظر بها إلى اللغة، وعلى عدم كفاية المنهج الوصفي لفهم هذه الملكة الإنسانية ذات التنظيم المعقد، معتمدا على منطلقه الفلسفي ومنهجه التفسيري، ومُبررا بحجج عقلية وبراهين علمية.

فيما يتعلق بالدراسات السابقة التّي أثْرت هذا العمل بشكل عام مجموعة من الأطروحات المقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، وأهمها أطروحة دكتوراه المعنونة ب "النحو الكلي بين اكتساب اللغة وتفسيرها" للدكتورة "أسماء بن منصور"، جامعة باتنة سنة 2018، عالجت فيها ماهية النحو الكلي التشومسكي ومبادئه، والكيفية التّي فسر بها تشومسكي عملية الاكتساب اللغوي عند البشر. وأطروحة دكتوراه أخرى معنونة ب "اللغة والأمة مقاربة في فلسفة همبولت" للأستاذ الدكتور "مصطفى بلبولة" جامعة وهران 02، سنة 2012، عالج فيها إشكالية علاقة اللغة بالأمة في المنظور الهمبولتي؛ الذّي يعد مرجعية لغوية لنعوم تشومسكي وقد مثلت نظرته إلى اللغة مُرتكزا وحجر زاوية في نظريته اللغوية. بالإضافة إلى مجموعة من المراجع والبحوث التّي ساعدت في توضيح الرؤية حول فلسفة اللغة عند تشومسكي وأصولها الفلسفية.

وقد واجهتنا عدة صعوبات في إعداد هذا البحث، أهمها صعوبة فصل وفك المُركب اللِّساني والفلسفي الذّي يتموقع فيه نعوم تشومسكي، خاصة مع طرحه لمجموعة مفاهيم ومصطلحات لسانية ذات أبعاد فلسفية، ففي نظريته اللسانية يتماهى الفلسفي باللغوي ليخلق لنا مزيجا يصعب ضبطه والإمساك به، ضف إلى ذلك محاولته لتقريب هذا المزيج الفيلولغوي بالعلمي الرياضي والبيولوجي. بالإضافة إلى صعوبة ترجمة بعض نصوص تشومسكي نظرا لخصوصية المصطلح الفلسفي والنص اللساني؛ ما أشْكَل علينا الرؤية البحثية الدقيقة. وقد اعترضتنا صعوبة أخرى تتمثل في ندرة بعض المراجع الرئيسية المهمة لتشومسكي ولإحدى مرجعياته وهو الفيلسوف فون همبولت الذّي تعد الدراسات والمراجع المهتمة بفلسفته اللغوية _بالترجمة العربية_ شحيحة جدّا ما عدا أطروحة الدكتوراه للأستاذ الدكتور "بلبولة مصطفى" وبعض مقالاته فقط.

مدخل مفاهيمي

تمهيد:

تناولنا في هذا المدخل محاولة لضبط وتحديد مجموعة من المفاهيم والمصطلحات التّي يزخر هذا البحث، من خلال تحليلها ضمن الرؤية الفلسفية واللغوية حسب وجهة نظر الفيلسوف نعوم تشومسكي، أخذين بعين الاعتبار حضور هذه المصطلحات ومعانيها داخل دائرة الطرح الفلسفي عامة، وضمن هذا البحث خاصة.

النظرية التوليدية التحويلية:

تُطلق هذه التسمية على النظرية اللغوية التّي وضعها وطورها عالم اللسانيات نعوم تشومسكي منذ أواخر خمسينيات القرن الماضي، "وتعتمد هذه النظرية في مناهجها على ما يُعرف بالقواعد التوليدية والتحويلية ونظرية النحو الكلي، والكليات اللغوية، امتد تأثيرها ليشمل مجالات أخرى غير اللسانيات كالفلسفة وعلم النفس، والبيولوجيا وعلوم الأعصاب. بلغ تأثيرها في النظريات النحوية حدًا يمكن معه القول بأنّ النحو التوليدي هو النحو السائد في الدراسات اللسانية إبان أربعين سنة الأخيرة"[1].

المعرفة اللغوية:

من وجهة نظر تشومسكي تُمثل المعرفة اللغوية ذلك النظام الفطري المشترك الموجود داخل الأذهان/الأدمغة البشرية، وهو استعداد وراثي جيني يمتلكه الإنسان يمكنه من اكتساب أي لغة. يحتوي هذا النظام على مجموعة من العناصر والمكونات تعمل معا وفق آليات ذهنية لاكتساب اللغة واستعمالها، تمثل الملكة اللغوية الفطرية أحد هذه العناصر.

المعرفة باللغة:

يُقصد بها المعرفة التّي يمتلكها المتكلم للغة معينة، فهي ذلك المخزون اللغوي الذي يتكون لدى المتكلم/السامع من بداية نموه اللغوي في جماعة لغوية معينة، فعلى سبيل

[1]– محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 01، بيروت، لبنان، 2004، ص 82.

المثال؛ المتكلم الإنجليزي يمتلك معرفة شبه كاملة للغته الإنجليزية سواء من ناحية التركيب النحوي أو الصرفي وحتى التعبيري، فمنذ بداية نموه في بيئة يتحدثون الإنجليزية نشأت عنده معرفة ومخزون لغوي إنجليزي. وهي ما يُسميه تشومسكي بالكفاءة اللغوية.

القدرة اللغوية:

تمثل القدرة اللغوية؛ استطاعة المتكلم التعبير والتلفظ بالتعابير الكلامية اللفظية المنطوقة المسموعة، وهي <<قابلة للفقد في حالة التعرض للأمراض أو الحوادث، وقابلة للاسترجاع بعد الشفاء من الحادثة أو المرض>>[2]، وترتبط كثيرا بصحة الأعضاء المسؤولة عن الكلام، وفقدانها لا يعني فقدان المعرفة اللغوية الفطرية للمتكلم ولا فقدانه لمعرفته بلغته، إلاّ إذا كان الحادث والمرض قد تسبب بفقدانها نهائيا.

اكتساب اللغة:

يولي تشومسكي أهمية كبيرة لعملية الاكتساب اللغوي في نظريته التوليدية التحويلية، وتتشكل هذه العملية من مجموعة من الميكانيزمات الفطرية أولها البرنامج المحدد جينيا الذّي يعد بمثابة الاستعداد الفطري الموجود داخل أدمغة البشر، تتداخل فيه وظائف الأجزاء الذهنية المكونة لجهاز اكتساب اللغة بالإضافة إلى معطيات البيئة الخارجية، ويُفرق تشومسكي بين مصطلح اكتساب اللغة ومصطلح تعلم اللغة، ويرى بأنّ الأخير هو مصطلح مبهم ويشوبه الغموض، لأنّه يقوم على مبدأ التلقين حيث تلعب البيئة الخارجية المتمثلة في الأهل دور المُلقِن للطفل. وهكذا فاللغة في نظر تشومسكي <<ليست شيئا نتعلمه، بل هي شيء يحدث لنا>>[3].

[2] – علي حرب، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي، المركز الثقافي العربي، ط 01، بيروت، 1998، ص107

[3] – المرجع نفسه، ص108.

نمو اللغة:

إنّ كون اللغة موروثة تدخل في تصميم البشر الجِّيني، فهذا يعني أنّها تنمو مثلما تنمو باقي العمليات العضوية الأخرى التّي تدخل في هذا التصميم أيضا، من حالة أولى إلى ثانية إلى ثالثة حتى الوصول إلى مرحلة ثابتة مستقرة عند البلوغ، ويرداف <<مفهوم التطور مفهوم النمو والمقصود به أن ينتقل المبدأ الداخلي من حالة الكمون إلى حالة الظهور، حتى يبلغ نهايته>>[4]. عند تشومسكي يختلف مفهوم التطور في اللغة عن مفهوم النمو، فالتطور عنده يرتبط بقضية الانتخاب الطبيعي الداروينى والذّي يرى أنّ اللغة البشرية تطورت من إشارات ورموز كانت تستعملها كائنات التّي تطور عنها بنو البشر، غير أنّ تشومسكي يعارض هذا ويرى أنّ اللغة الإنسانية لم تتطور بهذا الشكل مطلقا لأنّها مختلفة تماما عن تلك الإشارات التواصلية للكائنات الأخرى.

الفطرة:

<<هي ما يخص طبيعة الكائن ويصاحبه منذ نشأته>>[5] وهي <<الجِّبلة والطبيعة الأولى التّي يكون عليها المولود في وقت ولادته، وحسب ليبنتز فإنّ في نفس الإنسان استعدادات شبيهة بالعروق التّي نجدها في حجر المرمر، فهي تجعل هذا الحجر صالحا لقبول صورة معينة، وهي لا تنتقل من القوة إلى الفعل إلاّ بالتجربة والعمل>>[6]، وهي في التصور اللغوي التشومسكي أنّ اللغة هبة فطرية إنسانية، تختص بالبشر دون غيرهم من الأنواع الحية الأخرى، فالبشر يولدون مزودين باستعدادات فطرية للكلام. ويفرق بينها وبين مفهوم الغريزة.

---

[4] – جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 01، دار الكتاب اللبناني، د ط، بيروت، 1982، ص293.

[5] – إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة للشؤون الأميرية، د ط، القاهرة، 1983، ص 136.

[6] – جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 02، دار الكتاب اللبناني، د ط، بيروت، 1982، ص151.

الغريزة:

<<مجموع معقد من ردود الفعل الخارجية والوراثية المشتركة بين جميع أفراد النوع وهي الدافع الحيوي الأصلي>>[7]، فهي تمثل محركا داخليا يرتبط بغرض معين أو حاجة محددة، وهي في منظور تشومسكي ترتبط بالحيوانات أكثر من الإنسان، وتعد نظم اتصالاتها التّي تظهر في الصيحات أو الإشارات أو الألحان غرائز وردود أفعال تعبر بها هذه الحيوانات عن حاجة معينة، وتختلف عن اللغة الإنسانية التّي تعد فطرية.

الكلية:

يعتبر مصطلح الكلية من أهم المقولات الفلسفية المنطقية التّي تُمثل مرتكزا في نظرية تشومسكي اللغوية، و<<الكلي عند المنطقيين هو الشامل لجميع الأفراد الداخلين في صنف معين، والكليات في الفلسفة التصورية موجودة في العقل>>[8]، وعند تشومسكي تتسم اللغة بالكلية لأنّ النحو الكلي الموجود في عقول/أدمغة البشر فطري ويحتوي مبادئ وقواعد كلية موجودة في جميع اللغات الإنسانية وهي ما يُسميها بالكليات اللغوية.

[7] – المرجع السابق، ص 128

[8] – المرجع نفسه، ص 238.

الفصل الأول:

المرجعيات الفلسفية لنظرية تشومسكي اللغوية

المبحث الأول:

التصور الأفلاطوني للمعرفة الإنسانية والمقاربة التشومسكية

المبحث الثاني:

المنظور الديكارتي للغة والقراءة التشومسكية له

مدخل:

تناولنا في هذا الفصل المرجعيات الفلسفية لنظرية تشومسكي* اللغوية، من خلال فيلسوفين يعتبران اثنين من أهم الفلاسفة الذّين أسسوا ونَظَّروا للتفكير الفلسفي العقلي وهما أفلاطون ورونيه ديكارت، إذ تعد أفكارهما ركيزة ومنطلقا رئيسيا لبناء النظرية اللغوية لنعوم تشومسكي، والتّي يُنظر إليها على أنّها محاولة لإعادة لفت الانتباه إلى كثير من الأفكار العقلية والآراء الجوهرية _حول المعرفة الإنسانية واللغوية وارتباطها بالعقل_ التّي قُدمت من طرف هذين الفيلسوفين؛ والتّي كان لها دور كبير ومركزي في فهم وتفسير اللغة الإنسانية من خلال المقاربة التشومسكية.

يتخذ موضوع المعرفة مساحة مهمة من فلسفة أفلاطون، ففي الكثير من محاوراته الفلسفية التّي وصلتنا، يناقش أفلاطون مسألة المعرفة الإنسانية ومصدرها من منطلقات عقلية مثالية. ولقد أقام تشومسكي تصوره للمعرفة اللغوية بالعودة إلى هذا التصور الأفلاطوني. أمّا بالنسبة لآراء ديكارت في اللغة والعقل فلقد تبناها وحاول التدليل عليها من خلال قراءتها ومناقشتها من خلال مجموعة من التفسيرات. في صياغته لنظريته اللغوية _والمعروفة بالنحو التوليدي التحويلي_ قام تشومسكي بطرح أربعة أسئلة جوهرية حول

*– هو أفرام نعوم تشومسكي(Avram Naom Chomsky): فيلسوف وعالم لسانيات من مواليد 07 ديسمبر 1928م، بفلادلفيا مقاطعة بنلسلفانيا، بالولايات المتحدة الأمريكية، تلقى دراسته في بنسلفانيا وهناك درس علم اللغة والرياضيات والفلسفة، وقد حصل فيها على درجة الدكتوراه عام 1955م، عُين بمعهد ماساشوسيتس، وظل يترقى في حياته العلمية، حتى حصل على أخيرا على كرسي الأستاذية في لسانيات اللغات الحديثة. حظيت أعماله بالتقدير في الدوائر العلمية فمُنِح الدكتوراه الفخرية من جامعة شيكاغو، حقق شهرته في ميدان اللسانيات عندما نال درجة الماجيستر في اللغة العبرية الحديثة. ذاع صيته بشكل واسع عندما نشر كتابه الأول البنى النحوية الذّي أحدث ثورة معرفية قلبت ميدان البحث اللساني الأمريكي آنذاك خاصة اللسانيات السلوكية، فاعتبر أنّ اللغة بنية فطرية عند الإنسان عوض أن تكون سلوكا ظاهرا مقلدا. كما ألقى العديد من المحاضرات في أهم الجامعات في العالم؛ كمحاضرات بيكمان في جامعة كاليفورنيا سنة 1967م، ومحاضرات "جان لوك" في جامعة أكسفورد سنة 1969م، يعد من بين أشهر الفلاسفة واللسانيين في الفترة الحالية المعاصرة، وتعود شهرته أيضا إلى آرائه ومواقفه السياسية التحررية المعارضة لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية. أُنظر، مصطفى مرشد جبير، نعوم تشومسكي، ضمن معجم الفلاسفة الأمريكان من البراجماتيين إلى ما بعد الحداثيين، منشورات الضفاف، بيروت، ط 01، 2015م، ص 575.

اللغة، وتعتبر هذه الأسئلة بمثابة محددات ومحطات رئيسية لمسار البحث والتصور اللساني الذّي نَظَرَ له، وأتت هذه الأسئلة* كالتالي:

-ما نظام المعرفة اللغوية الموجود في الذهن/الدماغ؟ ومما يتكون؟

-كيف تنشأ وتُكتسب اللغة؟

-ما طريقة استخدامها؟

-ما العمليات العضوية التّي تتدخل فيها؟

يتعلق السؤال الأول بالبنية العامة للغة البشرية وما الآليات الذهنية التّي تدخل في تكوينها، أمّا السؤال الثاني فيرتبط بالمقاربة التشومسكية للتصور الأفلاطوني للمعرفة الإنسانية، والتّي يُسميها تشومسكي "بمشكلة أفلاطون" أو "ضآلة الحافز"، وتتعلق بكيفية بناء اللغة واكتسابها عند البشر. أمّا السؤال الثالث؛ فيحيلنا البحث في الإجابة عنه حسب تشومسكي إلى ما يُطلق عليه "مشكلة ديكارت" وهي ترتبط بالكيفية الخلاَّقة التّي تُستعمل بها اللغة الإنسانية. أمّا السؤال الرابع فيرى أنّ الإجابة عنه مازالت غامضة نوعا ما، وهي قيد البحث والعمل؛ وهذا لأنّه يتعلق بالعمليات الأحيائية والعضوية التّي تدخل في بناء واكتساب واستعمال اللغة؛ أي أنّه مرتبط بما ستقدمه لنا الإجابات عن الأسئلة السابقة عنه، وكذلك ما يمكن أن يفرزه لنا التطور العلمي الذّي ستقدمه لنا الأبحاث في مجال البيولوجيا وعلوم الأعصاب مستقبلا، وكانت إرهاصات الإجابة عن هذا التساؤل الأخير في بعض الأفكار التّي حملتها الأطروحة الأدنوية والتّي كان من اهتماماتها الجلية أن تبحث في العوامل الخارجة عن اللغة والتّي تدخل في تركيبها وتكوينها.

* - تكررت هذه الأسئلة في معظم مؤلفات وكتب تشومسكي _إن لم نقل كلها، وتعتبر الإجابة على هذه التساؤلات بمثابة رسم لخريطة التصور التشومسكي ولبناء نظرية النحو التوليدي التحويلي.

المبحث الأول:

التصور الأفلاطوني للمعرفة الإنسانية والمقاربة التشومسكية

أولا: التصور الأفلاطوني للمعرفة الإنسانية

1/-مراتب المعرفة عند أفلاطون:

عمد أفلاطون* في بحثه حول مصدر المعرفة إلى مناقشة مجموع الفرضيات والآراء التّي قدمها الفلاسفة اليونان آنذاك المعاصرون له أو السابقون عنه. فبين من يرى بأنّ المعرفة الحقانية مصدرها الواقع الحسي وأنّه لا وجود لمعارف عقلية مجردة، وبين من يرى عكس ذلك، خلص إلى أنّ المعارف أربعة أنواع وأنّ كل هذه الأنواع تتبع بعضها للوصول إلى المعرفة الحقانية الأولى. ويتدرج أفلاطون في تقديم هذه الأنواع وترتيبها.

"اعتبر أفلاطون أنّ الرأي السفسطائي"[1] القائل بأنّ <<المعرفة هي إدراك حسي بكل بساطة>>[2]، هو رأي مشكوك في صحته، لأنّه يقوم على فكرة أنّ الإدراك الحسي والصور المحسوسة هي مصدر المعارف وبرهان صحتها، وهذا غير صحيح فالمحسوسات لا يمكن أن تمدنا بمعارف حقيقية بسبب أنّها ظواهر <<متغيرة أبدا، ليس لها جوهر تَتَقوم به ولا قوة تصدر عنها>>[3]، فهي إدراك محسوس متغير ينقل انطباعا حسيا زائفا، وليست إدراكا للماهيات الثابتة، ومنه لا وجود لمقولات كلية وجواهر ثابتة مطلقة. في محاورة ثياتيتوس يبرهن بطلان هذه الأفكار السفسطائية من خلال إثبات بطلان قول بروتاغوراس أنّ <<الإنسان مقياس كل الأشياء، إنّه مقياس لوجود الأشياء التّي تكون، ومقياس لوجود الأشياء التّي لا تكون>>[4]، فهذا القول يدل على أنّ الحكم بحقائق الأشياء راجع للإنسان،

---

*- أفلاطون (348/428 ق.م)، فيلسوف يوناني له ذاع كبير في تاريخ الفلسفة، تُعرف فلسفته بالفلسفة المثالية أو العقلية، من أشهر مؤلفاته "المحاورات". انظر، عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للنشر، ج 01، بيروت، ط 01، 1984، ص 154.

[1]-زكي نجيب محمود وأحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للنشر، المملكة المتحدة، د ط، 2018م، ص 99.

[2]- أفلاطون، محاورات أفلاطون (محاورة ثياتيتوس)، تر: شوقي داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، د ط، 1994م، ص108.

[3]- المرجع نفسه، ص 108.

[4]- المرجع نفسه، ص108.

وإحساسه هو معيار الحكم الصادق؛ لكن إذا ما سلمنا بقول بروتاغوراس فإنّ كل ما يظهر لشخص ما، على أنّه صحيح، فإنّه صحيح ما دام هو يعتبره كذلك؛ تصبح جميع الآراء المتناقضة والمخالفة لبعضها بعض، صادقة على السواء، ويصبح كل تفنيد أمر مستحيل؛ ذلك أنّ الإدراك الحسي يجعل كل الإحساسات حقيقية في نظر أصحابها؛ فتتساوى كلها ولا فرق بين المعرفة الحسية للعالِم والمتعلم، العارف والجاهل، فإذا كان الإحساس هو منبع كل معرفة <<فإنّ الحكم الذّي يشكله كل إنسان منّا، أثناء الإحساس حقيقيا له، ولا يستطيع أي إنسان أن يميز مشاعر الآخرين أفضل مما يميزها هو، وأنّه يمتلك أي حق أسمى كي يقرر إذ ما كان رأيه حقيقا أو مزيفا، بل يكون كل إنسان القاضي المنفرد لنفسه، وأنّ كل شيء يعطي به حكما يكون حكمه صادقا وصحيحا>>[1]. والإحساسات تؤدي بنا إلى انطباعات متناقضة ومشتتة، فالشيء عندما نراه من بعيد يكون صغيرا لكن عندنا اقترابنا منه يصبح حجمه أضعاف مما كان يبدو عليه من بعيد. إذن هم ينكرون وجود قوة داخلية تربط الإحساسات ببعضها؛ وتركب التصورات وتعطي الانطباعات، وتمكن الإنسان من إدراك موضوعات الحواس وما يأتي منها من صور وانطباعات؛ ولهذا يرى أفلاطون أنّ حججهم ضعيفة وأنّ الإحساسات لا يمكن أن تكون مصدر المعرفة.

لم يقتصر رفض أفلاطون للإدراك الحسي كمصدر للمعرفة فقط، بل رفض أيضا أن يكون الظن والرأي هو مصدر المعرفة، ذلك <<أنّ الظن مفتوح على احتمالين هما الصدق أو الخطأ. فإذا كان الظن خاطئا لا يمكن الاستناد عليه ولا الأخذ به لأنّه زائف ولا يُعد معرفة من الأساس؛ أمّا إذا كان صادق فلا يمكن تسميته معرفة أيضا، ذلك أنّه تخمين نَجَمَ عن حدس أو غريزة أو اجتهاد عقلي، أحدث قلقا في النفس الإنسانية فدفعها إلى طلب المعارف والتعلم. وقد يرتبط في الكثير من المرات بفكرة ناتجة عن إدراك أو صورة حسية وهذا ما يُثبت بطلانه؛ وحتى إذا ارتبط الرأي الصحيح أو الظن الصادق بعلة عقلية ثابتة

[1] – المرجع السابق، ص 114.

فهذا لا يعني أنّه معرفة>>[1]. فالظن بالإجمال يتعلق بالموضوعات المحسوسة المتغيرة فهو إذن غير مرتبط بعلة ثابتة، لذلك هو يتغير بتغير الموضوعات والحكم الظني أيضا يختلف باختلاف هذه الموضوعات. ولهذا فإنّ الظن ليس هو المعرفة حتى وإن كان صادقا، فهما متمايزان أشد التمايز.

إذا كانت الكثير من العلوم ترتبط بالمحسوسات وتبتدأ منها، فهذا لا يعني أنّها صادرة عنها، بل هي متمايزة عنها بفارق كبير من ناحية الموضوعات والمناهج التّي تتبعها في البحث؛<< كعلوم الحساب والهندسة، الفلك والموسيقى؛ هي علوم ترقى بالنفس وتصعد بها درجات تجريدية أعلى من تلك التّي يقدمها الإدراك الحسي والظن، لأنّها تستخدم المعطيات والصور الحسية كواسطة لِاستثارة المعاني الكلية المجردة الموجودة في الفكر، فيقوم هو بتأمل المعاني الخالصة والاستغناء عن الصور الحسية؛ فموضوع هذه العلوم هي الماهيات المجردة الكلية وليس المُعطى الحسي؛ والاستدلال مرتبط خصيصا بالعلوم الرياضية وليس بالمعرفة والعلم كله، ولذلك فهو لا يكفي لأن يكون مصدر المعرفة>>[2]، لأنّ الرياضيات تقوم على المنهج الفرضي البرهاني، وتعتمد على التصورات والاستنتاجات العقلية وليس على المعطيات الحسية التّي تنطبق عليها هذه التصورات، فهي إذن تستند على الاستدلال القائم على وضع المقدمات واستخلاص النتائج وليس على التجربة، لهذا "فمرتبة الاستدلال أعلى وأرفع من الحس والظن وهي أقل من المعرفة والعلم"[3].

انتهى أفلاطون من خلال هذا التدرج البحثي فيما كان يُظن أنّه مصدر العلم والمعرفة _من الحس، والظن، والاستدلال_ إلى أنّ العقل هو الوسيلة التّي نصل بها إلى المعرفة الحقة، فإذا كان الاستدلال هو تحقق المفاهيم الرياضية في المحسوسات فإنّ إدراك الماهيات المجردة كالصفات المفارقة للأجسام وغيرها من المعاني المجردة والكليات يكون

[1] – المرجع السابق، ص ص 212، 228، بتصرف.

[2] – المرجع نفسه، ص 230.

[3] – المرجع نفسه، ص232.

بالعقل لا بالإدراك الحسي، فالمعاني المجردة مثل الكبر والصغر؛ التشابه أو التضاد؛ الثقل والخفة؛ التساوي وعدم التساوي هي معانٍ عقلية نطلقها ونطبقها على الأشياء؛ التّي لا تكون كبيرة أو صغيرة بارتباطها بالحس والمادة المتغيرة، بل هي كذلك لأنّ العقل هو من طبع عليها هذه الصفات والمفاهيم المجردة، وهو القاضي المسؤول عن الحكم على المحسوسات، وأنّ <<العلم الصحيح هو الإدراكات الكلية التّي يصل إليها العقل بعد استعراض الجزئيات، وجمع الصفات المشتركة بينها، واستبعاد الصفات العرضية التّي يتصف بها بعض الجزئيات دون بعض>>[1].

2/-المعرفة تذكر:

المعاني والماهيات الكلية يعتبرها أفلاطون ضرورية للحكم على المحسوسات، لأنّها معانٍ عقلية موجودة في العقل البشري قبل الحِّس، وهي كاملة ثابتة مجردة عن المادة، تجعل الحكم ممكنا، لذلك يعد حصولها في النفس البشرية حصولا عقليا وُجد عن موجودات ثابتة كاملة مِثلها تُعتبر مبادئ المعرفة، وهي مبادئ الأجسام وضرورية لأنّها موجودة في العقل (النفس) قبل الجسم، وملخص نظرية أفلاطون حول المُثل تتمثل في <<أنّ هناك مصدرين للتجربة الإنسانية هما الإدراك الحسي والعقل. الإدراك الحسي موضوعه عالم الحس، وموضوع العقل هو المثل، وعالم المثل حقيقة مطلقة، ووجود مطلق، وموضوعات الحس ليس لها حقيقة مطلقة بل هي زائفة، لا وجود لها إلاّ بقدر ما تكون المُثل فيها، والحقيقة التّي تحتويها ترجع إلى المُثل...إنّ موضوعات الحس تُشارك في المُثل، إنّها أنصاف حقائق، جزئية وفردية، متعددة وزمكانية، متغيرة وفي تدفق دائم، أمّا المُثُل فهي كلية واحدة، هي خارج الزمان والمكان، خالدة وثابتة>>[2]، فالمثل هي الموجودات الحقانية، المطلقة المجردة ومفردها مثال؛ وهي <<الصور الخالصة لكل الموجودات وهي النماذج

---

[1] – زكي نجيب محمود وأحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص102.

[2] –ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د ط، 1984م، ص165.

الحقيقية والمطلقة والمتسمة بالثبات والتمام والكمال، فالأشياء عند أفلاطون مخلوقة في ذلك العالم غير الحِّسي، على صورة الجمال التام، ومتعالية عن النزول>>[1]؛ فالمثل إذن هي مبادئ المعرفة، لأنّ النفس لو لم تكن حاصلة عليها لما عرفت كيف تسمي الأشياء وتحكم عليها، والمثل معاييرها الدائمة، وهي الموضوع الحقيقي للعلم وإنّ المخلوقات الموجودة في العالم الحسي وكل الفضائل والقيم التّي يعتبرها الكثيرون موجودات حقيقة إنّما هي موجودات مزيفة عند أفلاطون ولها مُثُلها في العالم الأول، وهذه المُثل إنّما هي أصل تلك الموجودات الحِّسية وقد وُجدت قبلها في ذاك العالم، <<وكل معرفة تعرفها النفس في عالم الحس إنّما هي معرفة استحضرتها من عالم المثل عن طريق تذكرها. فالمعرفة ليس إلاّ استحضارا عقليا لمعارف سابقة مثلى>>[2].

عند أفلاطون<<نحن نعرف الكثير لأننا نتذكر الكثير. فمعارفنا ذكريات لماضٍ سابق على الوجود>>[3]؛ فالوجود المسبق للنفس في عالم المثل مكنّها من رؤية جميع الأشياء ومكنّها من التعرف على جميع العلوم والمعارف الحقانية؛ لكن عند نزولها إلى الواقع الحسي وسجنها في الجسد نسيت تلك المعارف الحقيقية لذلك فإنّ المعارف التّي تحصل عليها عن طريق الإدراك الحسي أو الرأي يُخَيل إليها بأنّها حقيقية وصحيحة في حين أنّها <<ليست إلاّ تذكرا لما كانت تعلمه النفس عندما كانت تعيش في عالم المثل قبل أن تحل بالجسم>>[4]، ولكي تتمكن النفس من الحصول على هذه المعارف مرة أخرى فإنّها تستطيع تذكر ما كانت تعرفه قبلا ويكون هذا البحث عن المعرفة بشكل تدريجي عن طريق السمو بهذه النفس بالتخلي عن كل ما هو حسي والوصول إلى درجات الكمال في عالم المثل الذّي يعتبر

---

[1]– منتهى عبد الجاسم، نظرية المحاكاة في الفلسفة اليونانية رؤية نقدية، ضمن: مجلة الفلسفة، كلية الآداب، جامعة المستنصرية، بغداد، العدد 16، كانون الأول، 2017، ص 83.

[2]– أفلاطون، محاورة فيدون(في خلود النفس)، تر: عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 03، 2001م، ص ص 151، 156، بتصرف.

[3]– جون ماهر، اللغة والسياسة (أقدم لك نعوم تشومسكي)، تر: محي الدّين مزيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 01، 2003م، ص 56.

[4]– زكي نجيب محمود وأحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص111.

مصدر جميع الحقائق الموجودة في العالم المحسوس، إذ تمثل المعارف الحسية صورا عن الأخرى المثالية وهي تُدرك بالحّس لارتباطها بالحواس كأدوات اتصال وبما أنّ كل ما هو مرتبط بالحواس معرض للشك فإننا لا نقبله ولا نحتكم إليه مطلقا وعلى هذا تكون النفس ينبوع المعرفة الحقانية الثابتة. في نظر أفلاطون <<أنّ حقيقة الموجودات، توجد دائما في نفوسنا، وهذا لأنّ طبيعة النفس خالدة، وعلى الإنسان أن يحاول ويبحث وأن يتذكر، تلك المعارف والكليات التّي عرفها في عالم المثل، وباجتهاده فقط يستطيع أن يتذكرها ويصل إليها>>[1].

إنّ المعرفة إذن ما هي إلاّ تذكر لما كانت النفس قد عرفته في وجودها السابق لذلك فإنّ التعلم أيضا لا يغدو أن يكون إلاّ تذكُر هو الآخر. الانسان لا يحتاج أن يتلقى الكثير من التعليم في حياته الحسية ليعرف الكثير لأنّ عقله مزود بالمعارف والعلوم التّي تحتاج فقط إلى تنبيه. "في محاورة مينون يبرهن أفلاطون على لسان أستاذه سقراط صدق فرضيته؛ فقد قام العبد المملوك بحل المسألة الهندسية التّي عرضها عليه سقراط أثناء الحوار بصورة يسيرة ودونما تعليم سابق لهذه المسائل الهندسية؛ ولكن كيف تمكن العبد على الرغم من جهله وكونه لم يكن متعلما ولا دارس للرياضيات من حل هذه المسألة؟"[2]، لقد عرف حل تلك المسألة لأنّه يمتلك معارف قبلية فطرية؛ وإجابته لم تكن نتيجة تجربته الواقعية فمعرفته بمبادئ الهندسة وقدرته على الإجابة كانت نتيجة لتذكره لتلك المعارف التّي كانت كامنة في عقله (نفسه) وما فعله سقراط هو إيقاظ تلك المعارف الكامنة؛ لقد قام بدور المُنبه، والذّي نبهه هو تلك الأسئلة التّي طرحها عليه فجعلت من المعارف المكنونة في النفس تظهر في عالم الحس.

---

[1] – أفلاطون، محاورة مينون(في الفضيلة)، تر: عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ط، 2001م، ص122.

[2] – المرجع نفسه، ص ص108، 115.

المعرفة فطرية قبلية لأنّ النفس عرفتها قبلا أثناء وجودها المسبق في العالم المثالي، وتبقى هذه المعرفة في حالة كمون وركود في العقل في الحياة المحسوسة حتى تتمكن من تذكرها تدريجيا عن التنبيه والإيقاظ؛ أمّا الجهل بالأشياء فهو نسيان وعدم تذكر وليس قِلة خبرة أو محدودية تجربة؛ وما التعلم ليس سوى وسيلة يتم بها إيقاظ المعرفة الكامنة واستحضارها؛ سقراط لم يُعلِم العبد ولكن قام فقط بإثارة ذاكرته العقلية من خلال طرحه لمجموعة من الأسئلة؛ لقد قام بدور مولد أفكار لأنّه اعتمد على سرعة فهم العبد للمفاهيم الهندسية على الرغم من عدم خضوعه للتعليم أو أية صورة من صور التلقين، وذلك حتى يوضح أنّ هذه المفاهيم تكون فطرية وأنّ الإنسان لا يحتاج أن يخوض الكثير من التجارب لتكون له معارف كثيرة.

ثانيا: المقاربة التشومسكية

1/- فطرية اللغة:

يرى تشومسكي أنّ أفلاطون قد طرح إشكالية مهمة في تاريخ الفكر الفلسفي والإنساني بصفة عامة من خلال محاورة مينون وهي: كيف أمكن للمملوك الشاب (العبد) أن يكتشف صدق براهين الحساب من غير أن تكون له تجربة تعليمية سابقة عليها، فهو جاهل ولم يتلقَ أي تعليم وتدريس في الرياضيات؟، كانت إجابة أفلاطون مبنية على تصوره المثالي القبلي؛ ومفادها أنّ هذه المعرفة كانت موجودة بالقوة في ذهن العبد ، وأنّ الذّي فَعلَهُ سقراط لم يزد عن إيقاظ هذه المعرفة من كمونها، وجعل العبد المملوك يتذكرها ويستحضرها إلى وعيه بواسطة الأسئلة التّي وجهها إليه _والتّي كانت بمثابة منبهات فقط_ مثلها مثل كل المعارف الإنسانية قبلية مسبقة، وهنا يكمن السر في أنّ البشر يمتلكون معارف كثيرة ومتنوعة على الرغم من محدودية تجاربهم اليومية، إنّه أمر يدعو للتساؤل حسب تشومسكي إذا ما سلمنا بأنّ الإنسان هو ابن بيئته وتجربته وواقعه. فكيف لنا أن نفسر هذا الغنى والثراء المعرفي؟ بتقريب هذه الرؤية الأفلاطونية إلى ميدان دراسة اللغة تساءل تشومسكي :<<كيف يصل الطفل في ظرف وجيز، داخل عشيرة/ تجربة لغوية غير متجانسة وناقصة، إلى اكتساب نسق معرفي لغوي كامل ومعقّد؟>>[1*].

---

[1]- نعوم تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، تر: محمد الرحالي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط 01، 2013م، ص15.

*- تشومسكي ليس الوحيد الذي انتبه لهذه الإشكالية الأفلاطونية، فقد سبقه قبل ذلك ليبنتز الذّي أقر بأنّ إجابة أفلاطون حول قبلية المعرفة صحيحة أساسا، غير أنّه يجب التخلص من خطأ الوجود المسبق؛ وقد أعاد برتراند راسل صياغة هذا التساؤل: كيف تأتى أن تكون الكائنات البشرية رغم أن اتصالاتها بالعالم قصيرة وشخصية ومحدودة –قادرة على أن تعرف هذا القدر الكبير الذّي تعرفه فعلا؟، معرفتنا في بعض مجالات الفكر والفهم واسعة المدى، محددة جدا، ومعبر عنها بصورة غنية تتماشى مع الشخصية، كما أننا نشترك في جزء كبير منها مع الآخرين ممن لهم خلفيات وتجربة مماثلة.

سعى تشومسكي إلى تقديم تفسيرات وتبريرات منطقية للإجابة على هذا التساؤل، فرأى بأنّ فهم اللغة الإنسانية يستند إلى وُجوب حلِّ هذا الإشكال الأفلاطوني بشكل علمي جِدِّي، ومع هذا فقد رفض تلك الميتافيزيقا الأفلاطونية المتعلقة بفكرتي الوجود المسبق ومُثل الأشياء. فإذا كان أفلاطون في محاورته قدم فرضية الوجود المسبق للمعرفة كتفسير لتذكر العبد المملوك للأشكال الهندسية وهي ما يُسمى <<بالحالة الإدراكية فيما قبل الوجود>>[1]، فإنَّ تشومسكي اعتبر أنّ هذا التفسير غير منطقي ولا يمدنا بإجابات واضحة وأكثر دقة، لكون الإنسان بالفعل يمتلك كَمًا هائلا من المعرفة على الرغم من قصر تجربته الخارجية.

في نظره تعد الفكرة الأفلاطونية القائلة بالوجود المسبق فكرة خاطئة ولا منطقية، غير أنّه لم يرفض أنّ هناك معرفة قبلية مسبقة موجودة في الذهن الإنساني معتبرا أنّه <<لا يمكننا أن نتعلم شيئا لا نملك عنه فكرة في أذهاننا سلفا>>[2]؛ أي أنّ البشر يمتلكون أفكارا موجودة في الذهن بصورة قبلية وأنّ هذه الأفكار بمثابة حقائق لا يمكن إنكارها البتة، ويلح على اعتبار المعرفة تذكرا، إنّها <<ليست تذكرا لشيء تملكه الروح في زمن ما؛ قبل أن يُعرف بالفعل في حالة الوجود القبلي، ولكن بسبب إدراك الذهن للأشياء بواسطة بعض التوقعات الداخلية الخاصة به، بواسطة شيء فطري ومألوف لديه، أو شيء بُذِل بنشاط من داخل نفسه>>[3].

عند تشومسكي لا وجود لما يُسميه أفلاطون بالوجود المسبق الذّي توجد به مُثُل الأشياء، ففي حالة اللغة لا يوجد ما نسميه بلغات مُثلى وأخرى حسية مزيفة أو لغة مثالية موجودة في عالم المثل ولغة مزيفة موجودة في عالم الحس، فمثلا لا يمكننا القول بأنّ اللغة الإنجليزية _التّي يتكلم بها الأفراد في أمريكا أو إنجلترا أو أي مكان في العالم_ هي إنجليزية مزيفة وحسية ولها ما يقابلها في العالم الأفلاطوني المثالي كالإنجليزية المثالية، ويجب على

---

[1] –هناء صبري، فلسفة اللغة عند نعوم تشومسكي، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، ط 01، 2014م، ص210.

[2] – نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية فصل في تاريخ الفكر العقلاني، تر: محمد الرحالي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط01، 2020م، ص202

[3] – المصدر نفسه، ص202.

متكلميها في هذه الدول أو أي منطقة أخرى أن يسعوا بالاجتهاد والتأمل من أجل بلوغ الإنجليزية المثلى الأفلاطونية؛ هذا تفسير غير معقول. لا يوجد معنى من افتراض وجود كينونات أفلاطونية لغوية مُثلى وأخرى لا*. إنّنا نحتاج حسب تشومسكي إلى البرهنة على أنّ اللغة الإنسانية هي واحدة من تلك المعارف الموجودة قبليا ككل المعارف التّي يتضمنها السؤال الأفلاطوني؛ والذّي يبحث في السِّر الذّي يجعل من معارف البشر كثيرة ومتنوعة على رغم من محدودية تجاربهم؟، <<فإذا كان كل طفل قادر على تعلم اللسان المُتَّصف بالتعقيد الشديد في ظرف وجيز نسبيا، وكان مُؤَهلاً منذ الولادة لتعلم أي لسان، فإنّ قدرته واستعداده هذين لا يمكن أن يكونا إلاّ من طبيعة قبلية أو فطرية>>[1]، ويستبدل تشومسكي مصطلح القبلية بالفطرية للدلالة على أنّ اللغة الإنسانية ذو طبيعة فطرية خالصة، وقد سعى لفهم الآلية التّي بها يستطيع البشر أن يتكلموا وينتجوا هذه الصيغ اللغوية.

إنّ المعرفة اللغوية مثلها مثل كل المعارف الإنسانية فطرية وأساسها فطري. إنها قوة داخلية ومشتركة بين جميع الناس؛ فتعيين الألفاظ، تكوين الجمل وإطلاق تسميات محددة عند الطفل ليست سوى محاولة لاستعمال مفاهيم موجودة لديه من قبل، هذه المفاهيم هي <<مفاهيم مغروسة في الذّهن...إنّها هبة مباشرة من الطبيعة>>[2]، وليست حكرا على أفراد معينين ولا على مجتمع لغوي محدد، وبواسطة هذه المفاهيم والقدرات الفطرية يَتَمكن الناس من تكوين التراكيب اللغوية وبناء الجُمل وفهمها، وإدراك معاني ودلالة الأشياء، واستخدام هذه الملكات الفطرية هو بمثابة محدد لقوة الإدراك العقلي الإنساني؛ ولهذا فإنّ <<استعمال هذه القدرات الفطرية أو المفاهيم المشتركة، يمكن أن يحدد العقل من خلالها ما إذا كانت

---

*– يرى تشومسكي أنّ فرضية مُثل اللغات هي فرضية ميتافيزيقية وغير معقولة، إذ لا يمكن البرهنة عليها علميا، ففي نظره لا وجود للغة تتمتع بالمثالية دون لغة أخرى، وعليه يجب البحث عن تفسير أكثر علمية ومنطقية للتدليل على قبلية اللغة الإنسانية. أُنظر، نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، تر: محمد فتيح، دار الفكر العربي للطبع والنشر، القاهرة، ط01، 1993م، ص 94.

[1]– محمد محمد العمري، الأسس الابستيمولوجية للنظرية اللسانية "البنيوية والتوليدية"، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط01، 2012م، ص174.

[2]– نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص 198.

ملكاتنا الذاتية قد جربت إدراكها جيدا أو سيئا. فهذه الغريزة الطبيعية إذن توجهنا في إدراك طبيعة ونوع ومجال ما ينبغي أن يُسمع أو يؤمل أو يُشتهى>>[1]*.

تعد اللغة كامنة في العقل ووجودها فيه فطري، لكن علينا أن لا نفهم من معنى الكمون على أنّها لغة جاهزة في عقل المتكلم بعبارات وملفوظات وصيغ وسياقات محددة يستحضرها المتكلم أثناء حديثه في موقف وزمن مناسبين، إذ من المستحيل أن توجد ذاكرة إنسانية يمكنها استيعاب هذه الطاقة التخزينية الهائلة؛ تستطيع حفظ جميع الألفاظ والتعابير بقوتها وعددها اللامتناهي. إنّ المقصود بأنّها كامنة في الذهن يعني أنّ البشر يمتلكون استعدادًا فطريا لتكلم أي لغة من اللغات الإنسانية بصورة سليمة؛ وهذا الاستعداد الفطري يمتلكه جميع البشر تقريبا _ما عدا المرضى أو الذّين يعانون من إعاقات معينة في هذا الجانب_ وهو بمثابة الموهبة التّي تفتقر إليها الأنواع الحية الأخرى، وعلينا أن نعرف أنّ هذا الاستعداد ليس استعدادا مسبقا لاكتساب لغة معينة بحد ذاتها كالإنجليزية بدلا عن العربية أو الروسية مثلا؛ إنّما هو استعداد عام ومشترك لاكتساب أي لغة مهما كانت عربية أو روسية أو برتغالية، ولا يرتبط باختلاف عرقي ولا جنسي ولا ثقافي.

إنّ المتأمل جيدا لما يتلفظ به متكلم ما من تعابير لغوية، سينتبه بأنّ هذه معظم هذه التعابير سليمة نحويا بصورة لا توحي بالشك بأنّها ذات أساس فطري لا تحتاج إلى تعليم مكثف ولا تلقين مستمر، إنّها تعبر عن وجود نظام معرفي داخلي يتيح لنا بناء وتركيب جمل صحيحة واستخدام تعابير حرة من دون وعي كامل منا بهذه العملية البنائية، بهذا التفسير علل تشومسكي تبنيه للرأي الأفلاطوني حول المعرفة، فالمتكلم يقوم بعملية التذكر _الأفلاطونية_ بصورة عفوية تلقائية، تذكُرٍ للمفاهيم والتصورات الفطرية المغروسة في الذهن البشري، <<وإنّ تعلم اللغة هو نوع من التذكر؛ لأنّ الطفل لا يتعلم إلاّ أسماء التصورات

---

[1]– المصدر السابق، ص 199.

*– يحيلنا هذا الرأي التشومسكي _المستوحى من رأي هربرت_ إلى أنّ النظرية النفسية التّي تثوي خلف اللسانيات الديكارتية؛ تعد تطورا نوعا ما من الأفلاطونية القائلة بأنّ كل معارفنا فطرية. انظر، المصدر نفسه، ص ص199، 200.

والمفاهيم الموجودة لديه بصورة سابقة عن وجود اللغة نفسها>>[1]؛ فتعلم الطفل للكلام _أو اللغة بصفة عامة_ في السنوات الأولى من عمره ليس تعلم لكيفية تجميع الحروف لتركيب كلمات ولا كلمات لتكوين جمل وفق قواعد صرفية ونحوية وبصيغة صوتية معينة، وليس أيضا تعلم لحفظ التعبيرات وتخزينها في الذاكرة ليُعاد استحضارها في مناسبة معينة، إنّما هو يولد مهيأً لأن يتكلم أي لغة وبالتالي فهو يمتلك استعدادا فطريا عقليا لأنْ يُركب الحروف ويكوِّن المفردات والجمل <<بطريقة حدسية غير واعية، وبعيدة تماما عن أي احتمال للتأمل الواعي>>[2].

2/-نمو اللغة:

يرى تشومسكي أنّ الإقرار بفطرية المعرفة اللغوية يجعلنا نُسلم بأننا نمتلك جهازا أو آلية ذهنية معينة مختصة باللغة؛ فاللغة التّي نتحدث بها ونعرفها هي نتاج طبيعي لعملية أقصى ما يمكن أن نسميها أنّها عملية نمو ؛ ويقارب هنا بين تصوره الفطري ونظرته العلمية الطبيعية التّي يتمثل جوهرها في أنّ اللغة الإنسانية تنمو في عقولنا مثلما تنمو لنا أذرع وأرجل، ويذهب برأيه هذا إلى اعتبار أنّ <<نمو المعرفة ...أشبه ما يكون بنمو الفاكهة: فمهما يمكن أن تتعاون بدرجة ما الأسباب الخارجية فإنّ ما يجعل العصائر تصل إلى مستوى نضجها التام هو قوة الشجرة الداخلية وميزتها... فإذا ما طبقت على اللغة هذه الفكرة الأفلاطونية أساسا؛ فإنّها تومئ إلى أنّ معرفة لغة خاصة تنمو وتنضج على مدى سلسلة من الأحداث تتحدد في جزء منها ذاتيا مع تعديلات تعكس الاستخدام الملاحظ بدلا من أن تنمو في صورة النظام البصري أو غيره من الجوارح المادية التّي تتحدد على مدى سلسلة من الأحداث تحددها إرشادات جينية بفعل التأثيرات المشكِّلة والقادحة للعوامل البيئية>>[3]. إنّ نمو اللغة إذن، يماثل نمو أي عضو من الأعضاء البشرية؛ فكما نولد مهيئين للمشي على

---

[1]– محمد محمد العمري، الأسس الابستيمولوجية للنظرية اللسانية "البنيوية والتوليدية"، مرجع السابق، ص183.

[2]– نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، تر: حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 01، 1990م، ص 84.

[3]–نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها أصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص52.

رجلين اثنتين وليس على أربع، كذلك فنحن نولد مستعدين لأن نتكلم وننسج أحاديث طويلة ومتنوعة، ومثلما يحدث لنا أثناء محاولتنا الأولى للمشي (الحبو)، فكذلك تبدأ محاولاتنا الأولى للكلام وشيئا فشيئا تنضج لدينا معرفة تامة بلغتنا.

إنّ الذّي يؤكد على صحة فرضية نمو اللغة من وجهة نظر تشومسكي هو ذلك التمكن اللغوي الذّي يحدث للأطفال عند سن الرابعة أو السابعة تماما، ففي هذا الوقت من العمر يُلاحظ بأنّ الأطفال تتكون لديهم معرفة كاملة بلغة بيئتهم، عكس البدايات الأولى التّي تكون فيه لغتهم غير مفهومة نوعا ما. إنّ فطرية اللغة ونموها هي أوضح دليل على كمية الثراء والغنى الذّي تزخر به اللغة الإنسانية، وهذا الغنى يعبر عن التعقيد الذّي يجعل من الاستحالة أن يكون مصدر المعرفة اللغوية من خارج ذهن الإنسان، والقدرة على التكلم والتمكن منه هي نتيجة لبلوغ الذهن مرحلة النضج المكتمل نسبيا. الطفل لا يتعلم اللغة إنّما هي تنمو في دماغه، فتعيين استخدام ألفاظ وأسماء لأشياء محددة ما هي إلاّ محاولة لاستعمال مفاهيم موجودة لديه من قبل واللافت للانتباه أنّ الأطفال في استعمالهم لهذه المفاهيم الفطرية يُكوِّنون جملا وعبارات تكون هذه العبارات صحيحة إذا ما نظرنا إليها من الناحية النحوية ويكون في هذه الحالة غير مدرك لهذه القواعد النحوية غير أنّه يُدرك تماما أنّه تلفظ بهذه الجمل بطريقة صحيحة، ولا يمكن أن يكون هذا الأمر قد تم تلقينه إياه من طرف والديه لأنّ تعليم جمل بهذه الصِّحة والمتانة النحوية يتطلب وقتا وجهدا شاقا من طرف أهله وحتى منه؛ لذلك فهذا الاحتمال مستبعد تماما. إنّ الافتراض الأكيد والثابت الذّي يمكننا الأخذ به هو أنّ هذه المبادئ والقواعد النحوية موجود بصورة فطرية في العقل الإنساني.

يصل تشومسكي من خلال محاولته البحث في مشكلة أفلاطون _أو مشكلة ضآلة الحافز_ إلى "أنّ الكثير موجود أصلا في داخل الكائن الحي، ولا يتطلب سوى التفعيل"[1]، فالقوة الفطرية العقلية هي التّي تقف خلف تنوع وثراء اللغة الإنسانية على الرغم من قِلة

[1] – نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي "الأفكار والمثل"، تر: الهادر المعموري، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 01، 2020م، ص 446.

الشواهد المادية والمحفزات، وقيمة اللغة تكمن في ارتباطها بهذه القوة الداخلية الفطرية، التّي تجعل من اللغة نسقا عقليا له مسار نمو ونضج داخلي أولا ثم بعد ذلك يأتي دور المعطى الخارجي، ولهذا <<فإنّ الطريقة التّي ننمو بها لا تعكس خصائص البيئة المادية، بل تعكس طبيعتنا الأساسية، لذلك ننمو لكي نصبح كائنات معقدة تتصف بخصائص مادية مخصصة...ويتخذ النمو مساره عامة بطريقة محددة مسبقا...ولهذا فإنّ ما يحدث في النمو العقلي يُشبه ما يحدث في النمو العضوي>>[1].

إنّ الحديث عن الفطرية في نظرية تشومسكي اللغوية قد يُفهم منه أنّ تشومسكي يرفض أي دور للمعطيات الخارجية في بنية اللغة وعملية اكتسابها، وهذا غير صحيح <<وفي كثير من الأحيان يمكن أن يتطلب ما هو كامن في الذِّهن...محفزا خارجيا مناسبا قبل أن يصبح نشيطا، كما يمكن أن ينطبق بشكل لا واعٍ تماما العديدُ من المبادئ الفطرية التّي تحدد طبيعة الفكر والتجربة>>[2]؛ ولهذا فإنّ المنبهات والمحفزات الخارجية لها دور مهم في عملية اكتساب اللغة ويتمثل هذا الدور في إيقاظ هذه المعرفة (اللغة) من كمونها وإثارتها، لأنّ <<التواصل مع فكر مُكون سلفا ضروري للعقل لكي يستيقظ، لكن المنبه الخارجي مطلوب فقط لجعل الآليات الفطرية تعمل، إنّه لا يحدد شكل ما هو مُكْتَسَب. في الواقع، يتضح أنّ هذا الاكتساب للغة عبر التواصل يقتضي سلفا القدرة على اختراع اللغة>>[3].

من خلال المنظور الفطري الذّي يتبناه تشومسكي تُصبح اللغة فطرية وحدوثها يكون نتيجة نمو عقلي _مماثل للنمو العضوي_ خاص بالنوع الإنساني، وبهذا فهو يُعارض الافتراض الداروينيي القائل بأنّ مبدأ الانتخاب الطبيعي هو السبب في وجود اللغة

[1] – نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص ص207، 208.

[2] – نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص 203.

[3] – المصدر نفسه، ص205.

الإنسانية*، حيث إنّ اللغة في نظر داروين انبثقت في لحظة زمنية معينة من تاريخ تطور ونشوء الكائنات وهذا ما أحدث طفرة نوعية انتقالية للإنسان، ولهذا فهي ليست بالخصِّيصَة الإنسانية المتفردة، لأنّ أي كائن من الكائنات الحية الأخرى بإمكانه أن يُطور نظام معرفة لغوي مماثل للغة الإنسانية إذا ما حدثت معه ظروف مماثلة لتلك التّي أحدث الطفرة في نظام اللغة الإنساني، وهذا ما رفضه تشومسكي رفضا قاطعا معللاً بأنّه من الاستحالة أن يكون قد حدث مثل هذا الافتراض الداروينى؛ فاللغة لا يمكن أن تكون قد نتجت عن عملية تطورية ولا عن مبدأ الانتخاب الطبيعي <<لأنّ البشر لا نظير لهم بين الحيوانات>>[1] ولأنّ اللغة نظام داخلي مرتبط بالعقل الإنساني، وإذا كان كذلك فلماذا لم تطور هذه الكائنات الحية المتنوعة نظمها التواصلية إلى لغة تشبه لغة الإنسان طوال هذه القرون التّي مرت. خُذ القردة كمثال على هذا. الشامبانزي تحديدا؛ فعلى الرغم من أنّها تمتلك نسبة ذكاء متطورة نوعا ما عن باقي الكائنات الأخرى فإنّها لم تستطع إلى يومنا هذا أن تعمل ولو قليلا على تطوير نظام لغوي مماثل لنظام اللغة الإنساني؛ على الرغم من الجهود الكبيرة التّي بذلها العلماء في تحقيق هذا الأمر لكنهم فشلوا، قس على ذلك الذاكرة القوية التّي تمتلكها بعض الطيور كالحمام.

ضف إلى ذلك أنّ اللغة الإنسانية لا يوجد لها نظام اتصالي مماثل عند الحيوانات التّي "اِدعى الداروينيون بأنّ بينها وبين الإنسان أصلا مشتركا ولا تقاربا تطوريا كالرئيسيات مثلا –القردة والغوريلات_ على العكس من ذلك؛ فإننا نجد في عالم الحيوان أنساقا تواصلية شبيهة بالنظام اللغوي الإنساني في حيوانات ليس لها أي قرابة تطورية مشتركة مع الإنسان؛ وأحد هذه الأنساق نظام الاتصال الموجود عند الحشرات، ألحان

---

*– الافتراض الداروينى نسبة إلى داروين؛ عالم الأحياء المشهور بنظريته التطورية القائمة على مبدأ الانتخاب الطبيعي القائل بأنّ <<العملية التطورية تقوم على أنّ هناك صفات تتراجع وتظهر أخرى مكانها استجابة لما يفرضه المحيط، وهكذا بالتدريج تتغير طبيعة الكائن أو العضو وينتقل من حالة إلى حالة أخرى>>، أُنظر، محمد محمد العمري، الأسس الابستيمولوجية للنظرية اللسانية، مرجع سابق، ص200.

[1]– نعوم تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير مصدر سابق، ص 126.

الطيور، وأغاني الحيتان، إذ تتمتع نظم تواصلها بخصائص مشابهة لخصائص الملكة اللغوية الإنسانية"[1*]. ولكن وعلى الرغم من هذا، فإنّ أيا من هذه النظم التواصلية لدى هذه الكائنات لا يمكن أن ترقى إلى لغة بشرية، بسبب أنّها تستخدم فقط مجموعة من الإشارات ذات غرض محدد في حين أنّ اللغة الإنسانية هي أكبر من ذلك لكونها تتصف بالتعقيد خاصة من حيث بناء وتركيب الصيغ اللفظية والتعبيرات الكلامية ذات القواعد النحوية.

يرى تشومسكي أنّه من الغباء إذن أن نرجع أصلنا نحن البشر إلى الغوريلات والقردة أو أي نوع من الأنواع الحيوانية الرئيسية في الهرم التطوري. ومع ذلك، فهو لا يرفض نظرية التطور كفكرة علمية، ولا يقر بنظرية الخلق التّي تتلخص في أننا مخلوقات لنا أصل متميز عن باقي الأنواع، إنّه يرى <<أنّنا يمكن أن نكون قد تطورنا من جنس معين لم يعد له وجود ربما، وأمّا بخصوص ظهور اللغة فقد حدثت مع الإنسان في لحظة زمنية معينة من تاريخنا ربما حوالي 50000 ألف سنة حين بدأ أسلافنا رحلتهم من إفريقيا منتشرين في كل أصقاع الأرض، وعلى حد ما نعرف فإنّ ملكة اللغة لم يطلها أساسا أي تغيير>>[2]، يُقر تشومسكي أنّ القول بعدم فطرية اللغة هو كالقول بأنّه لا فرق بين الإنسان والحجر والحيوان؛ لأنّ القول بأنّ <<اللغة فطرية هو تعبير عن الاعتقاد بوجود طبيعة داخلية وأساسية بشكل ما، تُميز الإنسان عن الصخور والحشرات والقطط والقرود وغيرها من الكائنات والجمادات>>[3].

---

[1]– نعوم تشومسكي، بنيان اللغة، تر: إبراهيم الكلثم، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 01، 2017م، ص27.

*– يرى تشومسكي بأن أقرب نظير موازٍ للغة البشرية هو غناء الطيور، فعلى الرغم من أنّ نشوء وتطور البشر والطيور لم يكن مترابطا ولا قريبا في تصور النظرية النشوئية التطورية، إلاّ أنّ هذا يفترض وجود تقارب تناظري يمكن أن يكون محكوما بالآليات الجينية والصفات الوراثية وهذا يعكس حالة من التناظر العميق، عكس نظم اتصال القردة والغوريلات. أُنظر، نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي "الأفكار والمثل"، مرجع سابق، ص34.

[2]– نعوم تشومسكي وروبرت سي بيرويك، البرنامج البايولساني" ماذا هو عليه الآن"، ضمن اللسانيات العربية رؤى وآفاق، تر: مرتضى جواد باقر، عالم الكتب الحديث، ج 01، إربد، الأردن، ط 01، 2019، ص 10، بتصرف.

[3]– نعوم تشومسكي، بنيان اللغة، مصدر سابق، ص76، بتصرف.

3/-اكتساب اللغة:

يُفهم مما سبق ذكره أنّ اكتساب اللغة يتعلق أولا بطبيعة المعرفة اللغوية الفطرية والتّي خلص إليها تشومسكي من خلال الإشكال الأفلاطوني، والذّي أتت صيغته في السؤال الثاني من الأسئلة التشومسكية الأربعة كالتالي: كيف تنشأ وتكتسب اللغة؟، فبعد أن بين تشومسكي أنّ نظام المعرفة اللغوي هو نظام ذهني وأنّ اللغة ذات طبيعة فطرية، خلص إلى أنّ لِلغة الإنسانية جهازا فطريا محددًا وراثيا مسؤولا عن اكتساب الأطفال _والبشر عموما_ للغة وهو ما يُفسر التعلم السريع والسهل للأطفال في سن مبكرة جدّا _وهو ما يتنافى مع المبدأ السلوكي في تعلم اللغة_ حيث تلعب البيئة الخارجية والمتمثلة في العائلة والأهل للأطفال المساعد الثانوي لإخراج هذه الحالة الفطرية من كمونها الذهني إلى الواقع الحسي.

يقوم المبدأ التشومسكي في اكتساب اللغة على أنّ لِلغة الإنسانية جهازا مسؤولا عن اكتساب اللغة ، يُسميه <<أداة اكتساب اللغة Language aquisition device، أي مكون فطري من مكونات العقل الإنساني دوره يتمثل في تحديد لغة خاصة عبر التفاعل مع التجارب الحاضرة، فهي أداة تحول التجربة إلى نظام مكتسب من المعرفة أي معرفة لغة أو أخرى>>[1]؛ ويمكن فهم عملية الاكتساب التّي وضعها تشومسكي من خلال المخطط التالي:

الملكة اللغوية الأولية(S_0) ⟵ **الملكة اللغوية** ⟵ **اللغة** ⟵ **التعبيرات المركبة**[2]

تمثل الملكة اللغوية <<النظام الإدراكي أو النسق الصوري الداخل في تركيب العقل أو الدماغ>>[3] يتكون من الحالة الأولية الفطرية ، فإذا ما توفرت لهذه الملكة التجربة اللغوية

---

[1] – نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها أصولها استخدامها، مصدر سابق، ص53.

[2] – نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص59.

[3] – علي حرب، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي، مرجع سابق، ص107.

الملائِمة التّي ستزودها بالمادة اللغوية، فإنّها ستنتقل من حالتها البِّدئية الأولية(S_0) إلى حالة مستقرة نسبيا. أي أنّ الملكة اللغوية تنتقي المادة اللغوية المتوفرة في بيئة الطفل وتستمر معالجة هذه المادة اللغوية _العربية على سبيل المثال_ في الإطار الذهني للطفل من نقل للأصوات، ثم تهجئة الكلمات وتكوين مفردة كاملة مكونة من فونيمات قليلة مثل كلمة (ماما)، ثم ثلاث أو أربع كلمات فجملة، وهكذا إلى أن تستقر لديه معرفة كاملة بالعربية، فيكون بذلك قد وصل إلى مرحلة اكتساب مفردات وجمل لغوية كاملة نوعا ما ثم بعدها تأتي مرحلة النضج التّي يكون فيها الطفل _أي الإنسان عموما_ قد توصل إلى تكوين تعبيرات لغوية مركبة ومعقد نوعا ما وهي مرحلة التمكن من اللغة أي لغته العربية. تتعرض هذه الملكة في الحالة المستقرة نسبيا إلى بعض التعديلات العرضية الثانوية التّي تُساهم في إثرائها، كاكتساب وحدات معجمية جديدة(مفردات، وحتى جمل) مع مرور الزمن واكتمال نمو الطفل.

يبدأ الاكتساب اللغوي عند الأطفال إذن <<ببناء تنظيم فونولوجي بشكل فعال ثم بناء تركيب لغوي لا يُشبه نوعا ما تركيب الكبار؛ فهو يكون كلمة عبر التقاطه لمجموعة من الحروف المشكلة في أصوات، ويبتدأ تدريجيا في بناء مفردة أو مفردتين، ثم تكوين جملة ذات عدد قليل من المفردات وهكذا دواليك إلى أن يصل إلى تنظيم تركيب لغوي كالذّي يُنشِئه البالغون، وبهذا يظهر مفهوم الجملة عند الأطفال في سن مبكرة جدا، ما يعكس وجود الاستعدادات المحددة جينيا والتّي يتزود بها الطفل بصورة فطرية>>[1]. يُلخص جون ليونز عملية الاكتساب اللغوي في المنظور التشومسكي في ثلاث مراحل؛ "المرحلة الأولى هي مرحلة البأبأة (babbing stage) والتّي يستطيع الأطفال فيها النطق ببعض الحروف

[1] – ميشال زكريا، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 02، 1986، ص ص56، 57.

وبنصف كلمة، أمّا المرحلة الثانية فهي مرحلة الكلمة الجملة (holoprastic stage)، وأخيرا المرحلة الثالثة وهي مرحلة الكلمتين (two-word stage)"[1].

تُفهم الحالة الأولية محددة وراثيا، على أنّها <<مثلها في ذلك مثل المكونات الأخرى للجسد كالكلية وجهاز الدوران وما إليها. وإنّ دراسة هذه الحالة الأولية هي نسخة معاصرة من القواعد الشاملة (العقلانية، الفلسفية) التراثية. ويبدو أنّ هذا المظهر البيولوجي موحد تقريبا عند كل الأجناس البشرية، لا تستثنى منه إلاّ الحالات المرضية. كما يبدو أنّه فريد في جوانبه الجوهرية. وهذا يعني أنّ خصائصه الجوهرية ليست موجودة فيما يبدو، عند العضويات الأخرى، وربما هي غير موجودة أيضا في أي مكان آخر من العالم العضوي>>[2].

تمثل عملية اكتساب اللغة محورا مهما من محاور الطرح التوليدي التحويلي، تُحددها نظرية النحو الكلي؛ وهي جهاز وراثي فطري يُسميه تشومسكي بجهاز اكتساب اللغة <<ولهذا الجهاز دَخْلٌ تمثله تجربة لغوية معينة، وله خَرْجٌ تمثله لغة خاصة أو نحو خاص>>[3]، للملكة اللغوية حالة بدئية مشتركة بين جميع الأطفال وتكون هذه الحالة موضوع النحو الكلي الذّي يحتوي المبادئ العامة والمشتركة الفطرية للغة، وتمثل المُدخلات بيئة لغوية معينة تكون في أغلب الأحيان الوالدين والعائلة، تمتزج هذه المدخلات البيئية مع الحالة الذهنية الأولى ويكونان معا المُخْرَجات التّي تمثل الشكل النّهائي للغة التّي يستخدمها الطفل فيما بعد أي لغته الخاصة المكتملة والناضجة. باختصار، إنّ مسألة اكتساب اللغة مسألة نمو ونضج لقدرات ثابتة نسبيا في ظل ظروف خارجية ملائِمة، ويتحدد شكل اللغة

---

[1]- جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، تر: حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط 01، 1985، ص 229.

[2]- نعوم تشومسكي، قوى وأفاق تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، تر: ياسين الحاج صالح، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط01، 1998م، ص ص207، 208.

[3]- نعوم تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، مصدر سابق، ص15.

المكتسبة بشكل كبير بواسطة العوامل الداخلية، وذلك بسبب التوافق الأساسي بين جميع اللغات البشرية.

إذا كانت الحالة الأولية للملكة اللغوية فطرية؛ محددة جينيا، ومشتركة بين جميع البشر؛ فكيف لنا أن نفسر اختلاف وتعدد لغاتهم؟. يُقر تشومسكي بأنّ الوصول إلى إجابة نهائية لهذا التساؤل هو أمر في غاية التعقيد ولم يتحقق منه الكثير، فلو سلمنا قطعا بفطرية اللغة فإنّه علينا أن نجد تبريرا منطقيا وعلميا موضوعيا للأسباب التّي تقود إنسانا ما في الهند لأنْ يتكلم الهندية بدلا عن الفرنسية _على سبيل المثال، فالسؤال الأصح هو: ما الذّي يقودنا لأنْ نتكلم لغات تبدو في ظاهرها متباينة عن بعضها البعض لكنها متشابهة ومتماثلة تقريبا في مستواها العميق؟.

يطلق تشومسكي على التغيرات والاختلافات الموجودة بين متحدثي اللغات تسمية "الأنساق الأدائية أو أنساق الإنجاز؛ وهو يعتبرها جزءا من الملكة اللغوية أو بالأحرى أنّها تدخل في تصميم اللغة لكن كيف تتغير هذه الأنساق من الحالة البدئية المشتركة إلى هذه الأنساق المختلفة؟ وهل هذه الأنساق ثابتة أم متغيرة؟ أم أنّها خاضعة للنمو أم لا؟"[1]. يفترض تشومسكي بأنّ هنالك <<نسقا معرفيا مخزنا للمعلومات، يمر من خلاله الانتقال من الحالة الأولية الداخلية إلى حالة الأنساق الأدائية، هذا النسق جزء لا يتجزأ من الملكة اللغوية الإنسانية المحددة وراثيا>>[2]. إنّ هذا النسق المعرفي الأولي يكمن في الملكة اللغوية وهو حسب زعم تشومسكي <<يغير حالته الأولى، أي الحالة الذهنية المشتركة المحددة وراثيا لأسباب عِدة، وأهمها سببين رئيسيين هما: عمليات إنضاجية داخلية، أو بسبب معطيات الواقع الخارجي>>[3]، وهكذا نصل إلى ما يُسميه اكتساب اللغة والتّي يعتبرها عملية نمو أكثر منها عملية تعلم _لأنّ مصطلح التعلم عنده مصطلح مضلل نوعا ما_ فاكتساب اللغة بصفة

[1] – نعوم تشومسكي، بنيان اللغة، مصدر سابق، ص27.

[2] – المصدر نفسه ، ص ص27، 28، بتصرف.

[3] – المصدر نفسه، ص 29.

عامة هو شيء يحدث لنا وليس شيء يمكن تعلمه وتلقينه. <<إنّ الحالات التّي تتخذها الملكة اللغوية تختلف فيما بينها بشكل سطحي جدا أي أنّ الاختلافات بين اللغات المتعددة التّي نراها اليوم هي اختلافات سطحية وعرضية فقط وهي ليست سوى حالات متعددة تتخذها الملكة اللغوية المشتركة وما الدور الذّي تلعبه البيئة والتجربة الخارجية ليس سوى دور يُشكل الحالة النهائية لهذه الملكة>>[1].

[1] – المصدر نفسه، ص29، بتصرف.

ثالثا: المقاربة اللسانية الأحيائية من منظور تشومسكي

1/-اللغة والعقل من منظور أحيائي:

يُنظر إلى اكتساب اللغة في "المقاربة اللسانية الأحيائية"* على أنها عملية نمو تخضع له الملكة اللغوية المحددة أحيائيا، وهي عضو من أعضاء الجسد ذات الأنظمة المعرفية المتعددة، وعلى هذا الأساس يجب أن تُدرس من منظور طبيعي فيكون موضوعه هو اللغة بوصفها <<عضو طبيعي مثل باقي أعضاء النظام العضوي؛ واللغة أيضا موضوع طبيعي تنطبق عليه نفس المناهج العلمية التّي تطبّق في العلوم الطبيعية>>[1]، فالبشر يمتلكون في تصميمهم الجيني موروثة مسؤولة عن إنتاج اللغة، تعتبر هذه الموروثة أحد مكونات الملكة اللغوية الموجودة في ذهن الأفراد فتمكنهم من توليد وتأويل ما لا حصر له من الملفوظات والصور التعبيرية.

في المنظور اللساني الأحيائي يُنظر إلى اللغة على أنّها << عضو من أعضاء البدن، مثلها مثل أجهزة البصر والهضم والمناعة. وهي مثل الأجهزة الأخرى مكون فرعي من كائن حي مركب له من التكامل الداخلي ما يكفي لأن يكون من المقبول أن يُدرس دراسة مجردة عن تفاعلاته المعقدة مع الأجهزة الأخرى في حياة ذلك الكائن. وهي عضو معرفي مثل أجهزة التخطيط والتفسير والتأمل وغير ذلك مما يقع ضمن تلك الجوانب من العالم التّي تُدعى "العقلية" والتّي يمكن ردها بشكل من الأشكال إلى التركيب العضوي للدماغ>>[2].

---

*-ابتدأت محاولة تقريب دراسة اللغة من حقل العلوم الطبيعية والأحيائية مع المشاركة التّي قام بها تشومسكي مع مجموعة من الباحثين وعلى رأسهم مارك هاوسر وتِكُومْسه فيتشه في مجلة "العلم" بوثيقة بحثية تمحورت دراستها على مجموعة من الافتراضات أولها كانت في المقارنة بين اللغة عند البشر وأنواع من الحيوانات التي تمتلك أنظمة متنوعة من التواصل، وكانت أهم نتائجها هي أنّ النظام اللساني البشري لا يُشبه مطلقا أنظمة التواصل الحيوانية. نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص64.

[1]- نعوم تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، مصدر سابق، ص18.انظر أيضا نعوم تشومسكي، بنيان اللغة، مصدر سابق، ص26.

[2]- نعوم تشومسكي وروبرت سي بيرويك، البرنامج البايولساني" ماذا هو عليه الآن"، مرجع سابق، ص11.

تقوم الدراسة اللسانية الطبيعية على أنّ النسق اللغوي الإنساني لا يُشبه مطلقا أنظمة تواصل الكائنات الحية الأخرى، وهذا لأنّه نظام يمتلك القدرة على إنتاج وتأليف تعابير وأصوات لغوية جديدة، ويحوز خاصية فريدة من نوعها هي خصيصة التكرارية[1] _التّي ستمثل أقوى فرضيات البرنامج الأدنوي الذّي طرحه تشومسكي في تسعينيات القرن الماضي_ يتجلى جوهر هذه الخاصية في كون اللغة البشرية بنية ذهنية عضوية مهمتها الأساسية هي بناء وإنتاج جمل جديدة من ألفاظ مسموعة من قبل أو حتى ألفاظ مبتكرة تماما؛ فتكون الجملة على شكل سلسلة غير منتهية ولا محدودة طوليا، وتعتبر شرطا ضروريا لوجود اللغة الإنسانية.

يرى تشومسكي أنّ <<اللغة مظهر من مظاهر الطبيعة البيولوجية للكائن البشري*...والهدف من هذه المقاربة هو إعادة بناء تصور الأصل البيولوجي للقدرات اللغوية وتوضيح الفرضيات الخاصة بذلك قصد إخضاعها للاختبار التجريبي>>[2]؛ بالنسبة إليه تتيح لنا هذه الدراسة فتح آفاق جديدة في الكثير من التخصصات كعلوم فيزيولوجيا الأعصاب التّي تدرس الدماغ الإنساني وما يلحق به، ولقد أثبتت الدراسات في هذا المجال بأنّ صحة الدماغ والأعصاب لها الدور الرئيسي في سلامة اللغة وكلام الأفراد، ما يؤكد بأنّ اللغة يمكن دراستها دراسة كبقية الأنظمة العضوية.

يتمحور دور علم الأحياء في هذا المجال اللساني في تحديد الآليات والعمليات الذهنية الأحيائية المتدخلة في إنتاج اللغة وتقديم التفسيرات الطبيعية العلمية لها وكذلك فهم

---

[1] – نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص 64.

* – استوحى تشومسكي هذه الدراسة في سياق تقريب حقل اللسانيات وميدان العلوم الأحيائية من النظرية التّي قدمها العالِم إيريك لينبرغ سنة 1967 في مقال بعنوان "الأسس الأحيائية للغة Biological foundations of language"، إذ أقر بأنّه يجب أن تكون دراسة اللسانيات هي دراسة طبيعية تشريحية للجسم البشري، لكن تشومسكي يقف موقف الضد من التجارب على البشر وعلى كل ما هو غير أخلاقي، لأنّ هذا من أسس البحث التجريبي وواحد من التصورات التّي صاغها لمفهوم الإنسانية، فهو يرى بأنّ الإنسان كائن أخلاقي بطبعه، وهذا صميم وجوهر طبيعته الإنسانية المتمايزة، انظر، تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، مصدر سابق، ص94.

[2] – محمد محمد العمري، الأسس الابستيمولوجية للنظرية اللسانية، مرجع سابق، ص 203.

طريقة عمل هذه الأليات الفطرية البيولوجية كفهم طبيعة النحو الكلي البيولوجية ومبادئه وتكوين الكلمات وتركيب الصيغ اللغوية إذ يرى تشومسكي أنّ <<طبقة الألسن البشرية الممكنة [=النحو الكلي] طبقة محددة جينيا، وهي خاصية يختص بها الجنس البشري... وهكذا يمكن اعتبار النظرية اللسانية نظرية للجهاز البيولوجي المسؤول عن اكتساب واستعمال اللغة، أو نظرية للنحو الكلي تفسر خصائص اللغة البشرية التّي تفرضها الضرورة البيولوجية...إذ يمكن اعتبار النحو الكلي نظرية لميكانيزمات فطرية أو عضوا بيولوجيا مضمرا، إنّه الإطار الذّي تنمو اللغة بداخله>>[1].

يُمثل التحول المعرفي الذّي قدمه تشومسكي انتقالا من آفاق الفلسفة إلى البيولوجيا والطبيعيات، حيث أصبحت الملكة الفطرية الفلسفية بنية ذهنية أحيائية وعضو بيولوجي مكانه الدماغ/العقل؛ قاعدة محورية من قواعد النظرية التوليدية التحويلية وترسيخا لإمكانية دراسة اللغة دراسة علمية أي إلحاق علم اللغة بالعلوم الطبيعية، وليس مجرد غطاء لتقديم هذه النظرية بصورة علمية ليتم قبولها وسط اللسانيين والعلماء؛ لذلك يعمد الكثير من الباحثين في النظرية التوليدية إلى اعتبار أنّ هذا التحول الذّي قدمه تشومسكي هو انتقال منسجم من الفلسفة (العقلانية) إلى البيولوجيا (العلمية) هو هام ومدروس تميزه السلاسة والانسجام وليس تحول عبثي أو هروب من الميتافيزيقا وعدم التسليم بالأحداث بشكل يشبه الإيمان الديني.

إنّ تبني تشومسكي للمنظور العقلاني الفلسفي الكلاسيكي في دراسة اللغة؛ كان محاولة منه لإحياء بعض الأفكار التّي تم تجاهلها وإقصاؤها من طرف اللسانيين والفلاسفة، لكن مع وضعها قيد التمحيص والتدقيق من أجل نفي الغموض عنها وتطويعها وفق رؤية علمية جديدة بعيدة نوعا ما عن الميتافيزيقا التّي صبغت التصور الكلاسيكي، ويرى نيل سميث أنّ <<انتماء تشومسكي للمدرسة الذهنية يمثل محاولته فهم أعمال العقل البشري

[1] – المرجع السابق، ص205.

ضمن إطار العلوم الطبيعية>>[1]؛ ولهذا كان ينظر إلى الذهن/العقل (Mind/Brain)من في إطار المقاربة اللسانية الفلسفية الأحيائية على أنّه عضو بيولوجي هو الدماغ الذّي يتكون من مجموعات من الأجزاء ولديه مجموعة من الوظائف التّي يؤديها مثله مثل جميع الأعضاء المكونة لجسم الإنسان له حيز مكاني؛ إنّه <<يُشبه غيره من الأجهزة البيولوجية المعروفة: متمايز، مكون من نظم معرفية عالية التخصص، ذات طابع مميز ومجالات اشتغال خاص، وتتفاعل فيما بينها بشتى أنواع الطرق>>[2]. لا يضع مجال للمقارنة بينه وبين لفظة الدماغ فهو يعتبر أنّ العقل/ الذهن هو الدماغ، حيث العقل بالمفهوم الفلسفي ينتج ويركب التصورات والمفاهيم، يتطابق مع الدماغ كبنية عضوية مادية مسؤولة عن آليات هذا الإنتاج والتركيب، لقد سعى إلى ردم الهوة بين الفلسفة والبيولوجيا من خلال هذا التماهي.

يمثل الدماغ نظاما بيولوجيا معقدا جدا يتكون من مجموعة من الأجزاء كل جزء مسؤول عن ملكة معرفية معينة لها نظامها الخاص وتترابط مع الملكات الأخرى بطريقة ما، من بين هذه الأجزاء هنالك جزء/عضو مسؤول عن اكتساب وإنتاج اللغة يتشكل هذا الجزء وفق نظام ذهني مركب ويرى تشومسكي أنّ هذا الجزء له حيز مادي في دماغ الإنسان مثل ذلك الجزء المسؤول عن الإبصار أو السمع وغيرهم؛ ومنه فهذا الجزء المسؤول عن اللغة هو<<عضو ذهني إدراكي أي عضو ذهني يناظر عضوا ماديا>>[3]؛ وقد تكشف لنا السنوات القادمة من خلال التطورات التكنولوجية هذا الجزيء ومكانته وكذلك الآليات التّي يعمل بها؛ لأنّه <<هو الذّي يمكن الإنسان من بناء ما لا حصر له من التصورات حول لسانه، وبفضله يستطيع أن يربط بين الأصوات وتلك التصورات>>[4].

---

[1]– نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي الأفكار والمثل، مرجع سابق، ص396.

[2]– نعوم تشومسكي، قوى وآفاق تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، مصدر سابق، ص215.

[3]– جون ماهر وجودي جروفز، أقدم لك نعوم تشومسكي "اللغة والسياسة"، مرجع سابق، ص 46

[4]– محمد محمد العمري، الأسس الابستيمولوجية للنظرية اللسانية، مرجع سابق، ص 198.

إنّ جعل النظام الذهني اللغوي نسقا أحيائيا في نظر تشومسكي هو أنموذج واحد فقط من بين مجموعة النظم والأنساق الذهنية التّي يزخر بها العقل البشري؛ والتّي يجب أن تدخل هي الأخرى إطار البحث العلمي البيولوجي؛ ومن الضرورة النظر إلى العالم الذهني بنفس الرؤية التّي تُعتمد في دراسة العالم الأحيائي، لأنّ العمليات الذهنية في بنيتها لا تخرج عن كونها مكونة ومصممة بطريقة عضوية ولهذا << لا يمكننا النظر إلى مظاهر العالم الذّي يسمى ذهنيا إلاّ بوصفها نتيجة للبنية العضوية للدماغ>>[1]؛ ويدخل في هذا التصور جل المظاهر الذهنية والعمليات العقلية كالذكاء والتخيل، والفهم...وغيرها، ومع ذلك يرفض تشومسكي الحديث عن التجارب على الإنسان ففي نظره يعد الأمر غير أخلاقي ويمس بكرامة الفرد؛ حتى وإن كان الأمر لغرض الاكتشافات العلمية، أمّا ما يعنيه تشومسكي بدراسة اللغة والدماغ دراسة تشريحية فهو لا يعني إجراء التجارب على دماغ الإنسان مثل ما يحدث في حالة الحيوان، بل دراسة الدماغ البشري واللغة والذكاء ومعظم البنيات الذهنية علميا بمستوى كبير من التجريد، حيث يكون الاستنباط هو بمثابة الدراسة التشريحية و<<يصوغه تشومسكي من خلال مشكلة أفلاطون: حيث غنى المعرفة اللغوية رغم قلة التجربة الخارجية؛ والتّي لا تفسر إلاّ باعتبارها مظهرا بيولوجيا. ومن خلال الاستنباط يكون التعميم الذّي يقوم على أنّه كلما صادفنا ظاهرة مماثلة تبنى فيها المعرفة انطلاقا من معطيات محدودة، سلمنا بأنّ هناك مجموعة من الضغوط القبلية هي التّي حددت تلك المعرفة>>[2].

2/-البرنامج الأدنوي:

يعتبر هذا البرنامج امتدادا لمراحل تطور النظرية التوليدية التحويلية والتّي قام فيها تشومسكي بالانتقال من دراسة النسق اللغوي وما يلحقه من خصائص وتفسيرات لسانية إلى دراسة اللغة كنسق أحيائي له خصائص عضوية مرتبطة بالجانب البيولوجي للإنسان، ويدخل

[1] – نعوم تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، مصدر سابق، ص95.

[2] – محمد محمد العمري، الأسس الابستيمولوجية للنظرية اللسانية، مرجع سابق، ص 205، 206، بتصرف.

هذا البرنامج مباشرة فيما يُسمى بالمقاربة البيولوجية اللسانية. وهو" محاولة وخطوة حاسمة في تحقيق مبدأ ما وراء الكفاية التفسيرية الذّي يسعى من خلاله تشومسكي إلى فهم وتحديد الخصائص المهمة والخاصة بالجهاز الوراثي للغة الإنسانية أي بالملكة اللغوية بالضبط، ويقدم هذا البرنامج اثنين من الأطروحات : الأدنوية الأنطولوجية والأدنوية المنهجية"[1].

الأطروحة الأدنوية الأنطولوجية وتُسمى بالأطروحة الأدنوية القوية؛ وتهتم بدراسة وتحديد خصائص اللغة الإنسانية وبالضبط تحديد خصائص الجهاز الوراثي المسؤول عن الملكة اللغوية البيولوجية؛ تفترض هذه الأطروحة ثلاثة افتراضات هامة، أولها: <<أنّ اللغة وظيفة من الوظائف العقلية التّي يتيحها الدماغ البشري؛ ثانيا: اللغة في جوهرها نسق حاسوبي يستعين بمعجم إدراكي لإنتاج جمل أو عبارات محددة تعكس كلا منها علاقة بين نسقين محاذيين للنسق الحاسوبي، أحدهما نسق مرتبط بالصوت والآخر مرتبط بالمعنى، ثالثا كي يتسنى لنا استخدام اللغة لابد من قدرة النسقين المرتبطين بالصوت والمعنى على قراءة العبارات التّي ينتجها النسق الحاسوبي، وهذا ما يُعرف بشروط المقروئية>>[2].

إذا كانت الأدنوية الأنطولوجية (القوية) تهتم بضبط خصائص وطبيعة الموضوع المدروس وهو الملكة اللغوية الموروثة، فإنّ الأدنوية المنهجية تهتم بالبناء والبحث المنهجي لفهم طبيعة الملكة اللغوية، وتقوم الأدنوية المنهجية على <<المنهجية الغاليلية*، التّي تتميز بأنّها تقدم نظرة جديدة إلى العالم/موضوع العلم قائمة على أنّ دراسة ظاهرة ما لا تتحدد دوما استنادا إلى معطيات الواقع الحسي؛ بل تستند على ما يبنيه العالِم لا ما يقدمه العالَم الحسي

---

[1] – نعوم تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، مصدر سابق، ص18

[2] – إبراهيم الكلثم، حوار مع فهد المطيري، منصة معنى، 2022/03/03، ص06، الرابط: https://mana.net

* – المنهجية الغاليلية أو الأسلوب الغاليلي نسبة إلى غاليليو، ويقصد به عموما "الاهتمام بالقليل من المعطيات، مقابل الاهتمام المتزايد بالعمق التفسيري"، ويرى تشومسكي أنّ اتباع الأسلوب الغاليلي في دراسة اللغة يمثل تحول اهتمام العالِم من العناية بتغطية المواد والمعطيات إلى العناية بعمق التفسير وإفراز مفهوم دال للغة يُصبح موضوع بحث عقلاني ينمى على أساس تجريدي. انظر، مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مفاهيم وأمثلة، عالم الكتب والحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط01، 2010م، ص213.

من معطيات>>[1]، لأنّ الظواهر الحسية في غالبها لا تقدم لنا أجوبة حقيقية وصحيحة ومنه علينا بناء النظريات وفق مستوى كبير من التجريد لا ننفي فيه دور المعطيات الحسية إنّما لا نعتمد عليها ولا نقتصر في بحثنا على وصفها فقط بل على الوصف والتفسير وربما أكثر؛ ويعتبر التبسيط أول الغايات التّي يسعى البرنامج الأدنوي للوصول إليها "حيث شمل التبسيط في هذا البرنامج مفاهيم ركائزية كثيرة كمفهوم الاقتصادية التّي طرحها النحو الكلي ومبدأ اللسانيات الاسبراطية، الدمج والموافقة، الموضعية؛ والضرورة المفاهيمية"[2].

يعتمد برنامج الأدنوية على مبدأ إعادة النظر في كل الافتراضات والأفكار والنظريات التّي تم طرحها خلال البحث الذّي أُعِّدَ من بداية ظهور النظرية التوليدية؛ وكذلك تحليل النتائج التّي تم التوصل إليها خاصة تلك المتعلقة بالتفسير اللساني البيولوجي للملكة اللغوية وإمكانية إيجاد تفسيرات لغوية خارج عن هذه المقاربة البيولسانية؛ ويؤكد تشومسكي أنّ أطروحة البرنامج الأدنوي تروم إلى إعادة النظر في حقل اللسانيات، حيث تصبح المكونات اللغوية والافتراضات اللسانية خاضعة للتحليل والتدقيق من أجل إعادة صياغة النظرية اللغوية التوليدية التّي قُدمت من قبل.

يهدف التبسيط الذّي قدمته الأدنوية لكفاية ما وراء التفسير في <<إيجاد أكبر قدر ممكن من تفسيرات الظواهر اللسانية خارج ملكة اللغة، سواء كانت خصائص إدراكية عامة أو كدالة على قانون مادي ما>>[3]، بمعنى أنّ السعي الفعلي كان هدفه تجاوز الفكرة القائلة بأنّ الظاهرة اللسانية _والتّي تُعد فطرية في جوهرها بنية داخلية ذهنية_ إلى اعتبار أنّها بنية فطرية جينية ترتبط أيضا بالجانب النفسي للإنسان وتخضع لبعض القوانين المادية الفيزيائية؛ ولا نفهم التجاوز هذا بمعنى التخلي عن فطرية اللغة واعتبارها بنية موروثة بل نقصد بالتجاوز هنا التطور القائم على السُّلم التصاعدي من الأسفل إلى الأعلى أي من كونها

[1] – نعوم تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، مصدر سابق، ص24.

[2] – المصدر السابق، ص ص30، 31، بتصرف.

[3] – نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي "الأفكار والمثل"، مرجع سابق، ص 197 .

موهبة بيولوجية حَبتنا بها الطبيعة، إلى اعتبارها ذات خصائص نفسية مرتبطة ببعض الجوانب الفيزيائية. فترتبط دراسة اللغة وعلم اللسانيات بعلم النفس الإدراكي والعلوم الطبيعية كالبيولوجيا والفيزياء وكذلك الرياضيات ؛ ويُصر تشومسكي بأنّ الغاية من وراء مسعى النحو الكلي يتجلى في <<إظهار أنّ ما لا يمكن تجنبه تجريبيا مفروض بحكم تصميم خصائص الأنظمة الخارجية>>[1].

يتمحور السؤال الرئيسي في الأدنوية حول: <<مدى محدودية ما يُنسب للنحو الكلي الذّي لا يزال مسؤولا عن تفسير تنوع اللغة الذاتية (الداخلية) التّي تم إحرازها>>[2]؛ يبقى النحو الكلي قيد التطوير والبحث من قبل تشومسكي فقد كان يُنظر إليه على أنّه واحد من العوامل الثلاثة التّي تدخل في تكوين اللغة وهي: "الموهبة الوراثية الجينية المثَّبتة في تصميمنا البيولوجي؛ وهي الحالة الذهنية الأولى التّي تكون موضوع النحو الكلي، وأمّا العامل الثاني فهو التجربة الخارجية وهي تمثل مجموع المعطيات اللغوية الخارجية التّي يصادفها المرء(لغة المحيط الخارجي)، ويمثل العامل الثالث في مجموع المبادئ المستقلة عن اللغة وهي تلك المتعلقة باعتبارات الاشتقاق من الأوجه العامة للإدراك مثل سرعة ونوعية المعالجة إلى جانب الخصائص الإحصائية للمدخلات وقيود الذاكرة"[3].

تعد اعتبارات العامل الثالث من بين الاعتبارات التّي تم إعادة النظر في افتراضاتها في برنامج الأدنوي كالافتراض حول خاصية التكرار التّي تمتاز بها اللغة الإنسانية والتّي كان يُظن أنّها من خصائص اللغات الطبيعية ومع التحليل التبسيطي لهذا البرنامج أصبح يُنظر إليها على أنّها فطرية عبر ما يُسمى لغة الأفكار، وينطبق أمر "المراجعة التبسيطية على سقوط بعض الخصائص الحوسبية اللسانية من مجمل الخصائص العامة للحوسبة الإدراكية مثل خاصية الموضعية؛ وأيضا سقوط بعض القيود المادية الأولية مثل سرعة النقل

[1] – المرجع السابق، ص 210.

[2] – المرجع نفسه، ص 207.

[3] – نعوم تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، مصدر سابق، ص 93.

العصبي، وحجم العقل البشري والكثير من القواعد والمبادئ كتقلص الفرق بين قواعد شبه الجملة والتحويلات إلى حد كبير حتى انحصرت إلى عمليتين اثنتين فحسب وهما الدمج والحركة، فضلا عن حصر مفهوم الاقتصاد في اللسانيات في ثلاثة مفاهيم وهي المفهوم الصوتي، ومن ثم التداولي، وصلا إلى النحوي؛ بعد أن كانت سبعة مفاهيم؛ ولقد تحقق التبسيط في ما وراء الكفاية التفسيرية من خلال إزالة صور الشكل المنطقي والصوتي كمستويات داخلية ضمن قواعد النحو"[1]. باختصار تُمثل الأدنوية برنامجا منظما من أجل تحقيق مبدأ الكفاية ما بعد التفسيرية والهدف الحقيقي من هذا المسعى اللساني هو الوصول إلى فك التعقيد عن اللغة الإنسانية عن طريق تحقيق مستويات مبسطة تكون أقل تعقيدا وغموضا وأكثر اختصارا واختزالا للنحو وللغة الإنسانية.

[1]– المصدر السابق، ص 31.

المبحث الثاني:

المنظور الديكارتي للغة والقراءة التشومسكية له

أولا: المنظور الديكارتي للعقل واللغة

1/- الثنائية الديكارتية:

مِثل أفلاطون ومعظم الفلاسفة العقلانيين، بنى ديكارت* نظرته للإنسان على معيار الازدواجية المشهورة التّي عُرف بها وهي "ثنائية النفس[=العقل] والجسم"**، والتّي كانت أهم محاور فلسفته العقلية. بدأ ديكارت البحث في العالم الخارجي من قاعدة التشكيك في كل المعارف التي تلّقاها منذ صغره من خلال محيطه الواقعي الحِّسي حتى المدركات العقلية، جازما بعدم قبوله لأي معرفة من المعارف ما لم يتبين له بالبداهة والوضوح بأنّها حقيقية. كان الحِّس أول ما شك به، لأنّ الحواس هي التّي تمدنا بالصورة الأولية لكل معرفة نتلقاها؛ فاستنتج من خلال تأملاته أنّ تلك الصور خادعة في كثير من المرات، وقد دون هذا في ملاحظاته قائلا: <<لاحظت، مرات عديدة، أنّ الأبراج التّي كانت تلوح لي مستديرة عن بعد، هي مربعة عن قرب؛ وأنّ التماثيل الضخمة، المقامة على قمم تلك الأبراج، تبدو لي تماثيل صغيرة، إذا نظرت إليها من أسفل...لقد وجدت خطأ في الأحكام المبنية على الحواس الخارجية، بل وفي الأحكام المبنية على الحواس الداخلية>>[1]، ما يعني أنّ المعارف التّي تأتينا من الحواس ليست سوى صور خاطئة ومزيفة ولهذا لا تصح أن تكون مبادئ للمعرفة ومن الضروري رفضها لِإنعدام موثوقيتها وصِدقها، وعليه أقر بأنّه <<من الحكمة ألا نطمئن أبدا كل الاطمئنان إلى من يخدعنا ولو لمرة واحدة>>[2].

---

*- رونيه ديكارت(1650/1595) فيلسوف فرنسي، يعد رائد الفلسفة في العصر الحديث، وفي الوقت نفسه كان رياضيا ممتازا، ابتكر الهندسة التحليلية، سميت فلسفته بالفلسفة العقلية لاتخاذه العقل مصدرا أوليا للمعرفة ، وأُشتهر بما يُسمى بالكوجيتو الديكارتي "أنا أفكر، أنا موجود". انظر، عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، مرجع سابق، ص ص 488، 491.

**- يطابق ديكارت بين مفهوم العقل والنفس أو الروح مطابقة شبه مطلقة، وهو يعتبر أنّ هذه الروح هي من خلق الإله، ولذلك نظر إليه نظرة متميزة ومغايرة عن الجسم. أُنظر، رونيه ديكارت، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، تر: كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت، ط04، 1988م، ص21.

[1]- المرجع نفسه، ص58.

[2]- المرجع نفسه، ص14.

إنّ رفض الانطباعات والصور الحسية لا يعني رفض الحواس ككيانات موجودة مكونة للجسم، ففي رأي ديكارت إذا << كانت الحواس تخدعنا، بعض الأحيان، في أشياء صغيرة جدا وبعيدة عن متناولنا، فهناك أشياء كثيرة أخرى لا يُعقل أن نشك فيها؛ وإن كنا نعرفها عن طريق الحواس مثال ذلك أن ألبس عباءة المنزل، فأجلس هنا قرب النار، وقد أمسكت بين يدي تلك الورقة>>[1]؛ فالجسم وأعضاؤه الجسمية له وجود فعلي مقارنة بتلك المعارف الحسية المزيفة التّي تأتي من الخارج؛ لكن هل هذا الوجود هو وجود حقيقي؛ يذهب ديكارت إلى أنّ وجود الجسم غير حقيقي أيضا. وحتى المعارف الحسية الداخلية كالمشاعر والانفعالات حتى الظن، الحلم والتوهم؛ هي خاطئة في معظم الأوقات. قدم ديكارت تعريفه للجسم على أنّه هو <<كل ما يمكن أن يُحس، إمّا باللمس، أو البصر، أو السمع، أو الذوق. هو كل ما يحركه في اتجاهات عديدة؛ شيء بَرَّاني، يمسه ثم يترك فيه أثرا>>[2]؛ إذن فبِنية الجسم تقوم على كل ما هو حسي وعضوي فاللمس والسمع والبصر كلها حواس لأعضاء يتكون منها هذا الجسم وهي أشياء بيولوجية يتشارك فيها الإنسان مع الحيوان وسائر الموجودات الكونية المادية ولهذا تكون الصفات الجسمية كالتغذي والمشي والإحساس مرتبطة بالجسم فقط مع أنّه في بداية شَكِّه اعتبرها صفات مشتركة بين النفس والجسم لكن مع بحثه العقلي تبين له أنّها غير مرتبطة بالنفس إنّما هي جسمية فقط.

إنّ الكون بما فيه من أجسام وأشياء متعددة ومختلفة إنّما هو يسير وفق نظام محدد ومسير بقوانين فيزيائية منتظمة؛ لأنّ الإله خلقه بطريقة منتظمة ومتناسبة حيث لا مجال للصدفة والعبثية في هذا النظام، وقد خُلق هذا الكون من المادة ومن هذه المادة تكونت الطبيعة. هذه هي القاعدة الفكرية التّي بُنيت عليها الفيزياء الديكارتية، <<فكل الطبيعة ترجع إلى مادة ونظام محدد بالقوانين التّي وضعها الإله فيها...وأهم ما ينتج عن ذلك أنّ الطبيعة لا تحمل أرواحا ولا أشكالا جوهرية، ولا عوامل مستقلة تسيرها وتخرجها عن حتمية القوانين

[1] – المرجع السابق، ص14.

[2] – رونيه ديكارت، حديث الطريقة، تر: عمر الشارني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط01، 2008م ، ص 20.

الرياضية التّي وضعها الإله فيها>>[1]، فكل الأجسام والأشياء والآلات وجل الكائنات مُسيرة وموجهة وفق القوانين الحتمية التّي يسير بها النظام الكوني توجيها آليا صارما. جسم الإنسان واحد من هذه الأجسام التّي نشأت عن طريق ما يُسميه ديكارت نظرية تصادم الأجسام*، وهو خاضع لتلك الميكانيكا الآلية ومكون من نفس المادة التّي تكونت منها جميع الموجودات وبالتالي فهو ذو خصائص وأبعاد فيزيائية (طول، عرض، عمق، ارتفاع...) وهو ذو حيز مكاني فتكون خاصيته الأساسية هي الامتداد.

الجسم جوهر متحيز يتخذ شكلا ووضعا ولذلك يُفهم الامتداد عند ديكارت على أنّه كل جوهر له طول وعرض وعمق، ويخضع لقوانين الحركة أو السكون وله صلابة ومنه فهو قابل للتقسيم والتجزيء ووجوده هو وجودٌ عرضي لا ضروري؛ ويمكن تفسير الكيفية التّي يؤدي بها الجسم البشري وظائفه على أساس السلوك الذّي تسلكه آلة ما، وهذا السلوك أيضا يتحدد أيضا بواسطة سلوك أجزاء تلك الآلة وكذلك محيطها الخارجي. وتكون الوظائف الجسيمية للإنسان محكومة بالفيزياء الآلية. يميز ديكارت ين العقل والجسم تمييزا واضحا ومصرحا به في جل مؤلفاته خاصة في كتابه تأملات ميتافيزيقية حيث يعتبر أنّ <<الوجود ينقسم إلى عنصرين أساسيين هما المادة والعقل أو شئت فقل هما الجسم والروح، أمّا الأول فصفته المميزة له هي الامتداد، وأمّا الثاني فصفته الجوهرية هي الفكر>>[2]، فلم يقتصر اختلافهما على الطبيعة المكونة لهما فقط بل يمتد إلى الصفات التّي تطبع كليهما؛ حيث ينفرد العقل بصفة جوهرية، وهي تجلٍ عن الوجود الإنساني الحق، وفي هذا يقول ديكارت: <<إنّ الفكر صفة تخصني، هي وحدها لصيقة بي، أنا موجود هذا أمر ثابت. لكن كم من

---

[1]– المرجع السابق، ص 252.

*– تقوم هذه النظرية على قاعدة مهمة وهي أنّ جميع الأجسام في الكون إنما تتكون من مجموعة من الأجزاء الدقيقة المادية يُطلق على هذه الأجزاء اسم الجسيمات تتحرك هذه الأجزاء نتيجة الاصطدام بجسم آخر فتكون غير فاعلة بذاتها إنما تتحد سرعة هذه الجسيمات واتجاهات حركتها بواسطة مجموعة من القوانين البسيطة، ونتيجة لهذه الحركة الموجهة بالقانون الفيزيائي تلتصق الجسيمات ببعضها فتشكل لنا بنيات وهياكل معقدة ومستقرة تكون هذه الهياكل والبنى هي الأجسام التّي نراها من حولنا.

[2]–إبراهيم مصطفى إبراهيم، قصة الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، د ط، 2001م، ص 106.

الوقت؟ ما دمت أفكر. إذا انقطعت ربما عن الوجود انقطاعا خالصا. أسلم الآن جبرا بشيء صحيح. أنا شيء يفكر...أي أنا روح، أو إدراك أو عقل...أنا، والحالة ذه شيء صحيح وموجود حقا. لكن أي شيء أنا هو؟ لقد قلته إنني شيء يفكر>>[1].

دليل الوجود عند ديكارت هو الفكر فمادام الإنسان يفكر فهو موجود؛ فالتفكير هو برهان الوجود الإنساني فلاوجود جسمي ولا حتى وجود مشترك بين الجسمي والفكري؛ وبرهن على ذلك بثلاث حجج رئيسية مُلَخَصها؛ <<إنّ الوجود الإنساني مرتبط ارتباطا وثيقا بوجوده الفكري فلا دليل على أحقية وجود الفرد سوى أنّ له عقلا يفكر به وهو برهان على وجوديته بغض النظر عن جسمه، فالنفس الإنسانية غير مرتبطة بوجود الجسم ذلك لأنّها جوهر متميز متفرد؛ وقامت الحجة الثانية على تأكيد اختلاف النفس والبدن اختلافا واضحا وصريحا، لأنّ الجسم بطبيعته مقسم إلى أعضاء لها وظائف بعكس النفس التّي تكون واحدة غير متجزأة لأنّ لها صفة واحدة تميزها وتفرقها عن الجسم وهي التفكير، أمّا البرهان الثالث فقام على فطرية المعارف العقلية. وتنقسم الأفكار في تصور ديكارت إلى ثلاثة أقسام وهي الأفكار الاتفاقية (العارضة)، الأفكار المصطنعة، والأفكار الفطرية>>[2]؛ هذه الأخيرة تتميز بأنّها واضحة وبديهية لا يتطرق إليها الشك ونصل إليها عن طريق الحدس؛ ومنه يكون التمييز بين النفس(العقل) والجسم أمر قطعي ولا جدال فيه، ولا مجال للمطابقة بين العقل كمَلَكة مفكرة والدماغ كعضو جسدي ذو حيز مكاني، في حين أنّ الأول جوهر مفكر وفي رأيه أنّ الإنسان <<ليس تلك المجموعة من الأعضاء التّي سميت بدنا، ولا هواءً رقيقا ولا لطيفا منتشرا في جميع تلك الأعضاء>>[3].

---

[1]– رونيه ديكارت، حديث الطريقة، مرجع سابق، ص 20.

[2]– رونيه ديكارت، مقال عن المنهج، تر: محمود محمد الخضيري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ط02، 1968م، ص ص129،128، بتصرف.

[3]–المرجع نفسه، ص 21.

إنّ العقل <<أحسن الأشياء توزعا بين الناس...يتساوى بينهم بالفطرة>>[1] وهو مشترك بينهم بالرغم من اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم، وهو ما يميزهم عن الحيوانات والكائنات الحية الأخرى. لكن إذا كنا جميعا نشترك في هذه الملكة الفكرية فلماذا أفكارنا ليست متشابهة ومتماثلة؟، ما التفسير الذّي يمكن أن نقدمه إزاء هذه الاختلافات في أفكارنا وأرائنا؟؛ أجاب ديكارت: <<إنّ اختلاف آرائنا لا ينشأ من أنّ البعض أعقل من البعض الآخر، وإنّما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا في طرق مختلفة، ولا ينظر كل منا في نفس ما ينظر فيه الآخر لأنّه لا يكفي أن يكون للمرء عقل، بل المهم هو أن يُحسِن استخدامه>>[2]؛ إذن فالسبب الرئيسي وراء تباين واختلاف أفكارنا يعود إلى طريقة استخدامنا لهذا العقل، ومن أجل الوصول إلى الحكمة والمعرفة الحقيقية يجب أن نحسن استخدامه.

إذا كان العقل منفلتا من دائرة التفسير الميكانيكي فهذا يعني أنّ كل ما يصدر عنه من أفكار وأفعال تكون هي الأخرى منفلتة من هذه الميكانيكا الحتمية، ولكن إذا كانت لا تقع ضمن إطار التفسير الآلي الميكانيكي كيف لنا أن نفسرها وخاصة إذا كانت تعبر في مظهرها عن اتصال بين العقل والجسم؟، كيف يمكن أن يتفاعل هذان الجوهران بالرغم من طبيعتهما المتباينة، وكيف يمكن أن تؤدي القرارات التّي يقوم بها العقل إلى حثِّ الجسد لِتَّصرف بطريقة ما؟؛ في نظر ديكارت وطلابه* يُعد <<العقل آلة عامة يمكن استخدامها في

---

[1] – رونيه ديكارت، مقال عن المنهج، مرجع سابق، ص 109

[2] – المرجع نفسه، ص 110.

* – يعد جيرو دي كوردوموى (1684/1626) أحد أشهر طلاب ديكارت وأكثرهم تأثرا بفلسفته العقلية ورؤيته للغة البشرية؛ قدم ملاحظات هامة ومُطورة نوعا ما عن أستاذه حول اللغة واستخداماتها الإبداعية، فركز أولا حول افتقار الحيوانات للغة الإنسانية واختلاف أنظمتها التواصلية عن لغة الإنسان، واهتم ثانيا باللغة وعلاقتها بمشكلة التفسير الميكانيكي وانفلاتها منه؛ وتميزها بالإبداعية الخلاقة. حسب رأيه يملك الإنسان تعقيدا وتنوعا كبيرا في سلوكه وأفعاله، وهذا التعقيد والتنوع يجعل من التفسيرات الميكانيكية قاصرة أمامها؛ فالبشر ليسوا آلات ولا حيوانات تُفسر سلوكياتها على أساس أنّها ردود أفعال وانفعالات أو تفاعل للأسباب والمسببات، فأفعال البشر وأعمالهم قائمة على أنّهم أناس ذو عقول مفكرة تتميز بالوعي والإرادة الحرة. انظر، ناصر فرحان الحريص، المظهر الإبداعي للغة "مقاربة أدنوية إدراكية"، ضمن: مجلة اللسانيات العربية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربي، المملكة العربية السعودية، العدد 06، يناير 2018، ص 32.

كل أنواع الطوارئ>>[1] بواسطته تُعرف جميع الأسباب وتُفهم به الظواهر والأفعال، وفي هذا الإطار بحث عن مبادئ أخرى تُفسِر التأثير المتبادل بين العقل والجسم، وافترض أن تكون هذه المبادئ منفصلة عن الجسم؛ أطلق عليها تسمية الجواهر الثانية للتدليل على معظم المبادئ التّي تحكم أفعالنا المتحررة من الميكانيكا الآلية؛ ولعل من أهم هذه الجواهر المبدأ الخلاق في استعمال اللغة ومبدأ الاختيار الحر والواعي المتحكم في الأفعال الإنسانية.

2/- اللغة والمبدأ الخلاق عند ديكارت:

في نظر ديكارت يعتبر العقل هو <<الشيء الوحيد الذّي يجعلنا أناسا ويميزنا عن سائر الحيوان>>[2]، وإنْ كانت الحيوانات تتشابه مع الإنسان في تركيبتها الجسمية المادية وجميع الوظائف التّي تؤديها أعضاء جسم الإنسان شبيهة بالوظائف التّي تقوم بها أعضاء الحيوانات الأخرى وربما الآلات أيضا، فهذا لا يعني أنّها متماثلة مع الإنسان وهذا بسبب امتلاكه نفسا ناطقة عاقلة. فمن وجهة نظر ديكارت أنّ "النطق هو الوظيفة والخاصية التّي ينفرد بها البشر عن الحيوانات التّي تعد عديمة النطق، ولكون النطق صفة ملازمة للفكر فذاك دليل واضح على تميز وتفرد الإنسان"[3]؛ وبها يعلو سقف التباين والتمايز بينه وبين الحيوانات الأخرى والآلات، التّي لا يمكنها بلوغ مرتبته إلاّ إذا توفرت فيها هاتان الميزتان؛ وما من آلة مهما بلغت درجة ذكاء برنامجها الذّي أُعدت به تستطيع أن تُقلد الإنسان بصفة كاملة، فإن فعلت ذلك لا يمكن إلاّ أن تكون مثله ، ولعل هذا ليس ممكنا بسبب أنّ الوظيفة المثلى التّي يؤديها الكلام هي التعبير عن الأفكار الموجودة في العقل.

اللغة مرآة العقل إنّها انعكاس لما يدور في ذهن الإنسان وعلى هذا الأساس تمثل خاصية مُثلى ترتبط بالفكر الإنساني، ومهما بلغت درجة ذكاء الآلات في تقليد الأصوات والإشارات أو حتى منافسة البشر في بعض الأمور إلاّ أنّها لا يمكن أن تتمكن من إنتاج لغة

---

[1]- رونيه ديكارت، مقال عن المنهج، مرجع سابق، ص185.

[2]- المرجع نفسه، ص110.

[3]- المرجع نفسه، ص ص173، 174.

كلغتنا بحيث تستطيع استخدام تلك الكلمات التّي بُرمجت عليها في جمل وتعابير متنوعة، لأنّ <<هذه الآلات لن تقدر على أن تستعمل الكلمات أو أي إشارات أخرى تؤلفها كما نفعل نحن لنصرح للآخرين بأفكارنا...، ولا يُستطاع أن يتصور أنّ تُنوِع تأليف الألفاظ لتجيب أجوبة مطابقة لكل ما يقال في حضرتها كما يستطيع أن يفعل أغبى الناس>>[1] فارتباط الكلام بالفكر هو ما يجعل من الآلات عاجزة عن مسايرة الإنسان، وبواسطته يستطيع المرء أن يصرح عن أفكاره ويكشف عما بداخله ويعبر عنه بوضوح؛ وكذلك يَفهم ويَعي ما يُقال في حضرته؛ على الرغم من التنوع في الألفاظ وإنشاء التعبيرات.

لا مجال للمقارنة بين الكلام البشري ونظام تواصل الحيوانات في نظر ديكارت، لأنّ الفرق بينهما شاسع جدا خاصة من حيث التأليف والتركيب اللفظي والتنوع في الاستخدام والغاية منه؛ و<<مما يستحق الذكر أنّه ليس من الناس الأغبياء والبلداء، حتى دون استثناء البلهاء منهم؛ من لا يقدرون على تأليف كلمات مختلفة، وأن يُركبوا منها كلاما به يجعلون أفكارهم مفهومة وبالعكس فليس من حيوان آخر مهما كان كاملا... يستطيع أن يفعل ذلك>>[2]؛ فأنظمة التواصل الحيوانية لا يمكن أبدا أن ترقى إلى مستوى الكلام البشري وحتى إن بلغت الحيوانات درجة عالية من الذكاء ونمو القدرة العقلية، فهي لا يمكن أن تتكلم مثل البشر وأن تقيم محادثات كتلك التّي يقوم بها الأفراد؛ فهي وإنْ كانت تتواصل فيما بينها؛ فتواصلها هذا لا يزيد عن إشارات وإيماءات ليست سوى سلوكيات غريزية جُبلت عليها.

الإشارات التّي تُطلقها الحيوانات للتواصل فيما بينها تحدِدُها مجموعة من المحفزات الخارجية والداخلية كالإحساس بالخطر وتحركها غايات معينة كالأكل والتزاوج، فلا يوجد حيوان قد ابتكر طريقة جديدة في التواصل والتعبير عن غرائزه مخالفة لما هو مألوف في بني جنسه؛ وليس باستطاعة أي حيوان أن يُنشأ جملة مثل تلك التّي يُنشئها الإنسان والتّي تكون ناتجة عن وعيه التام بما قال وبما سيُقال له في أي موقف؛ في حين أنّ الحيوانات لا

---

[1] – المرجع السابق، ص ص 184، 185.

[2] – المرجع نفسه، ص 185.

تقدر على ذلك؛ وحتى وإن تمكنت من تقليد بعض الأصوات والكلمات، فهذا لا يعني أنّها تعي وتفهم معنى تلك الكلمات إنّها لا تمتلك عقولا مثل البشر ولا تستطيع أن تؤلف تعبيرات لغوية متنوعة مثلهم، <<فالمرء يرى العقعق والببغاء تستطيع أن تنطق ببعض الكلمات مثلنا، أي نطقا يشهد بأنّها تعي ما تقول...، وهذا لا يشهد بأنّ للحيوانات من العقل أقل مما للإنسان، بل يشهد بأنّه ليس للحيوانات عقل مطلقا>>[1].

ارتباط اللغة بالعقل يجعل منها خاصية نوعية يمتاز بها النوع الإنساني دون غيره من الحيوانات والآلات، وبهذا التصور يرى ديكارت أنّ الإنسان ينفلت من الفيزياء الآلية بفضل استعماله للغة، ففي رأيه يعد هذا الاستعمال أحد السِمات الرئيسية التّي تنم عن انفلات الفعل الإنساني من القوانين الميكانيكية وتحرره منها خاصة أنّه محكوم بالإنتاج والإبداع. ولعل الدليل الأكبر الذّي يؤكد لنا أنّ الحيوانات تفتقر إلى الفكر هو هذا الاستعمال الإبداعي للكلام، فحتى وإن كشفت لنا بعض الدراسات أنّ بعض الحيوانات يمكنها التعلم بسهولة وسرعة فائقة عن طريق التدريب الذّي يقدمه لها الإنسان وقد نجد منها من يتفوق على بني جنسه في ذلك كخيول السباق وكلاب الصيد وطيور الببغاء؛ إلاّ أنّها لا تستطيع مهما بلغت من الكمال أن تستعمل الكلمات بطريقة فكرية منظمة ومتنوعة مثلما يفعل الناس العاديون؛ هذا ما يعطي الأهمية الكبرى للغة البشر في تصور ديكارت. سِّرُ التفوق بين البشر عن الحيوانات هو اللغة؛ وجوهر هذا التفوق هو الاستعمال اليومي الذّي يعبر عن قدرة الإنسان على تكوين ملفوظات جديدة، لتعبر عن أفكار جديدة مناسبة للمواقف والأوضاع التّي تُقال فيها دوما.

يُفهم مبدأ الإبداع في الاستعمال اللغوي اليومي عند ديكارت بأنّه قدرة المتكلم في إنتاج عدد لا محدود من الجمل وبشكل سليم وبوعي وفهم كامل منه بما يتكلم به؛ وتكون جُمله هذه ملائمة للمناسبة التّي قيلت فيها دون أن تكون سببا رئيسيا فيها. فالكلام لا يرتبط بمحفز خارجي أو داخلي لأنَّ الإنسان ذو العقل المفكر متحرر من كل المثيرات وليس مجبرا

[1] – المرجع السابق، ص 185.

على قول شيء دون غيره، وتكون قدرته الإنتاجية تُعادل فهمه لما سيقال له أيضا. وتقوده إلى الابتكار والتنوع؛ فهو ليس إعادة للكلمات والعبارات بنفس الشكل وفي نفس المواقف بل يقوم على أساس الخلق والابتكار للجمل متنوعة للتعبير عن الأفكار جديدة؛ ومنه فكل جملة يتلفظ بها أيُ متكلم هي في أغلب الأوقات جديدة ومبتكرة تعبر عن فكرة في ذهن صاحبها ومن خلالها يتمكن من التصريح عمَا بداخله للآخر المُستَمِع الذّي ينخرط معه في الكلام ويفهم منه ما يريد التصريح به*. ومهما تعددت السياقات الخطابية والأزمنة والأمكنة تبقى الابتكارية والإنتاجية دائما سِّمةً ملازمة للغة البشرية.

يُمثل المبدأ الإبداعي الخلاَّق للاستعمال العادي للغة الإنسانية عند ديكارت إحدى المَلَكات العقلية وميزة نوعية إنسانية يختص بها الإنسان، يتجلى دورها الرئيسي في التعبير عن الفكر والاختيار الحر في ممارسة الفعل اللغوي؛ وبناءً على هذا يعد مبدأ الإبداع جوهرًا ثانيا يُفسر تلك الأفعال التّي استحال تفسيرها آليا؛ وبواسطة هذا المبدأ يمكن القيام بعملية ربط الذهن/ العقل بالجسم الذّي يخضع للآلية الحتمية، وبالتالي هنالك مبدأين تُفسر بهما الأفعال الإنسانية مبدأ إبداعي وآخر ميكانيكي؛ الأول مرتبط بالعقل الذّي ماهيته الفكر وهو دليل على الإرادة الحرة للإنسان، وأمّا الثاني فهو يفسر الطريقة التّي يسير بها الجسم الإنساني، تتجلى خصائص الإبداعية اللغوية عند ديكارت في:

-أنّه سمة فريدة وقدرة من قدرات العقل (النفس) الذّي يعد هبة إلاهية وملكة فطرية إنسانية خالصة.

- دليل على الوعي والفهم الذّي يتميز به العقل البشري.

---

*- طور كوردوموى الملاحظات الديكارتية بخصوص المبدأ الخلاق في اللغة ورأى بأنّ هذا المبدأ لا ينحصر فقط في إنتاج الكلمات وتجديدها وفهمها؛ إنّما يكمن أيضا في خلق أفكار جديدة وتبادلها مع الآخرين الذّين يشتركون مع المتكلم في الكلام، وكل هذا دليل على امتلاكهم عقولا متماثلة، قال: "إنّ الأفكار التّي تأتي من خلال حديثنا مع رجال آخرين إشارة مؤكدة لنا جميعا أنهم يملكون ذهنا مماثلا للذّي نملك،...والسبب الكامل الذّي يجعلنا نعتقد أنّ هناك أذهانا متحدة بأجسام الناس الذين يتحدثون معنا يتمثل في أنهم غالبا ما يقدمون لنا الأفكار الجديدة التّي لم تكن بحوزتنا، أو أنهم يجبروننا على تغيير الأفكار التّي لدينا". انظر، نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص 120

– يمتاز بالتنوع وهو ما يجعل من اللغة الإنسانية مختلفة عن باقي أنظمة الإشارات الحيوانية.

– لا يمثل مظهرا من مظاهر الذكاء العام، فلا يقوم البشر بالتدريب عليه ولا يُلقن من المدرسين أو من أخصائيين.

– نقصد بالإبداع في الاستعمال اللغوي في الكلام العادي أي في اللغة اليومية والحالات العادية للأفراد ولا نعني به الإبداع هنا ذلك الإبداع الذّي يكون في الفن أو في الحالات الخاصة وغيرها.

– ليس مرتبطا بالأعضاء الحسية الجسدية (أعضاء النطق)، لأنّ هذه الأعضاء تشترك فيها الكثير من الكائنات الحية (الحيوانات) غير أنّها لا تعطي أي نوع من الإشارات التّي تتشابه مع لغة البشر.

– معبر عن الإرادة الإنسانية الحرة لأنّه معبر عن الفكر الحر؛ وهذه الغاية الأساسية من وجوده هو التصريح والتعبير عن أفكارنا الحرة.

– متحرر من المثيرات الخارجية والحالات الداخلية ومنفصل عنها فالإنسان المتكلم السوي لا يتم تدريبه على الكلام وعلى الإبداع في استخدام هذا الكلام لأنّه حر، على عكس الحيوانات التّي تكون نظم تواصلها آلية.

– استحالة تفسيره آليا، لأنّه لا يخضع لميكانيكا الاتصال الحتمية التّي طرحها ديكارت والتّي تطبق على حركة جميع الأجرام والكواكب والأجسام المادية غير العاقلة.

– مشترك بين جميع البشر على الرغم من اختلاف لغاتهم باستثناء المرضى والمعاقين؛ وهو ليس خاصا بلغة معينة عن غيرها أو بفئة معينة إنّما هو مشترك بين جميع الأشخاص العاديين على اختلاف مستوياتهم وثقافاتهم.

ثانيا: القراءة التشومسكية للمنظور الديكارتي

1/- سقوط المفهوم الديكارتي للجسم وظهور المفهوم النيوتني:

اعتبر تشومسكي أنّ النتائج التّي توصل إليها ديكارت من خلال محاولته لفهم القدرات البشرية وتحرر أفعال الإنسان من الآلية الميكانيكية خصوصا تلك المتعلقة باللغة البشرية والمظهر الإبداعي للاستخدام اللغوي؛ هي نتائج مبهرة وهامة وقد تم غض الطرف عنها من طرف اللغويين وعلماء اللسانيات. إلاّ أنّ التصور الذّي قدمه بخصوص الجسم وانفصاله عن العقل ومسألة الجواهر الثانية لم يلقى نفس القبول عند تشومسكي لأسباب كثيرة، أولها ظهور الفيزياء النيوتنية* وتحطم مفهوم الجسد وآليات التماس الديكارتية[1].

تقوم الفيزياء النيوتنية على دحض التفسيرات الديكارتية خاصة تلك المتعلقة بنظرية تصادم الأجسام وتفاعلها؛ فكما ذكرنا سابقا فإنّ ديكارت في نظريته حول العالم أقر بأنّ حركة الجسم تقع في إطار آليات التماس المبنية على الحركة التفاعلية التّي تحدث بين الأجسام من خلال عملية التصادم، إلاّ أنّه وبعد اكتشاف نيوتن لقانون الجاذبية برهن على أنّ آليات التصادم الميكانيكية التّي طرحها ديكارت لا يمكن أن تفسِّر حركة الأجرام السماوية وغيرها من الأجسام المادية، فأصبح التفاعل بين الأجسام لا يحدث نتيجة ووفق تصادم الجسيمات المكونة لها إنّما تستطيع الأجسام التأثير والتفاعل معا من دون عملية التماس وهذا من خلال الجاذبية فقط؛ <<لذلك يجب التخلي عن التصور الديكارتي للجسد؛ أمّا ما يفسر عملية التفاعل والتواصل بين الأجسام؛ فقد أقر نيوتن بأنّ هنالك وجود 'قوة' يمارسها جسد على آخر من غير تماسٍّ بينهما، أي أنّ هذا العمل 'فعلٌ عن بعد'>>[2]؛ وانتشرت هذه النظرية بعد نيوتن وقد تم إلحاق الكثير من التطورات عليها إلاّ أنّ نيوتن كان أول من أشار

---

*- الفيزياء النيوتنية نسبة إلى الفيلسوف والفيزيائي البريطاني إسحاق نيوتن الذّي اكتشف قانون الجاذيبية.

[1]- تشومسكي، آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، تر: عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط01، 2009م، ص ص 239،240. انظر، نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص83، 84.

[2]- نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص 198.

إلى أنّ بُطلان التصور الديكارتي للجسد، وأقر بأنّه <<لم يعد بمقدورنا أنْ نتساءل عما إذا كانت بعض الظواهر تقع خارج نطاق الجسم، فَجُّل ما نستطيع فعله هو السؤال عما إذا كانت مفاهيمنا الحالية عن الجسم على قدر من الكفاية يؤهلها لتقديم تفسير مقبول لبعض الظواهر. فإذا لم تكن كذلك يكون لزاما علينا أن نقوم بتعديل وتوسيع مجال فيزيائنا الأساسية. تماما مثلما قمت أنا بتوسيع الميكانيكا الديكارتية حتى تتمكن من تقديم تفسير مقبول لحركة الأجرام السماوية>>[1] لأنّ حركة هذه الأخيرة لا تفسر بالميكانيكا الحتمية إنّما بقوة الجاذبية.

من خلال الافتراضات الديكارتية والمعارضة النيوتنية لها تساءل تشومسكي : <<ما المشكل الذّي انتهى إليه التصور عن الجسم أخيرا؟>>[2]؛ فإذا كان ديكارت تصور بأنّ الجسم منفصل عن العقل وأنّ حركته خاضعة للميكانيكا الآلية، فإنّ نيوتن عارض هذه التفسيرات الديكارتية الآلية، ورأى باستحالة تطبيقها على كل الأجسام المادية كالأجرام السماوية مثلا لأنّ هناك قوة تتحكم بها وهي قوة الجاذبية لذلك فالمفهوم الديكارتي عن الجسم لا يمكن الأخذ به أو على الأقل لا يمكن تعميمه؛ ولذلك استنتج تشومسكي بأنّه <<لا يوجد تصور واضح محدد للجسم>>[3] ولا نظرية علمية حالية تكشف لنا عن مفهوم تام عنه، ولذلك فإنّ التصور الثنائي الديكارتي (العقل/الجسم) لا يمكن الإبقاء عليه ولا حتى الأخذ به، لأننا لا نملك ما الذّي يعنيه الجسم بالتحديد، ومنه فإنّ <<معضلة العقل والجسد لا يمكن حتى صياغتها، ولا يعود ذلك إلى أننا نتوفر على فهم محدود جدّا بالذهن، بل بسبب أننا لا نتوفر على خصائص ما يشكل الجسد نفسه>>[4].

---

[1] – جون ماهر وجودي جروفز، أقدم لك تشومسكي "اللغة والسياسة"، مرجع سابق، ص50.

[2] – نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص198.

[3] – المصدر نفسه، ص 198.

[4] – نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي "الأفكار والمثل"، مرجع سابق، ص 461.

2/- العقل الديكارتي من منظور تشومسكي:

بعد استبعاده للتصور الديكارتي عن الجسد، حاول تشومسكي قراءة مفهوم العقل الذّي يُعد مفهوما ركائزيا في فلسفة ديكارت. حسب تشومسكي <<سلم ديكارت بدون برهان أنّ الإنسان يعرف أنّه يملك ذهنا (أنّه عقلاني، كائن مفكر؛ بمصطلحه)>>[1]؛ أي أنّ العقل ملكة فطرية إنسانية لا تحتاج إلى برهان وتدليل، فكل البشر يعرفون أنّهم يملكون عقولا هي مصدر أفكارهم ومعارفهم وهي دليل اختلافهم وتفوقهم، ولعل هذا أهم ما يميز التصور الديكارتي للعقل وهو أنّه يعتبر العقل أمرا مسلما به لا يحتاج برهنة وبحثا دقيقا ومطولا، ولعل الدافع وراء هذا التسليم وعدم محاولته دراسته علميا هو خوفه من أن يلاقي نفس المصير الذّي لقيه غاليلي أمام المحكمة الكَنَسِّية؛ <<فربما لم يرد ديكارت أن يبدو كأنّه يقدم وصفا طبيعيًّا للذهن، أو ما كانت تظن السلطات الكنسية أنّه الروح>>[2].

يرى تشومسكي أنّه مادام ديكارت لم يُقدم لنا تفسيرا علميا للعقل فإنّ مسألة فطرية الأفكار واللغة أيضا بقيت ضمن التفسير الميتافزيقي الدِّيني الذّي قدمه؛ لكن هذا الأمر كان غير ضروري لأنّ التفسير الديني حال دون دراسة علمية جادة للعقل. فالرؤية الطبيعية العلمية للعقل/ الذهن ربما كانت ستفتح لنا آفاقا أكبر لفهم طبيعة هذه المَلَكة؛ وبالتالي فقد عارض ديكارت التصور الذّي جعل من العقل هو نفسه الدماغ معارضة تامة، وبُنيت معارضته على أنه من الاستحالة أن يكون لهذه الملكة "العقل" حيز مكاني. يخالف تشومسكي هذا الأمر عن طريق المقاربة اللسانية الأحيائية؛ ويعتبر أنّ العقل هو نفسه الدماغ أو المخ، وهذا الربط في رأيه سيفتح لنا المجال أكثر لفهم هذا الدماغ وللأنظمة المختلفة التّي يتكون منها والعمليات التّي يقوم بها والأفكار التّي يزودنا بها.

---

[1] - نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص73.

[2] - المصدر نفسه، ص 73.

إنّ <<الحديث عن العقل هو حديث عن المخ في مستوً معين تماما مثلما أنّ الحديث عن مدارات الكواكب هو حديث عن كيانات مادية على مستوً معين>>[1] فالمقاربة اللسانية البيولوجية الطبيعية للعقل/ الدماغ تُمكننا من فهم الكائن البشري بصورة أوسع؛ وهذه الدراسة العلمية تكون على مستوى عالٍ من التجريد بحيث يمكن فهم هذا النظام المعرفي المعقد (العقل) بصورة أفضل، ويعني بالتجريد هنا كما في الفيزياء والكيمياء والعلوم الدقيقة جدًا إذ نجد أنّ محاولة فهم النظام الكوني في الفيزياء وعملياته لا تكون بالتجريب كما في العلوم الطبيعية إنّما تكون على مستوى عالٍ من التجريد والحال كذلك في الكثير من العلوم كدراسة التفاعلات الكيميائية وغيرها.

إن عدم منطقية الثنائية الديكارتية في منظور نعوم تشومسكي، تُثبت عدم جدوى الخوض في مسألة الجواهر الثاني أو العقول الأخرى، إذ <<ليس من الواضح كيف يمكننا أن نتساءل مجرد تساؤل عما إذا كانت بعض الظواهر تقع في خارج مجال دراسة الجسد وهو ما يعني وقوعها في الدراسة المنفصلة للعقل>>[2]، فإذا نظرنا إلى التفسير الذّي قدمه ديكارت ومسألة الجوهر الثاني فإننا لا مجال لقبول هذه الميتافيزيقا أيضا، إلاّ أنّ المنطق الذّي قدمه وهو إمكانية البحث عن مبادئ تفسر لنا بعض الظواهر التّي لا نجد لها تفسيرات بنموذج البحث المتوفر أو الوسائل الموجودة هو <<منطق صحيح في أساسياته وهو يشبه منطق نيوتن عندما حين برهن على عدم كفاءة آليات التماس الديكارتية في تفسير حركة الأجرام السماوية؛ وذلك ما جعله يبحث عن مبدأ جديد كي يفسر هذه الظواهر، فكان أنِ افترض وجود مبدأ الجاذيبية>>[3].

إن هذا المنطق صحيح ومثبت علميا وهو الذّي يجعلنا نبحث عن تفسيرات علمية دقيقة لبعض الظواهر والحقائق الإنسانية مثل <<تصرفاتنا الحرة وغير المحدودة، وهو ما

---

[1] – جون ماهر وجودي حروفز، أقدم لك تشومسكي "اللغة والسياسة"، مرجع سابق، ص 48.

[2] – نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص201.

[3] – المصدر نفسه، ص202.

يعني أنّ بإمكاننا ألا نعمل ما نُحثُ ونُوجه إلى عمله، وأنّه لو عملنا ما نُحث ونُوجه إلى عمله فإنّ شيئا من حرية الاختيار مزال يدخل في ذلك>>[1]؛ وهذا واضح جدًا فالإنسان أثناء أدائه لأعماله يكون حرا غير مقيد بمعنى أنّ يقوم بهذه الأفعال من دون أسباب حتمية تدفعه لذلك ومن دون قوة تجبره على فعل ذلك، لأنّه يتمتع بحرية إرادة كاملة تجعل من أفعاله وسلوكياته خارجة تماما عن إطار التفسير الآلي الذّي يتحكم بالكائنات الأخرى في هذا الكون وينطبق الرأي نفسه على كلامه وأفكاره، وهذا بعيد تمام البعد عن ما تقوم به الكائنات الحية الأخرى (الحيوانات) وحتى الآلات التّي يبتكرها البشر كالحواسيب والروبوتات، ولقد <<ناظر الديكارتيون بأنّ النظرة الميكانيكية للعالم تتسع لكل العالم العضوي وغير العضوي باستثناء الإنسان، بل هي تشمل أيضا جانبا كبيرا من الفيزيولوجيا الإنسانية. بيد أنّ الكائنات الإنسانية تتجاوز حدود أية آلة ممكنة، ومن هنا اختلافها الأساسي عن الحيوانات التّي هي مجرد آلات أوتوماتيكية لا تختلف عن الساعات إلاّ بتعقيدها>>[2].

مهما بلغت درجة التعقيد <<أي ابتكار ميكانيكي، فإنّ جوانب حاسمة مما يفكر ويفعل الإنسان تتجاوز مداه وهذا يصح في الأفعال الإرادية خاصة>>[3]؛ فالبشر لا يملكون مدى محددًا لقدراتهم الحرة؛ وهذا عكس الحيوانات تماما التّي وحتى إن تم تدريبها بشكل منظم ومكثف للحصول على الطعام مثلا بواسطة وضع مجموعة من الشروط والآليات فإنّها ستثبت تفوقا هائلا في التعلم وبسرعة بالغة أيضا وسلوكها هذا محكوم بطريقة غريزية آلية؛ لأنّ الطبيعة جَبلتها على هذه السلوكيات وستبدي الحيوانات ذكاءً متفوقا في الغرائز، في حين لو دربت هذه الحيوانات على بعض الأفعال التّي يفعلها البشر كالكلام مثلا فإنّ ذلك سيكون صعبا جدا لأنّ الإنسان سيتفوق عليها بشكل أفضل؛ والعكس فقد نجد أنّ الحيوانات تتفوق بشكل واسع على الإنسان في قدرات كثيرة ومتعددة. هذه مسألة منطقية على حسب رأي تشومسكي <<فإذا كان للكائن حي قدرات يستطيع بها إنجاز بعض المهمات بصورة

---

[1] – المصدر السابق، ص202.

[2] – نعوم تشومسكي، قوى وآفاق "تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي"، مصدر سابق، ص197.

[3] – المصدر نفسه، ص 197.

جيدة فستقوده هذه القدرات نفسها إلى فشله في مهمات أخرى...لزوم وجود هذا الفارق أمر من أمور المنطق؛ أما طبيعته فأمر من أمور الواقع؛ فوجوده لا يمكن أن يُشك فيه>>[1].

برهن تشومسكي على أنّ الإنسان يملك من الذكاء والقدرات ما يجعله متفوقا على الكائنات الأخرى وهذا بفضل امتلاكه للعقل؛ غير أنّه أقر أيضا بأنّ الإنسان يمكنه أن يفشل في تأدية الكثير من السلوكيات التّي تقوم بها الحيوانات، وهذا لا يعني بأنّها أذكى منه أو هناك من الكائنات من هو متفوق من الأخر، إنّما يكمن السر في هذا التفوق في طبيعة المشكلة ونوعها والكيفية التّي تُحل بها؛ <<فبعض أنواع الدبابير أو الحمام مهيأ مثلا لكي يستطيع تعرف طريقه إلى مسكنه، أما الإنسان فليس مهيأ بالطريقة نفسها...ولا يدل هذا الاختلاف على أن الدبابير أو الحمام أذكى من الإنسان، فلا يعدو الأمر أنّ الدبابير مختلفة في القدرات المحددة أحيائيا>>[2]؛ فالإعداد الأحيائي للإنسان مصمم بطريقة مختلفة عن الإعداد الأحيائي للحيوانات وحتى الحيوانات فيما بينها تختلف إعداداتها الأحيائية كثيرا، هذه التصميمات الوراثية خاصة بكل نوع من الأنواع الحية وهي المحددة لسلوكياتهم وهي التّي تحكم الكيفية التّي تُحل بها المشكلات.

إذا كان الإعداد الأحيائي للإنسان مهيأ بطريقة ما لحل بعض المشكلات التّي تدخل ضمن تصميمه الوراثي، فإنّه بواسطة هذا الإعداد أيضا غير مهيأ لحل مسائل أخرى ومنه نفهم أنّ بعض الحوادث والأمور تقع خارج نطاقه إلاّ أنّ التعريف الذّي قدمه ديكارت حول العقل <<بكونه أداة كلية يمكن استعمالها في جميع أنواع الأوضاع؛ ولذلك فهي توفر تنوعا لا محدودا من الفكر الحُر والأعمال الحرة>>[3] توحي لنا بأنّ هذه الملكة (العقل) يمكنها حل جميع المشاكل وفهم كل الحوادث والظواهر وبالإمكان تقديم تفسيرات عقلية لها؛ لأنه مُعد بالكيفية التّي تسمح له بفهم جميع الظواهر، وحلِ جُل المسائل. إنّه ملكة تتسم بالكلية

[1] – نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص 204.

[2] – المصدر نفسه، ص 205.

[3] – نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص 128.

والشمولية ومنه يُوفر لنا التنوع اللامحدود من الأفكار الحرة والأفعال الإرادية؛ ونعني بالتنوع اللامحدود في الأفكار بأنه لا مجال لحصر الفكر البشري في حدود معينة لأنّه مطلق. لكن إذا كان الأمر فعلا هكذا: فلماذا لم يستطع ديكارت إيجاد تفسير ووصف واضح لتصرفات الإنسان الحرة وأفعاله الإرادية الخارجة عن حدود التفسير الآلي وخاصة مشكلة الإبداع الحر واللامحدود للاستخدام اللغوي والعمل الإنساني عموما؟.

<<يعتقد ديكارت أنّ هذه الأمور تتجاوز قدرة الفهم الإنساني فقد لا يكون لنا من الذكاء ما يكفي لتحقيق أي فهم حقيقي لها؛ وذلك رغم أننا واعون بالحرية وعدم التحيز المبنيين داخلنا>>[1]؛ يحيلنا هذا الإشكال حسب تشومسكي إلى نتيجة أخرى غير التّي قدمها ديكارت وهي أنّ <<...العقل الإنساني ...هو نظام بيولوجي محدد، لا آلة عالمية يمكن أن تستخدم في جميع الطوارئ>>[2]؛ فالإنسان الذّي لا مجال لفصل العقل/ الدماغ عن الجسم في تكوينه ،هو جزء لا يتجزأ من العالم الطبيعي الذّي يتشارك فيه مع الكائنات الحية الأخرى، ومزود بإعداد أحيائي محدد يمكنه من حل وتفسير بعض المشكلات فيما يقف عاجزا أمام أخرى التّي ربما تتطلب سعيا أكثر منه، أو لا تكون ضمن حيز إدراكه مطلقا وهذا بسبب تصميمه الوراثي الخاص وهذا يجعلنا نفهم أنّ العقل الإنساني لا يمكن أن يكون أداة كلية تعمل في جميع الحالات.

يعتبِر تشومسكي أنّ <<عدم كون العقل الإنساني آلة كلية أمر مفرح، فلو كان كذلك لأمكن أن يعمل بشكل سيء أيضا في جميع الاحتمالات>>[3]، إلاّ أنّ ذلك لا يعني الحَط من قيمة العقل أبدا بل بالعكس تماما يأخذ العقل/الدماغ قيمة كبيرة في فلسفته ومرتكزا معرفيا في نظريته اللغوية؛ خاصة من الجانب الذّي ينظر إليه على أنّه ميزة فريدة تجعل الإنسان يختلف عن الكائنات الأخرى ويتفوق عليها وسر هذا التفوق ليس العقل/ الدماغ بكونه عضوا

[1] – نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية "طبيعتها، أصولها واستخدامها"، مصدر سابق، ص393.

[2] – المصدر نفسه، ص393.

[3] – نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص205.

بيولوجيا فقط، إنّما في كونه نظاما معرفيا متنوعا في خصائصه وأنظمته الكثيرة ما يستوجب علينا فهمه والبحث فيه، ولأنّه مصدر التفكير والمعرفة على حد تعبير ديكارت، ركز تشومسكي على دراسة العقل/ الدماغ الإنساني بوصفه: <<نظام معقد يدخل في تركيبه أجزاء متفاعلة متعددة، أحدها الجزء الذّي يمكن أن نسميه بالملكة اللغوية. ويبدو أنّ هذا النظام الفريد في خصائصه الأساسية مقصور على النوع الإنساني وعام في أعضائه>>[1]؛ نفهم من هذا أنّ أحد الجوانب التّي جعلت النوع الإنساني يماز عن الأنواع الحيوانية الأخرى هو العقل؛ ويمكن قراءة تفرد الإنسان عن تلك الأنواع بالعقل عند تشومسكي فيما يلي:

-إنّ الدماغ/العقل الإنساني لا يوجد له نظير آخر مطلقا عند الأنواع الحيوانية الموجودة في هذا العالم؛ وهذا لأنّه يتميز بخاصية أساسية بدونها لا يمكن أن يكون عقلا بالمفهوم الكامل وهي التفكير؛ فكما عند ديكارت إنّ الفكر جوهر العقل وماهيته، كذلك عند نعوم تشومسكي الفكر هو جوهر الدماغ/العقل وخاصيته الرئيسية.

-إنّ الذهن/ الدماغ واحد عند جميع البشر ولا يوجد أنواع من الأدمغة المتنوعة وهو المركب المشترك بين جميع الناس، ولا يمكن أن نقارن بينه وبين أدمغة الحيوانات الأخرى لأنّ هذه الأخيرة تفتقر إلى التفكير، لأنّ كل سلوكياتها عبارة عن أفعال غريزية جبلت عليها، و<< تتحدد أعمالها بواسطة المثيرات الخارجية والحالة الداخلية، ويمكن فهمها بواسطة ميكانيكا اتصال حتمية>>[2]، في حين أنّ أفعال الإنسان ناتجة عن التفكير والإرادة الحرة وتكون منفلتة من المحفزات الداخلية أو الخارجية لأنّها أفعال حرة ناتجة عن التفكير الحر والتعبير الإرادي وإن وُجدت هذه المحفزات فهي لا تجبره إنّما تحثه فقط، والفرق بين أن تكون مجبرا وأن تكون محثوثا فرق جوهري؛ فالحيوان هو بمثابة آلة تتحكم فيها الطبيعة في حين أنّ البشر توجههم فقط إلاّ أنّهم غير ملزمين بفعل محدد تحت ظروف محددة.

---

[1] – المصدر السابق، ص62.

[2] – نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص74.

–وثالث الميزات التّي ترفع من فرادة الإنسان هو كون العقل/الدماغ بمثابة نظام معرفي تتداخل فيه الأجزاء المكونة له من بين هذه الأجزاء الجزء المرتبط باللغة، إذ تعد اللغة الإنسانية أحد الفوارق الجوهرية بين الإنسان والكائنات الحية الأخرى لأنّ لغة الإنسان لا تُشبه بالمرة أنظمة التواصل الحيوانية لأنّها مرتبطة بالفكر لذلك يرى تشومسكي أنّ <<الفكر واللغة يمثلان خصائص لشيء منظم، وفي هذه الحالة، يمثلان العقل غالبا>>[1].

[1]– نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي "الأفكار والمثل"، مرجع سابق، ص 462.

ثالثا: التصور التشومسكي للمبدأ الخلاق في استخدام اللغة

1/-استعمال اللغة:

يبقى تشومسكي ضمن التصور الفطري _الأفلاطوني الديكارتي_ للغة الإنسانية باعتبارها ملكة ذهنية، وخاصية إنسانية فريدة يكمن جوهر تميزها في كونها ناقلة للفكر ومعبرة عنه؛ هي ليست وسيلة للتواصل فقط حسبما ما يدعي الكثير من اللغويين؛ إنّها مرآة تعكس ما في عقولنا من أفكار وتجسدها بطريقة خلاقة ومبتكرة. يمثل كل تعبير لفظي تجسيدا لفكرة موجودة في العقل/الدماغ، فوجود الفكرة في العقل هو وجود بالقوة في حين أنّ الكلام المنطوق هو دليل وجودها بالفعل؛ و<<هو العلامة الوحيدة على الفكر المخبأ داخل الجسد>>[1]؛ إنّه ليس انفعالا عاطفيا ولا ردة فعل تُجاه مثير معين، فهو متحرر من المثيرات _داخلية كانت أم خارجية_ ويؤكد تشومسكي بأنّ الاستخدام اليومي للغة؛ أي الكلام مستقل عن الحالات الداخلية كالانفعالات والعواطف، ومتحرر من المنبهات الخارجية، لكنه لا يُلغي دورها تماما، بل يلزم لتكوين العملية الكلامية هذه الشروط جميعها، إلاّ أنّ رفضه يتمحور حول استحالة أن تكون هذه المنبهات هي المُسَبب الرئيسي في الكلام الذّي يعد تَجُسدا فكريا بحتًا.

التراكيب اللفظية تمثل تصريحا عن فكرة معينة من المتكلم للسامع ونشاطًا إنتاجيا ذهنيا لامحدود؛ فلا يكفي أننا ننتج التعابير الدالة عن الأفكار إنّما أيضا أنْ نبتكر أفكارا جديدة وبالتالي منطوقات وجملا جديدة، ويسمح هذا بالتنوع اللامحدود في النشاط الذّي تقدمه اللغة من خلال الاستعمال العادي اليومي بكونها <<أداة للتعبير الحر عن الفكر وللرد المناسب على الأوضاع الجديدة>>[2].

---

[1] – نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص117.

[2] – المصدر نفسه، ص125.

يرتبط استخدام اللغة عند تشومسكي بعمليتين ذهنيتين هما: الأولى عملية الإدراك والفهم والتّي تُعنى بالبناء الذهني للتصورات التّي تحدث في ذهن المتكلم والسامع أثناء العملية الكلامية، فدراسة هذه العملية تهتم بما يحدث في ذهن المتكلم أثناء كلامه، وما التصور الذّي يبنيه المستمع في ذهنه عند سماعه لهذا الحديث، وكيف يستطيع فهم ذلك خاصة وإن كان الكلام جديدا عليه. أمّا العملية الثانية فهي الإنتاج اللغوي والتّي تُفهم في إطار ما يُعرف في لِسانيات تشومسكي بمشكلة ديكارت؛ والتّي تتلخص في أنّه كيف يمكن للمتكلم الذي يمتلك معرفة لغوية ما من استخدام هذه المعرفة بطريقة خلاقة ومبدعة؟ وكيف يمكن تفسير هذا الاستعمال تفسيرا علميا واضحا ودقيقا؟، يجيب تشومسكي بأنّ استعمال اللغة فطري مثله مثل اكتسابها، فالبشر مفطورون جينيا على أن يُنتجوا كلمات ويُصيغوا تراكيب لغوية ومتنوعة، ويعرفه بأنّه: <<سلوك تحكمه القاعدة. فلدينا معرفة (ضمنية عامة) بقواعد اللغة، ونحن نستخدم هذه القواعد في بناء التراكيب الحرة>>[1]، أي أنّ إنتاج تعبير لغوي ما هو فعل يقوم المتكلم وفق قواعد نحوية لغوية معينة دون معرفة واعية منه بهذه القواعد الذهنية التّي تمثل معرفة ضمنية أي قدرة داخلية موجودة في عقل أي متكلم، تسمح له بتركيب وتكوين صيغ لفظية وتعابير محدودة أو لا محدودة تظهر في الاستخدام الظاهر للغة.

-الكفاءة اللغوية والأداء الكلامي:

إنّ الفرد المتكلم الذّي ينشأ في بيئة لغوية معينة، تتكون لديه تجربة لغوية خاصة مستوحاة من هذه البيئة، وبفضل تفاعل هذه التجربة مع الملكة الفطرية الداخلية الموجودة عنده يستطيع التعبير عن أفكاره والتواصل مع الآخرين، وبإمكانه أن يفهم ما يُقال له من جمل وتعبيرات حتى إذا ما كانت هذه الجمل جديدة بالنسبة إليه، تُمثل هذه إحدى القدرات المهمة التّي تتمتع بها اللغة الإنسانية.

[1] – نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص392

يميز تشومسكي بين تصورين اثنين في الاستعمال اللغوي هما مفهومي الكفاءة اللغوية (Competence language) والأداء الكلامي(Performance language)، ونقصد بالكفاءة اللغوية <<معرفة المتكلم/المستمع لهذه اللغة، والأداء اللغوي هو الاستخدام الفعلي لهذه اللغة في مواقف وسياقات معينة>>[1]. فالكفاية تعني أنّ المتكلم/المستمع في جماعة لغوية معينة في أي مكان في هذا العالم يمتلك مقدرة ضمنية للغته أي ما يعرفه مستعمل لغة ما، وحسب تشومسكي <<يُشير المصطلح التقني للفظة "الكفاءة" إلى قدرة المتكلم–المستمع المثالي على ربط الأصوات والمعاني بما يتفق بدقة مع قواعد لغته>>[2]؛ في حين أنّ الأداء الكلامي هو استعمال خارجي وتحقق فعلي لهذه المقدرة في سياق لغوي محدد، بمعنى أنّ هذه المقدرة تُمكن هذا المتكلم/ المستمع من إنتاج التراكيب اللغوية والتعبيرات اللفظية أولا، وفهم هذه التراكيب وغيرها من الصيغ اللغوية حتى وإن كانت جديدة تماما بالنسبة إليه.

<<إنّ الكفاية اللغوية ملكة ذاتية خاصة بمتكلم اللغة الذّي ترعرع بصورة طبيعية في البيئة التّي تتكلمها>>[3]، فهي موجودة في ذهن المتكلم/المستمع بصورة ثابتة ولا يمكن فقدانها نتيجة حادث معين حتى بفقدان الأداء، فالمتكلم الذّي يتعرض لحادثة ما تُسبب له مشاكل في الكلام، قد يفقد المهارة على الكلام والتعبير لكنه يحتفظ بالمقدرة الضمنية لهما، وبعد شفائه يمكن أن لا تظهر عليه أية عوارض توحي بأنّه قد فقد الأداء أي الاستخدام الفعلي للغة، ولهذا "فإنّ الكفاءة اللغوية تعد إحدى العوامل المتدخلة مباشرة في الأداء اللغوي، إضافة إلى عوامل أخرى كثيرة نفسية واجتماعية وثقافية، ولهذا فإنّ الأداء لا يعد انعكاسا

---

[1]–Naom Chomsky, Aspects of the theory of syntax, the Massachusetts institute of technology press, Cambridge, Massachusetts, 1965, p04.

*قدم تشومسكي هذين المصطلحين "الكفاءة والأداء" ، لأول مرة في جلسة منعقدة بتاريخ 1962م، في كلمة وجهها إلى مؤتمر الكونغرس الدولي التاسع لعلماء اللغة. انظر، هناء صبري، فلسفة اللغة عند نعوم تشومسكي، ص254.

[2] –Naom Chomsky, la linguistique cartésienne, 'Un chapitre de l'histoire de la pensée rationalisme',Trad Nelcya Delanoe, Dan Sperber, éditions du Seuil, Paris, 1969, p126.

[3] – ميشال زكريا، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية، مرجع سابق، ص07.

مباشرا عن الكفاءة اللغوية"[1]. ويقر تشومسكي بضرورة التركيز على الكفاءة اللغوية في البحث اللساني وليس على الأداء الذّي يتصف بأنّه ظاهري ومُلاحظ _منطوق ومسموع_ ومتغير، في حين أنّها عكسه وبالتركيز عليها فقط يمكن أن تقدم لنا دراستها نتائج مهمة ومذهلة تمكننا من فهم وسبر أغوار النظام اللغوي والعقلي معا.

-قضية المعنى وأهميتها في استخدام اللغة:

تعد مسألة المعنى ذات أهمية كبرى في مجال دراسة اللغة الإنسانية، فدلالة الكلمات والجمل هي من تعطيها قيمتها ومغزاها، وبفضلها تَتم الكثير من العمليات التفاعلية بين الأفراد والمجتمعات كالفهم والتأويل والتواصل. "في بداية ظهور المرحلة الأولى"* من النحو التوليدي التحويلي لم تأخذ قضية المعنى اهتماما جدّيا من طرف تشومسكي فقد كان جُل تركيزه منصبا على الجانب النحوي المتعلق بقواعدية الجمل وعدم قواعديتها، إذ اعتبر أنّ أي <<بحث عن تعريف للقواعدية يعتمد على الدلالة، سيكون عقيما>>[2]، "لكن ومع الانتقادات" التّي تلقاها من طرف الكثير من اللسانيين ومن بينهم طلابه**، حاول في المرحلة الثانية

---

[1]-Naom Chomsky, Aspects of the theory of syntax, p04.

*- يمثل ظهور كتاب <<البنى النحوية Syntactic structures>>عام 1957م، لنعوم تشومسكي بداية المرحلة الأولى من نظريته اللغوية، وتسمى بالمرحلة النحوية فقد كان التركيز فيها منصبا على استقلالية نظام القواعد النحوية عن مسألة المعنى، أي التركيز على الجملة وتعريفها وكذا صحة هذه الجمل من الناحية النحوية أو لا، دونما الاهتمام بمعنى هذه الجمل، واشتهرت بمثاله الشهير: أ- الأفكار الخضراء التّي لا لون لها تنام بشدة (جملة قواعدية)، ب- بشدة تنام الخضراء التّي لا لون لها الأفكار (جملة غير قواعدية). انظر، نعوم تشومسكي: البنى النحوية، ص19. وأمّا المرحلة الثانية وتُسمى بمرحلة النموذج المعيار ويؤرخ لهذه المرحلة بظهور كتاب <<جوانب من نظرية النحو Aspects of the theory of syntax>> في سنة 1965، وكان الاهتمام فيها مبنيا على استدراك النقائص الموجودة في النموذج السابق، أنظر، نعوم تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، مصدر سابق، ص13.

[2]- نعوم تشومسكي، البنى النحوية، تر: يؤيل يوسف عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، ط01، بغداد، 1987م، ص20.

**- تجدر الإشارة إلى أنّ طلاب تشومسكي كاتز وفودور هما اللذان انتبها إلى أهمية الدلالة في تركيب الجمل، حيث طرحا هذه المسألة عندما نشرا مقالتهما الشهيرة <<بنية النظرية الدلالية>> سنة 1963م، إذ تبين لهما أنّ كثيرا من القواعد التحويلية _مثل تحويل الجملة المبنية للمعلوم إلى جملة مبنية للمجهول_ تُحافظ على ثبات معنى الجمل، ومن هنا اتضح لتشومسكي ضرورة المعجم وعلم الدلالة في النظرية النحوية التوليدية. انظر، هناء صبري، فلسفة اللغة عند نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص270.

تطوير نظريته للاهتمام بقضية المعنى أكثر فقام بإدخال المعجم والمكون الدلالي على تركيب الجملة. تأسست نظريته للمعنى على منطلق عقلاني حيث ترتبط بمسألة الادراك والفهم في الاستعمال اللغوي، يُمثل المعنى عنده قوة داخلية للجملة وهو ضروري لتحليل بنيتها إضافة إلى صحتها من الجانب النحوي الذّي لا يكفي لدراستها دراسة دقيقة. وقد كان لهذا التركيز على الجانب الدلالي الأثر الكبير لاستكمال الدحض التشومسكي للسانيات البنيوية والسلوكية وغيرها من المدارس التّي أقصت المعنى من الدراسة اللغوية واعتبرت البحث فيه نوعا من البحث الميتافيزيقي لأنّه يعتمد المنهج الاستنباطي المرفوض عندهم بصورة قطعية.

تعد عملية الفهم شرطا أساسيا في العملية الكلامية التّي لا تتم إلاّ بواسطة المعنى الذّي تُقدمه الجمل والملفوظات، وهنا تتجلى أهمية المعنى كقوة داخلية عقلية، فعلى سبيل المثال قد توجد جمل وتعبيرات صحيحة نحويا لكن إذا ما حاولنا تفسيرها دلاليا فإننا سنجدها من غير معنى ولا نفهم ما المقصود منها، ولهذا يُصر تشومسكي على أنّ <<التحليل الدقيق لمعنى الكلمات سيجعل عمليات الفهم معروفة أكثر من أي شيء>>[1]؛ فعملية الفهم مرتبطة بالتعبير اللفظي السَّوي الذّي يقدم أفكارا واضحة للآخرين، فلفهم جملة ما يجب على اللساني التركيز على ما هو أكثر من الجانب القواعدي أي التركيز على معنى المفردات والمورفيمات التّي تتكون منها هذه الجملة. ومع التركيز على عملية الفهم والتأويل في الإبداع اللغوي الذّي تتميز به اللغة الإنسانية أصبح إخضاع المعنى والمكون الدلالي للتحليل العلمي والتدقيق البحثي ضروريا، وقد ساهم إدخال تشومسكي للمكون الدلالي إلى جانب المكون التركيبي إلى اعتبار المعنى عنصرا تأويليا وشرطا تفسيريا في عملية إنتاج الجمل <<فضلا عن التحليل اللغوي القائم على أسس ومفاهيم تتصل بالجانب الدلالي ولو

[1]–Naom Chomsk, La linguistique cartésienne, p57.

بصورة غير مباشرة كالتحليل على مستوى البنية العميقة الذّي يعتمد على المعلومات الدلالية التّي يقدمها المكون الدلالي>>[1].

2/-الإبداع اللغوي حسب تصور تشومسكي:

في نظر تشومسكي تعد الملاحظات الديكارتية بخصوص اللغة والاستعمال العادي المبدع لها قليلة جدًّا مقارنة مع بحوثه التّي قدمها حول القدرات الإنسانية الأخرى إلاّ أنّها تتميز بالجِّدة والأصالة، ذلك لأنّه لفت الانتباه إلى مظهر من المظاهر الإنسانية التّي تبرهن على تفرد الإنسان وتفوقه عن باقي الكائنات الحية الأخرى وهو المظهر الإبداعي الخلاق الذّي يعد سِّمة جوهرية للغة البشرية؛ بالإضافة إلى خصائص كثيرة أهمها خِصِّيصَة اعتبرها تشومسكي أهم تلك الخصائص على الإطلاق لأنّها تعد <<أكثر الخصائص أولية للملكة اللغوية؛ وهي خصيصة اللانهائية المتمايزة: حيث تجد جملا مكونة من ستة كلمات، أو جملا من سبع كلمات، لكنك لا تجد جملا مكونة من ست كلمات ونصف>>[2]، إنّها نظام لا محدود ولا نهائي ومتمايز وخاص باللغة الإنسانية فقط، لا يوجد لها نظير ولا مقابل آخر في أي نظام من أنظمة الاتصال في عالم الكائنات الحية، "ما عدا نظام العد (الحساب) الموجود عند البشر، وهو على ما يبدو نظام أكثر تعقيدا منها"[3].

تتجلى خِصِّيصَة اللانهائية المتمايزة(Discrete infinity) بصورة واضحة ما إن يقيم الفرد حديثا ما؛ فمن الملاحظ أنّ الفرد أثناء كلامه يكون مجموعة من العبارات والجمل النحوية غير المحدودة والتّي تتسم بالاتساق والتوازن ما يدل على أنّ كل متكلم تندمج عنده مجموعة محددة من القواعد، تمنحه إمكانية إنتاج عدد لانهائي من التعابير الدالة وهذا أهم ما عبر عنه ديكارت؛ وهو أنّ المتكلم يستطيع أن ينتج مجموعة من الجمل مبنية بشكل

---

[1]- حسام عدنان الياسري ومصطفى هاتف بريهي، مرحلة النظرية المعيار في المدرسة التوليدية ومسألة المعنى، ضمن: المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 14، 2020م، ص175.

[2]- نعوم تشومسكي، بنيان اللغة، مصدر سابق، ص76.

[3]- المصدر نفسه، ص 76.

قاعدي نحوي صحيح دونما وعي منه بتلك القواعد النحوية؛ تتسم باللامحدودية واللانهائية والجِّدة والأصالة ما يعبر عن الإبداع الذّي تتميز به اللغة البشرية؛ ولا يقتصر الإبداع هنا فقط في إنتاج الجمل وتركيبها وحسب بل يكمن أيضا في فهم ما يقال له من جمل تتسم بتلك الخصائص أي أنّ له القدرة في إنتاج وفهم مجموعة من التعابير الكثيرة والمتنوعة وهذا ما يُشكل سمة فريدة وخاصة بالكائنات الإنسانية وهذا هو منبع كل إبداع.

إنّ الخصائص التّي تمتاز بها اللغة الإنسانية هي التّي جعلت من محاولة تفسير الإبداع تفسيرا علميا صعبا نوعا ما؛ فمن وجهة نظر تشومسكي تعد البرهنة العلمية التجريبية على المظهر الإبداعي أمرا صعبا جدّا، ولهذا يمكن إرجاعه فقط إلى أنّه قدرة فطرية من القدرات التّي تتميز بها الملكة اللغوية الإنسانية ولهذا فهو جزء من تصميمنا الجيني اللغوي. ومن خلال هذه السِّمة اللغوية المتميزة المعبرة عن إرادة الإنسان الحرة وتفرده داخل هذا العالم يمكن فهم الكثير من المشكلات الإنسانية كمسألة الحرية، ولهذا يعتبرها تشومسكي أحد المفاتيح الهامة لفهم الطبيعة البشرية.

<<ظهر مفهوم الإبداع لأول مرة في كتاب تشومسكي "قضايا معاصرة في النظرية اللغوية" 1964م، حيث أكد أنّ الحقيقة الرئيسية التّي يجب على أية نظرية لغوية مهمة التوجه إليها تكمن في أنّ المتكلم الناضج يمكن أن يُنتج جملة جديدة من لغته في مناسبة ملائِمة، ويستطيع المتكلمون الآخرون فهمها مباشرة على الرغم من جِّدتها تماما بالنسبة إليهم>>[1]. ويتميز هذا المظهر بخصائص ومميزات كثيرة ومتنوعة.

إنّ الإبداع الذّي يميز اللغة الإنسانية ليس إبداعا من نوع خاص كالإبداع الجمالي والفني كما في الفنون والآداب كالأشعار والخطابات والروايات وغيرها من التخصصات الجمالية وليس حكرا على فئة معينة تملك مواهب خاصة وامتيازات فريدة من نوعها، إنما هو إبداع عام وعادي؛ فهو عام لأنّ جميع البشر وعلى اختلاف لغاتهم يملكونه فهو لا يحتاج

[1] – هناء صبري، فلسفة اللغة عند نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص274.

إلى جهد كبير ولا امتياز فريد، إنّما هو مشترك بين جميع البشر الذّين يملكون عقولا/أدمغة، لأنّه مرتبط بالملكة اللغوية التّي هي جزء من العقل/ الدماغ المشترك بين جميع الأفراد؛ وهو عادي لأنه مرتبط بالاستعمال اليومي فلا يحتاج إلى تدريب وتعلم مستمر؛ فبمجرد أن يبدأ الإنسان في الكلام _منذ طفولته_ تبدأ هذه الميزة بالعمل عنده؛ فإذا ما أحصينا عدد الكلمات والتعابير التّي يتلفظ بها الطفل عند بداية كلامه نجدها كثيرة ودالة ومفهومة أيضا هذا ما يُفسر لنا صعوبة تدريبه عليها وهذا لأنّ الإبداع مظهر فطري؛ يقول تشومسكي: <<عندما أتحدث عن الإبداع ...أنا لا أضع حكم قيمة: الإبداع هو جانب من الاستخدام العادي واليومي للغة والفعل الإنساني>>[1].

يقر تشومسكي بأنّ الإبداع فعلا مظهر عادي يومي لكنه يعبر عنْ قدرة غير عادية، فهو برهان على أنّ لنا عقلا نُدرك به ما يدور حولنا ونفهم ما يُقال لنا ونكوِّنُ له صورة في أذهاننا، لأنّ المتكلم أثناء العملية الكلامية يُقدم تعابير لفظية بواسطة كلمات وجمل تُكوِّن هذه التعابير في ذهن المستمع له صورة معينة، وتتمثل هذه الصورة في <<أن يتعرف عقله/ دماغه الشكل الصوتي لهذا التعبير، والكلمات التّي يتكون منها، وأن يستعمل من ثَّم مبادئ النحو الكلي وقيم المتغيرات لكي يُسقط له تمثيلا بنيويا ويحدد الكيفية التّي تُربط بها أجزاؤه>>[2].

يرتبط الإبداع اللغوي بالملكة اللغوية والفهم اللّذان يُعدان مَلَكتين ذهنيتين تتشاركان في صقل المعرفة اللغوية للمتكلمين، وتعبران بصورة جلية على <<القدرة على التصرف بالطريقة التّي أَلِفوها المُمثلة بالشكل الأوضح في الاستعمال العادي للغة: بدون أية قيود محددة، تفرضها لكن لا تحددها الحالة الداخلية، ملائمة لأوضاع لكنها ليست بسبب منها، تكون متماسكة وتحرض الأفكار التّي يمكن للسامع أن يكون قد عبر عنها>>[3]، ومع ذلك فالإبداع

---

[1]– نعوم تشومسكي وميشال فوكو، عن الطبيعة الإنسانية، تر: أميز زكي، دار التنوير للطباعة والنشر، القاهرة، ط02، 2019م، ص 162.

[2]– نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص188.

[3]– نعوم تشومسكي، آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، مصدر سابق، ص59.

ليس دليلا عن أنّ البشر أذكياء بدرجة أكبر من الحيوانات، لأنّ الطبيعة هي من وهبتنا هذه القدرة الخلاقة ولذلك؛ <<لا ينبغي خلط القدرة على استعمال اللغة بالحركات الطبيعية التّي تعبر عن الأهواء التّي يمكن أن تُقلدها الآلات والحيوانات على حد سواء...فهذا الأمر قدرة إنسانية خاصة، مستقلة عن الذكاء>>[1].

يُعتبر أداة ووسيلة معبرة عن الحرية والإرادة الإنسانيتين ويتجلى هذا في صورتين رئيسيتين: أولها أنّ اللغة أداة للتعبير الحر عن الأفكار فهي وسيلة للكشف عن الأفكار والتصريح بها للآخرين، لأنّ اللغة ليست عبارة عن أداة للتواصل فقط؛ إننا حسب تشومسكي نتكلم بدافع فتح حوار أو مناقشةِ أمر مهم أو عادي، ونتكلم بهدف التسلية واللعب، والنميمة وغيرها من أنواع مجالات الكلام التّي يبدع فيها الإنسان، وهذه أكبر الأدلة على أنّ الفارق بين اللغة البشرية ونظام الإشارات الحيواني فارق واسع وكبير جدا والسبب يعود كما قلنا أنّ اللغة الإنسانية مرتبطة بالعقل والفكر اللذّان يعدان حكرا على البشر فقط وتمثل اللغة واحدة من الأنساق العضوية التّي يتكون منها هذا النظام العقلي.

كل تعبير لفظي هو فكرة في ذهن الإنسان تتكشف هذه الفكرة للآخرين بمجرد صياغتها في كلمات وجمل لفظية؛ فتُكَّوِن في ذهن هؤلاء الذّين يُشاركونه الحديث أفكارا تماثل الأفكار التّي طرحها وتمكنهم أيضا من خلق أفكار جديدة في أذهانهم، إنّ ما يميز السِّمة الإبداعية للغة هو التجسيد الذكي للفكر. أمّا الثانية هي أنّ اللغة دليل عن الإرادة الإنسانية العاقلة الحرة، فكل عمل إنساني بما فيه الاستخدام المبدع للغة هو فعل حر، فليس هنالك أسباب ودوافع تحتم أو تجبر الإنسان على القيام بفعل ما أو التلفظ بكلام معين أو طرح فكرة دون سواها، إنّ الإنسان يُوجه ويُحث كما يقول ديكارت فقط. إنّ جوهر هذه الملاحظة الديكارتية حسب تشومسكي هو أنّ أفعالنا الحرة واللامحدودة هي الأمر الذّي يعطي القيمة الفِعلية لإنسانيتنا، لأنّه لا توجد قوة في هذا العالم يُمكنها أن تجبر الإنسان على فعل أمر محدد وبطريقة تحكمية وهذا لأنّه يملك الإرادة الحرة في فعله أو لا، وحتى وإن

[1] – نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص110.

خضع لهذا الأمر فإنّ ذلك لا ينفي أنّه يملك هذه الإرادة الحرة فقد يكون فعله هذا بدافع معين، ويتجاوز هذا الأفعال الإنسانية ليصل إلى اللغة التّي تُعد أحسن مثال للتعبير عن الإرادة الإنسانية الحرة؛ والتّي تتجسد في أنّ الفرد يستطيع أن يعبر عن أفكاره وتصوراته اللامحدودة من خلال إنتاج ما لا يحصى من التعابير الخاصة برأيه وفكره.

إنّ البحث اللساني يجب أن يركز على دراسة هذا المظهر باعتباره جزءا لا يتجزأ من اللغة البشرية، ومن مميزاته التّي تجعل باب البحث فيه مفتوحا وعميقا وثريا هو ارتباطه بالعمليات الذهنية الأخرى كالفهم والإدراك فهو موجود عند كل متكلم سوي، وهو عام وعادي معبر عن الحرية والإرادة الإنسانية يمكن فهم هذا المظهر من خلال <<خصائصه المميزة كالجِّدة والحرية من تحكم المثيرات الخارجية أو الحالات الداخلية، والانسجام وملاءمة المقامات، وقدرتها على إثارة الأفكار الملائمة لدى السامع>>[1]. فالاستعمال اللغوي المرتبط بالإبداع هو استعمال متجدد وأصيل، أي أنّ جل العبارات التّي يستعملها المتكلم ماهي إلاّ عبارات جديدة وأصيلة؛ ونعني بالجِّدة هنا أنّها ليست مكررة ومعادة أو تم سماعها من قبل وتم القياس عليها؛ بل على العكس فنحن حين نتكلم إنّما ننتج جملا جديدة وأصيلة ومبتكرة، وحتى الأفكار التّي تحملها هذه العبارات هي أفكار جديدة بالنسبة له وللمستمع الذّي يتشارك معه الكلام، فاللغة البشرية طاقة متجددة خلاقة وأصيلة.

تتسم اللغة الإنسانية باللامحدودية واللانهائية ونعني بهذا أنّ المظهر الإبداعي للاستعمال اللغوي يُمَّكن الإنسان من إنتاج وفهم عدد لا محدود من الجمل والعبارات، إذ لا وجود لجمل طويلة وأخرى قصيرة فالإبداع الذّي تتميز به اللغة يُمَّكننا من إنشاء جملة لا محدودة فمثلا قولنا:

-إنّ الطلبة في القاعة ينتظرون مجيء الأستاذ

[1]– نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص191.

هذه الجملة مفتوحة على جميع الاحتمالات إذ يمكن أن نضيف إليها كلمات وعبارات أكثر وأكثر، ومنه <<لا يوجد سقف أعلى لمجموعة الجمل لإنجاز مهمة محددة، أو مهمات معينة أخرى يمكن استعمال اللغة فيها، يبدو أنّ 'اللامحدودية' خاصية للجمل التّي تُنتَج في أسيقة التخاطب بشكل شامل>>[1]. تعتبر هذه الخاصية أهم ميزة للإبداع اللغوي عند تشومسكي وتتمثل في أنّ للمتكلم السوي قدرة على إنتاج وفهم وتفسير عدد لا نهائي من التعبيرات اللغوية؛ مستقلة وتماما عن المحفزات والمنبهات الخارجية؛ وحتى الحالات الداخلية. ويقصد بالمحفزات الخارجية كل الأسباب والظواهر الخارجية التّي يزعم البعض من اللغويين أنّها هي التّي تحفزنا للكلام؛ وأمّا الحالات الداخلية فنعني بها المشاعر والعواطف وحالات الانفعال الباطنية التّي يُظن أنّها مصدر السلوك اللغوي للإنسان. فكل تعبير لفظي يُدلي به متحدث ما؛ هو تعبير لم يخضع لحتمية معينة وليس له سبب يُسببه وليس بردة فعل؛ إنّما هو سلوك متحرر من كل سبب ومثير ومنبه سواء كان داخليا أو خارجيا؛ <<فلا شيء في المحيط يتسبب في إنتاج الجُمل: بينما يمكن أن يوقظ أو يحفز سؤال أو تعليق الأقوال أو الأفكار المعبر عنها لغويا لشخص ما، لكنه لن يكون السبب في حدوثها>>[2].

إنّ الفعل اللغوي المتميز بالإبداع إن كان يتميز بالحرية من المنبهات، فهو أيضا ينطبع بخاصية الملاءمة والانسجام ونعني بأنّ الكلام الذّي يتحدث به المتكلم السوي هو كلام ملائم للموقف أو للحادثة التّي قيل فيها على الرغم من أنّه ليس هنالك ارتباط سببي بين كلامه وهذه الحوادث. فيكون حديثه منسجما مع الموقف الذّي قيل فيه. ويثير هذا الانسجام والملاءمة أفكارً في ذهن المستمع لهذا الكلام، تكون هي الأخرى ملائمة لهذا الموقف ومنسجمة مع الحادثة.

إنّ الإبداع كخاصية لغوية إنسانية لا يتعلق بالجانب اللفظي وتأليف الكلمات والتعابير وتركيبها فقط، بل هو أيضا إبداع في الفهم والإدراك، يقر تشومسكي أنّ المستمع

---

[1] – نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص76.

[2] – المصدر نفسه، ص76.

المثالي يتمتع بقدرة على فهم واستيعاب ما يقال له؛ فالمتكلم له القدرة على إنتاج ما لا نهاية له من التعبيرات الجديدة والأصيلة والمستمع له يتمتع بقدرة على فهم هذه التعبيرات على الرغم من جِّدتها بالنسبة له، خُلاصة القول أنّ <<الإبداع اللغوي "العادي" لا عِّلَة له، لا محدود/ مبتكِر، ومناسب/متَّسق. ومن السهل أن نفسر لماذا هو متاح للبشر وحدهم: كما هو معروف إلى حد الآن، البشر وحدهم يملكون القدرات اللغوية، وهذه القدرات أنساق عضوية في الدماغ/ الذهن الذّي يملك أنساقا متعددة، يتواصل النسق اللغوي مع بعضها>>[1].

[1] – المصدر السابق، ص79.

خلاصة:

يعد الفكر الفلسفي العقلاني المرجعية الأولى والمهمة في النظرية التوليدية التحويلية ويمكن إجمال ما توصلنا إليه في أنّ اللغة من منظور تشومسكي تعد بنية ذهنية وملكة فطرية لا يوجد لها نظير عند الأنواع الحية الأخرى، ومنها لا يمكن فهمها من خلال الوصف والملاحظة، إنّما بالبحث في ماهيتها وتفسير كيفية بنائها. وكان هدفه الأساسي هو البحث في هذه الظاهرة من وجهة نظر عقلانية أكثر منها حسية؛ وتعد مشكلتي أفلاطون (الفطرية) وديكارت (الإبداعية) قِوام البحث اللغوي التشومسكي وأبرز ما قدمه في حقل اللسانيات، لقد سعى إلى دراسة اللغة من خلال التقعيد لها بأسس وركائز فلسفية عقلية والتنظير لها وصياغتها وفق منظور علمي أحيائي ووسائل وأدوات علمية جديدة.

مثلت نظرية المعرفة الأفلاطونية منطلقا أوليا لتفسير فطرية اللغة الإنسانية فكانت المشكلة الأفلاطونية المعبر عنها في محاورة مينون دليلا يستدل به تشومسكي على أنّ اللغة بنية داخلية كامنة في ذهن الإنسان وما التجربة الخارجية (البيئة والأهل) سوى واقع تَظهر فيه هذه القوة الداخلية وتتبلور فيه؛ فتنعكس عليها معطيات هذا الواقع فتنشأ لنا لغة خاصة، لهذا فإنّ مسألة فقر المحفزات وقِلة المعطيات الخارجية في مقابل غنى وثراء المعرفة اللغوية عند الأطفال لا يمكن تفسيرها إلاّ بكون مصدر هذه المعرفة هو الذهن/العقل؛ ومع أنّ الصياغة التشومسكية لهذه الطرح الأفلاطوني لعملية اكتساب اللغة تتعارض في نقاط عديدة مع أفلاطون خاصة فرضية الوجود المسبق ووجود الكينونات المثالية، إلاّ أنّه يُقر بأهمية هذا الطرح في بناء نظريته اللغوية. امتد هذا المسار الألسني الفلسفي لتشومسكي إلى محاولة التدليل على هذا الافتراض العقلاني وصياغته بطريقة علمية، فكانت المقاربة اللسانية الأحيائية التّي قدمها من خلال البرنامج الأدنوي خطوة حاسمة لردم الهوة بين ما هو فلسفي وبين ما هو علمي، اتضحت معالم هذه الخطوة مع جعل اللغة عضوا بيولوجي مكانه الدماغ/العقل والنحو الكلي برنامجا وراثيا.

يُمثل كتاب "اللسانيات الديكارتية" دليلا قاطعا على تأثير فلسفة ديكارت في الطرح اللغوي الذّي قدمه نعوم تشومسكي؛ وهذا باعتراف منه بأنّ المنظور الديكارتي للغة يعتبر واحدا من أهم الآراء التّي تم تجاهلها في البحث اللساني المعاصر، وهذا نظرا للتفسير الدقيق والجاد الذّي قدمه ديكارت حول اللغة الإنسانية، التّي تعتبر عنده برهان التميز والتفوق الإنساني عن سائر الكائنات بفضل خاصيتها الإبداعية الخلاَّقة وارتباطها بالعقل، من هنا أقر تشومسكي أنّ المبدأ الديكارتي الخلاق الذّي تتسم به اللغة هو جوهر الذات الإنسانية المفكرة ودليل على الوعي والفهم لأنّه يرتبط بمسألة الحرية والاختيار التّي تمتلكها هذه الذات. ومع أنّ الصياغة التّي قدمها تشومسكي لهذا المنظور اللغوي الديكارتي تختلف في جوانب كثيرة عن الكيفية التّي صاغها ديكارت نفسه، إلاّ أنّها احتفظت بجوهر الرأي الديكارتي وهو جعل الذات الإنسانية المفكرة ذو قيمة جوهرية ومركزية في البحث والدراسة. يرتبط المبدأ الخلاق أو السِّمة الإبداعية للغة بالاستعمال اليومي العادي لها وبمسألة الكفاءة اللغوية والأداء الكلامي الذّي طرحه تشومسكي مشيرا من خلالهما إلى أهمية قضية المعنى والجانب الدلالي في علم اللسانيات، إذ إنّ دراسة عمليتي الفهم والتأويل في اللغة من خلال المظهر الإبداعي سيمكن اللغويين والعلماء من فهم كيفية الآليات الفطرية الذهنية المتداخلة في إنتاج اللغة وبالتالي ولوجا أكثر إلى علوم الأعصاب وعلوم الطبيعة.

الفصل الثاني:

المرجعيات اللغوية لتشومسكي

المبحث الأول:

مدرسة بور–رويال والنحو الكلي التشومسكي

المبحث الثاني:

فيلهلم فان همبولت وتوليدية اللغة عند تشومسكي

مدخل:

حددنا في هذا الفصل الأصول اللغوية العقلية للنظرية النحوية لنعوم تشومسكي من خلال تناول مرجعتين اثنتين، تعتبر أفكارها مبادئ مهمة في البحث اللساني التوليدي، هما مدرسة النحو الفرنسية بور–رويال وأفكار فيلسوف اللغة الألماني فيلهلم فون همبولت؛ يتقصى تشومسكي من خلال قراءة آرائهما اللغوية المبادئ الفلسفية العقلانية خاصة تلك المتعلقة بدراسة اللغة والعقل. تركزت الدراسات اللغوية لمدرسة بور رويال على النحو والمنطق وعلى العلاقة القائمة بين العقل واللغة وحاولوا فهم هذه العلاقة من خلال دراساتهم النحوية وصلتها بالمبادئ المنطقية؛ وربطوا هذه الدراسات بالفلسفة العقلية الديكارتية.

يبقى تشومسكي داخل الإطار المرجعي العقلاني فمِنْ نحو بور رويال إلى فيلسوف اللغة الألماني فيلهلم فون همبولت الذّي كان متأثرا أيَّمَ تأثر بالفلسفة العقلية خاصة مسألة فطرية اللغة وأنّها ذات مبدأ إبداعي ومفهومه للصورة الداخلية اللغوية، ولعل من أهم الأسباب التّي جعلت من تشومسكي يطلع على ما قدمه هذا الفيلسوف ورواد مدرسة بور–رويال هو الطابع العقلاني الذّي تشكلت منه نظريتهم. في هذا الفصل حاولنا إحداث مقاربة بين أفكار هاتين المرجعيتين وبين الآراء التشومسكية التّي استقاها منهما، من خلال معرفة ماهي هذه الأفكار وما الدوافع الرئيسية التّي دفعت به إلى تبنيها؟ وهل اكتفى تشومسكي بإعادة قراءة أفكار وأراء هاتين المرجعتين من دون إحداث أي تغيير أو تجاوز عنها؟

المبحث الأول:

مدرسة بور–رويال والنحو الكلي التشومسكي

أولا: الفلسفة العقلية الديكارتية كمرجعية أولى لبناء النحو الكلي عند مدرسة بور-رويال:

1/-العقل المصدر الأول للمعرفة الإنسانية:

تعد فلسفة ديكارت العقلية هي الإرث الذّي استندت إليه مدرسة بور-رويال* خاصة في جانبها المخصص لدراسة اللغة والعقل والعلاقة بينهما؛ فإذا كان ديكارت اعتبر أنّ العقل ملكة الإنسان والفكر جوهره وبرهان الوجود الإنساني، وأنّ اللغة (الكلام) مرآة هذا العقل وانعكاس لجوهره؛ فإنّ رواد بور-رويال اعتبروا أنّ العقل معجزة الإنسان وحامل لفكره وأنّ الكلام معبر عن هذا الفكر؛ وهذا باعتراف من أحد مؤسسي المدرسة وروادها أنطوان أرنولد، فلقد <<أتى كتابه في المنطق، الذّي وضعه بالاشتراك مع مساعده بيير نيكول سنة 1960، استئنافا لكتابي ديكارت في المنهج: قواعد لتوجيه العقل (1628) وبحث في منهج حسن التعقل والبحث عن الحقيقة في كل العلوم (1637). بذلك يكون منطق بور رويال استمرارا للتوجه المنهجي الديكارتي من جهة وإعمالا لهذا التوجه في انتقاد المنطق الرائج منطق أرسطو، من جهة أخرى>>[1]. ومن خلال هذه النظرية قعدت هذه المدرسة لتأسيس نحو منطقي عقلاني كلي <<ويعد كتاب فن التفكير الذّي ألفوه؛ مجموعة من القواعد الفكرية وخلاصة وافية لنظرية المعرفة الكلاسيكية الديكارتية والباسكالية>>[2].

---

*- "بور-رويال" (Port-Royal) اسم لدير من الأديرة المسيحية الفرنسية، أُسس سنة 1204م، ليصبح في بداية القرن السابع عشر معقلا من معاقل الطائفة اليانيسية نسبة إلى كورنيل يانيس. كان مكان خلوة وتأمل انعزل فيه مجموعة من تابعي يانيس للتأمل والبحث والتصنيف في مختلف العلوم. كان من بينهم أنطوان أرنولد وبيير نيكول، وكلود لانسلو أحد أشهر نحويي القرن السابع عشر. انظر، حمو النقازي، في منطق بور رويال، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط 01، 2013م، ص07.

[1]- المرجع نفسه، ص09.

[2] - Antoine Arnauld et Pierre Nicole, La logique ou L'art de penser, éditions Gallimard, Paris , 1992, p408.

"قسم نحاة بور–رويال المعرفة إلى نوعان معرفة دينية نقلية(الكتاب المقدس) ومعرفة علمية تعتمد على العقل"[1] كمصدر أول للمعرفة الإنسانية، وكانت هذه أولى الآراء الديكارتية التّي تبناها هؤلاء النحاة خاصة –أنطوان أرنولد وبيير نيكول وكلود لانسلو_ فاعتبروا أنّ المعرفة العقلية هي المعرفة الصادقة والحقانية وأنّه بفضل العقل نستطيع الحكم على الأشياء والتصورات وتبيان صدقها من بطلانها، وبذلك منحوا له السلطة الكاملة والأولوية على المعرفة التّي تقدمها الوسائل الحسية، وقدمت هذه المدرسة في التدليل على مسألة التفاضل بين المعرفة العقلية والحسية ثلاثة أدلة وهي:

–وجوب تقديم المدرك عقليا وتفضيله وإعطاؤه الأولوية على المدرك بالحس؛ وهذا لما "كان اطمئناننا لما ندركه عقلا أكثر وأقوى من اطمئناننا لما ندركه حسا، وجب تقديم ما نطمئن إليه أكثر وتفضيله على غيره"[2].

–عدم الوثوق بما تقدمه الحواس من تصورات ومعارف إلاّ إذا تبينت بالبرهان العقلي صحتها؛ لأنّ الحواس وإنْ كانت لا تخدعنا دائما في ما تقدمه لنا، "فإنّ قطعنا ويقيننا بأنّها لا تخدعنا أمر لا يأتينا من طريق الحواس وإنّما من طريق التدبر العقلي الذّي نميز به متى ينبغي أن نثق بما تقدمه لنا الحواس ومتى لا ينبغي ذلك؛ وعليه فالأصل في الثقة بالمدرك الحسي هو التدبر العقلي"[3].

–"يقينية المعرفة الحسية إنّما تُعلم بالمعرفة العقلية"[4]؛ فمسألة يقين المعارف تستند إلى الحكم العقلي الذّي بواسطته تُعلم يقينية المعرفة الحسية.

لم يكتفي نحويو بور–رويال بتقديم المعرفة العقلية وتفضيلها؛ والتقليل من شأن المعرفة الحسية وما يصدر عن الحواس من انطباعات كما فعل رونيه ديكارت، بل إنّ

---

[1] – أحمد عصام الدين عبد الجواد، المنهج في منطق بور رويال "مقال عن المنهج العقلي (التحليل والتركيب)"، ص529.

[2] – حمو النقازي، في منطق بور رويال، مرجع سابق، ص18

[3] – المرجع نفسه، ص18.

[4] – المرجع نفسه، 19.

نظرية التَّبيُنْ المنطقي التّي أسسوها كانت تعتمد على سلطة العقل وحده في إدراك المعرفة العلمية؛ وتسمى هذه النظرية أيضا بالمنهج العقلي الذّي يقوم على عمليتين أساسيتين هما عمليتي التحليل والتركيب في البحث وتحصيل المعرفة العلمية، <<فيكون تبين أمر من الأمور _عند نحويي بور –رويال_ إمّا تحليلا لهذا الأمر لتتبين لنا حقيقته، وإمّا حلاً لإشكال يتبين لنا الصواب فيه، وإمّا وضعا لِجديدٍ لم نُسبق إليه يُبَين حكم أمر من الأمور>>[1]. ويعد وضعهم لهاتين العمليتين أحد مظاهر تأثرهم برونيه ديكارت خاصة بقواعد المنهج عنده، فقد جعل التحليل والتركيب قاعديتين أساسيتين في منهجه؛ ومن هنا كان التحليل عندهم منهجا للتفكيك <<حيث يتم البدء بالمشكلة، ثم نفككها أو نحللها إلى أجزائها المكونة لها أو عناصرها من أجل معرفة العلاقة القائمة بينها وبين غيرها من أجل التوصل إلى مبادئ أكثر عمومية من خلال منهج التركيب>>[2]، فالتحليل عملية عقلية تعتمد مبدأ التفكيك وعزل العناصر بعضها عن بعض بغية الحصول على فهم أبسط لأمر ما.

أمّا التركيب فهو الآخر عملية يقوم بها العقل تهدف إلى التأكد من الاستنتاجات التّي وصل إليها من خلال ما تم طرحه أثناء عملية التحليل إمّا صِحة أو نفيا لها، ويُعرِّف أنطوان أرنولد وبيير نيكول المنهج العقلي بأنّه: <<فن ترتيب سلسلة من الأفكار المتعددة إمّا لغاية الكشف عن المعرفة التّي نجهلها، أو للبرهنة عليها للآخرين عندما نكون على علم بها، إذن ثمة نوعان من المناهج، أحدهما هدفه الكشف عن المعرفة، وهو ما يُعرف بمنهج التحليل...أمّا المنهج الآخر فيسعى لتعليم الآخرين هذه المعارف بمجرد التوصل إليها، وهذا المنهج يُعرف بمنهج التركيب>>[3]. إضافة إلى تلكما العمليتين هناك قاعدة ديكارتية أخرى ضرورية في المنهج العقلي لبور –رويال وهي قاعدة البداهة والوضوح؛ إذ أقر هؤلاء بأنّ تبين صدق قضية من القضايا أو قبول مُسلمة من المُسلمات يحتكم إلى أربع معايير وأولها وأهمها معيار الوضوح؛ ففي نظرهم <<لا يجب، أبدا، أن نعد أمرا ما

[1] – المرجع السابق، ص 22.

[2] – أحمد عصام الدين عبد الجواد، المنهج في منطق بور رويال، مرجع سابق، ص537.

[3] –المرجع نفسه، 536.

صادقا ما لم نعرف بوضوح أنّه صادق؛ وعلينا أن نحترز جيدا سواء من التسرع في قبول الأحكام التّي لم يبدُ لنا بعد صدقها بوضوح، أو من التردد في قبول الأحكام التّي بان صدقها. وينبغي أيضا ألا نفهم من الأحكام التّي قبلناها إلاّ ما يظهر واضحا لفكرنا بحيث لا يبقى مع هذا الظهور مجال للتشكك في ما قبلناه وصدقنا به>>[1]؛ وبهذا يكون منهجهم العقلي المنطقي مبنيا على بعض الأسس والأفكار الديكارتية وليس كلها.

2/- دلالة اللغة على الفكر:

إضافة إلى الإعلاء من شأن المعرفة العقلية وجعل العقل مصدر الحقيقة والعلم من طرف نحاة بور-رويال، على خطى ديكارت؛ اعتبر هؤلاء النحاة أنّ الكلام ميزة بشرية خالصة فمهما بدت إشارات تواصل الحيوانات قريبة من لغة الإنسان، فإنّ ذلك لا يعني أنّها تستطيع أن تُركب وتستعمل المفردات والمنطوقات مثله، وهذا بسبب <<أنّ الحيوانات والكائنات الحية الأخرى لا تخضع إلاّ للغريزة العمياء، فلن تكفيها آلاف القرون للتعبير وفقا للقواعد الكلامية الإنسانية>>[2] التّي تُعبِر عنْ أنَّ الكلام البشري ذو خصائص نحوية قواعدية وجوانب فكرية عقلية؛ وإن تشابهت هذه <<الإشارات الحيوانية مع الكلام البشري في الجانب الصوتي من جهة أنّها أصوات منطوقة مسموعة فإنّ ذلك لا يعني تماثلها معه>>[3]، لأنّها تفتقر إلى الجانب الجوهري منها وهو الجانب الداخلي العقلي أو كما يُسمونَه بالجانب الروحي، ولهذا اعتبروا أنّ الكلام <<يُشكل أعظم مزايا الإنسان مقارنة مع جميع الحيوانات الأخرى، وهو أعظم براهين العقل، لأنّه يقوم بالتعبير والدلالة على الأفكار>>[4].

إنّ الكلام خاصية إنسانية أوجدها البشر للتعبير عما يدور في عقولهم وللدلالة عن تصوراتهم، وقد عرف نحاة بور-رويال <<الكلام بأنّه مجموع الإشارات التّي اخترعها البشر من أجل تفسير والتعبير عن أفكارهم؛...والبحث في تلك الإشارات يتعلق بأمرين هما؛ أولا،

---

[1] – حمو النقازي، في منطق بور رويال، مرجع سابق، ص27.

[2]- Antoine Arnauld et Claude Lancelot, Grammaire générale et raisonnée de Port-Royal, l'imprimerie de Munier, Paris, 1803, p15.

[3] - Ibid, p269.

[4] - Ibid, p270.

ماهية هذه الإشارات وطبيعتها أصواتا و حروفا. وثانيا، دلالاتها ونقصد بذلك الكيفية التّي يوظفها البشر للدلالة على أفكارهم>>[1]، فدراسة الكلام تعتمد على دراسة القسمين اللذّيْن يتشكل منهما؛ وهما القسم الخارجي الظاهري وهو القسم الذّي تُكوِّنه الأصوات المسموعة والحروف المنطوقة وهو يُسمى بالعنصر المادي. والقسم الثاني يمثل دراسة الدلالات والمعاني التّي تنشأ من تجميع الحروف وتصلنا عن طريق الأصوات وهو العنصر الروحي كما أسلفنا الذكر، وبذلك يُمثل الصوت مادة اللغة والفكرة التّي يحملها المعنى روح هذه اللغة. وقد جاء تعريفهم للألفاظ بأنّها <<أصوات متميزة وواضحة حوّلها البشر إلى إشارات للدلالة على أفكارهم... إذ إنّ الكلمة اخترعت فقط لتوضيح الأفكار>>[2]؛ فإذا كانت بعض الدراسات ترى بأنّ البشر اخترعوا الكلام واللغة من أجل التواصل بينهم فإنّ نحاة بور–رويال كديكارت نظروا إليها على أنّها أداة للتعبير عن الفكر.

إنّ الفكر جوهر العقل؛ وإنّ الطريقة الوحيدة لتوضيح هذه الأفكار هي التصريح بها عن طريق الكلام الذّي يمتاز بخاصيته الأساسية وهي الانعكاسية؛ فهو أفضل الوسائل التّي تعكس التصورات الفكرية والمدركات العقلية؛ والأداة الوحيدة القادرة على ذلك بصورة واضحة وكيفية صحيحة. إنّ فهم المعاني التّي تعكسها الكلمات هو السبيل الوحيد الذّي يُساعدنا على معرفة ما يدور في أذهان المتكلمين ومعرفة كيفية الرد عليها؛ ومادامت وظيفته تكمن في توصيل الأفكار فإنّ <<الطريقة الوحيدة التّي تمكنه من أداء تلك المهمة بنجاح هي أن يكون مرآة تعكس بنية الأفكار التّي نعبر عنها. وهذا يفسر لماذا لا يمكن فهم الأنواع المختلفة من الدلالة التّي تجسدها الكلمات، ما لم نفهم بوضوح ما دار قبل ذلك في أذهاننا>>[3]؛ لهذا يجب أن تكون المفردات والجمل واضحة وذات تركيب لغوي سليم بحيث تعبر عن الفكرة بصورة دقيقة وواضحة. وإنّ الحديث عن الفكرة في منظورهم ليس حديثا عن

---

[1]– روي هاريس، أعلام الفكر اللغوي "التقليد الغربي من سقراط إلى سوسور، تر: أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ج01، بيروت، ط 01، 2004، ص147.

[2]– المرجع نفسه، ص148.

[3]– المرجع نفسه، ص 152.

تخيلات وتصورات خيالية ولا عن كيانات هلامية لا شكل محدد لها؛ بل إنّنا عندما نتكلم عن <<الأفكار، فإننا نتحدث عن أننا قمنا بتصور شيء في ذهننا صُمم بطريقة ما>>[1]، ولهذا السبب فإنّ كلامنا يجب أن يؤدي وظيفته بكيفية دقيقة بحيث يُعبر لنا عن هذا التصميم الفكري العقلي الدقيق. إنّ الكلام بنظرهم ذلك الاختراع البشري الهائل الذّي ليس لديه مثيل عند الكائنات الحية الأخرى، فهو غني ومتنوع ولا محدود ويعبر عن تنوع لانهائي للأفكار التّي يزخر بها العقل البشري؛ وهذا أحد المبادئ الديكارتية التّي أصر عليها نحاة بور–رويال وهو المبدأ الخلاق الذّي تتميز به اللغة الإنسانية والذّي <<يتضمن تشكيل تنوع لا نهائي من الكلمات، وهي لا تقصر في كشف جميع أسرار العقل للآخرين وتوضيح كل ما ندرك وجميع الحركات الذهنية المختلفة>>[2].

[1]- Antoine Arnauld et Pierre Nicole, La logique ou L’art de penser, p35.

[2]– روي هاريس وتولبت جي هيلر، مرجع سابق، ص148.

ثانيا: التأسيس المنطقي للنحو العام عند نحاة بور–رويال:

1/–البنية المنطقية الكلية للغات الإنسانية:

كان التوجه نحو فلسفة ديكارت العقلية من طرف نحاة بور–رويال _خاصة أنطوان أرنولد؛ بيير نيكول، وكلود لانسلو_ بعد رفضهم للمنطق الأرسطي وأسسه، مُحاولةً منهم بِناء نظرية عامة للعقل ترتبط بالمنطق ارتباطا ضروريا؛ فعرَّفوا علم المنطق بأنّه <<فن توجيه التفكير بشكل سليم نحو تحصيل المعرفة، سواء من أجل تعليم أنفسنا، أو بهدف تعليمها للآخرين، وأنّ الهدف منه هو تقديم قواعد لكل العمليات العقلية، وليس فقط قواعد لعملية الاستدلال>>[1]، وبذلك خالفوا المناطقة على نهج أرسطو؛ الذّين كانوا يرون أنّ المنطق يقوم على الاستدلال، في حين يعتبر الاستدلال عند بور–رويال ليس سوى واحدة من العمليات الأربعة التّي بواسطتها تتكون المعرفة. في كتابَيْ "النحو العام والعقلي" و"المنطق أو فن التفكير" أقر أرنولد وزميليْه بأنّ "الفلاسفة عموما يرون بأنّ العقل الإنساني يقوم بأربع عمليات أساسية وهي الفهم؛ الحكم؛ الاستدلال والترتيب"[2]، بواسطة هذه العمليات يصل العقل إلى مرحلة المعرفة والعلم الصحيح.

–**الفهم**: "هو الرؤية البسيطة من الذهن للأشياء؛ سواء بطريقة فكرية بحتة كما هو الحال عندما أفكر في مفاهيم الكينونة والبقاء والإله، أو أن تكون مصحوبة بصور حسية مثلما أتصور مربعا أو دائرة أو كلبا أو حصانا"[3]؛ وهذا يعني أنّ الفهم عملية عقلية تتشكل بناءً على حالتين؛ أولا حالة فكرية مجردة ترتبط أساسا بالتفكير في الظواهر المجردة الغيبية أو الروحية الخالصة كمفهومي الحياة والموت كمعاني مجردة من الحِّس، ومفهوم الله والخلق والملائكة كمفاهيم روحية دينية غيبية لا مقابلات مادية لها. وأمّا الحالة الثانية ففيها تكون

[1] – أحمد عصام الدين عبد الجواد، المنهج في منطق بور رويال، مرجع سابق، ص531.

[2] - Antoine Arnauld et Claude Lancelot, Grammaire générale et raisonnée de Port-Royal, p270.

[3] - ibid, p p270, 271.

للتصورات الفكرية مقابلات حسية مادية وترتبط هذه بأفكارنا اليومية الحسية وبرؤيتنا للأشياء الملموسة.

-**الحكم:** "هو العملية الثانية التّي يقوم بها العقل ونعني به التأكد من أنّ الشيء الذّي نفهمه هو كذا أوليس كذا، مثلا عندما أفكر في ماذا يُقصد بالأرض وبأنّها كروية الشكل، فأنّا أؤكد بأن الأرض كروية"[1]؛ وهذه العملية هي أحد الخطوات الأساسية في منهج بور-رويال المنطقي؛ وهي تتماثل مع أحد مبادئ العقل في علم المنطق وهي أن يكون ألف (أ) هو ألف وليس باء (ب) بمعنى أنّ الفكرة المتمثلة لنا في عقلنا عن شيء ما هي ذلك الشيء نفسه وليس غيره؛ فالمعنى الذّي نكونه عن شيء ما هو ذلك المعنى وليس آخر مشابها له أو مختلف عنه.

-**الاستدلال:** "هو استخدام حكمين لإصدار حكم ثالث؛ كما لو حكمت بأنّ كل فضيلة محمودة وأنّ الصبر فضيلة، أستنتج بأنّ الصبر محمود"[2]؛ والاستدلال عملية ذهنية ذات بناء منطقي خالص، أين يتم الانتقال من المقدمات إلى النتائج. تعتبر هذه العملية امتدادا للعملية الثانية(الحكم) التّي بنيت استنادا على الأولى(الفهم)، لأنّ الحكم الذّي وصلنا إليه هو تعبير و نتيجة للفهم الذّي أنشأناه عن الأشياء.

-**الترتيب:** "هو عمل عقلي يتمثل في ترتيب الأحكام المختلفة والاستدلالات بناءً على الأفكار والصور التّي تم فهمها بطريقة معينة للوصول إلى المعرفة التامة بالموضوع"[3].

حسب مرتكزاتهم العقلية الفلسفية أقر نحاة بور-رويال بأنّ اللغة الإنسانية هي ذات طبيعة عقلية وتتسم بخصائص عامة ومشتركة؛ وقد وظفوا تصورهم العقلي المنطقي من خلال العمليات الفلسفية الأربعة _الفهم والحكم، الاستدلال والترتيب_ في تصورهم اللغوي، فجعلوا مبدأ الحكم أحد المبادئ الرئيسية التّي وِفْقها يتم التعبير عن الأفكار في تعبيرات

[1] - ibid, p271.
[2] - ibid, p271.
[3]- Antoine Arnauld et Pierre Nicole, La logique ou L'art de penser, p30.

لفظية لغوية ويتم هذا البناء اللغوي ضمن <<العلاقة النحوية القائمة "المسند والمسند إليه">>[1]، كما في قولنا:

_الشمس مشرقة؛ فالمسند هو مشرقة والمسند إليه هو الشمس.

_خرج محمد؛ المسند هو الفعل خرج، والمسند إليه هو محمد.

وهذه الأمثلة في العربية، "أمّا في الإنجليزية والفرنسية فيسمى المسند إليه بالفاعل، والمسند إمّا أن يكون فعلا أو صفة أو خبرا وتربط بينهم أداة الربط (is)"[2]. اشتهر تأكيد نحاة بور–رويال على قضية الحكم المنطقي للتعبير اللغوي وللعلاقة النحوية القائمة بين الأحكام بأحد أهم الأمثلة التّي طرحوها لتأكيد رأيهم هذا، وهي الجملة القائلة:

_الله اللامرئي خلق العالم المرئي

<<تتشكل هذه العبارة من ثلاث أحكام؛ حكم رئيسي وحكمين فرعيين، الحكم الرئيسي هو الله خلق العالم؛ الله هو المسند إليه، وخلق هو المسند، ففعل خلق العالم في هذه العبارة يُسند إلى الله. أمّا الحكم الفرعي الأول فهو: الله اللامرئي، والحكم الفرعي الثاني هو العالم المرئي. يمثل الحكمان الفرعيان قضايا فرعية يمكن الاستغناء عنها فيما يمثل الحكم الرئيسي (الله خلق العالم) قضية أساسية>>[3]. في نظر رواد مدرسة بور–رويال يعد المنطق جزءًا مرتبطا بالتعبيرات اللفظية اللغوية، ومن هذا المنطلق اشتغلوا على إقامة نظرية كلية كونية للغات الإنسانية، فأقروا بأنّ اللغة البشرية ذات خصائص عامة وكلية على الرغم من اختلافاتها الظاهرية، وهذا اِستنادًا إلى "الدراسات اللغوية التّي أقامها أنطوان أرنولد مع زميله كلود لانسلو على اللغات اللاتينية والفرنسية واليونانية وأخرى"، من أجل إقامة نحو عام وشامل للغة بصورة مبسطة في كتابهم "النحو العام والعقلاني" وأكدوا أنّ <<اللغة مرآة الفكر

---

[1]– أسماء بن منصور، النحو الكلي بين اكتساب اللغة وتفسيره "دراسة تحليلية وصفية"، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في العلوم اللغوية، جامعة باتنة (01)، الجزائر، 2018/2017م، ص53.

[2]– روي هاريس وتولبت جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص ص148، 149.

[3]– مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مرجع سابق، 08.

وتستند إلى منطق كلي(عالمي، شامل)... وهي عقلانية بشكل أساسي>>[1]؛ واعتبروا أنّ هذا المنطق الكلي يتكون من مجموعة من المبادئ المتوفرة في معظم اللغات البشرية الموجودة وأنّ الاختلافات بينها ليست سوى فروقات طفيفة، وما تشابه الأصوات ومعاني المفردات والأفكار التّي تحملها سوى مظهر من مظاهر هذه الكونية اللغوية وحتى أنّها تشترك في كثير من القواعد النحوية ما يوحي بوجود سمات مشتركة بين اللغات الإنسانية.

إنّ البنية المنطقية للغة تجعل منها متطابقة مع بنية الفكر، وبالتالي فإنّ التعبير اللغوي يَتَكوَن نتيجة تجميع للكلمات التّي تَكُون أفعالا وأسماءً، وصفات وأدوات الربط والفصل، وحروف الجر والظروف، كل هذه تحتاج إلى صياغة بحيث تؤدي لنا المعنى أو الفكرة المُراد طرحها، وهكذا يتشكل التعبير اللغوي وفقا لصيغة الحكم المنطقية، التّي يكون دورها ضبط تِلك الكلمات، وأقرَّ مؤلفي هذا كتاب؛ بأنّ هناك نوعين من الكلمات التّي تدل <<على مادة أفكارنا؛ النوع الأول تمثله الأسماء وأدوات التعريف، والضمائر والحروف وأسماء الفاعل، أسماء المفعول به والظروف. والنوع الثاني؛ الأفعال وأدوات الربط، وصيغ التعجب، وكِلا هذين النوعين مشتق من الصيغة الطبيعية التّي نعبر فيها عن أفكارنا>>[2]. على الرغم من أنّ البنية المنطقية مشتركة وأنّ اللغات الإنسانية ذات مبادئ عامة وشاملة لكنها مختلفة سطحيا؛ وتُرد هذه الاختلافات إلى العُرف أولا والاستخدام اليومي الفردي ثانيا؛ إذ <<لا يمكن تفسيرها بإرجاعها إلى المبادئ المنطقية الفكرية...لأنّ اختلاف الناس في بكين وباريس في طريقة كلامهم مسألة تتعلق بالعادات. ولا يمكن تبرير تلك العادات بالرجوع إلى الغرض من الكلام أي للتعبير عن الأفكار>>[3]؛ فكل مجتمع له نمط لغوي معين لا يتطابق في مرات كثيرة مع المبادئ المنطقية النحوية العامة، والأفراد في هذه المجتمعات لا يتحدثون طبقا لتلك المبادئ؛ فأحاديثهم اليومية قد تتسم في أحيان كثيرة بالإيجاز

---

[1]– جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر: فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت، ط 01، 2008، ص309.

[2]– روي هاريس وتوليب جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص149.

[3]– المرجع نفسه، ص161.

والاختصار؛ وتفادي التكرار والإطناب، فنجدهم يحذفون كلمات ويتغاضون عن أخرى، وقد يضيفون مفردات ويستعملون الاستعارات والكنايات وكذلك المجاز، وهذا راجع لِما تَعوَدُوا عليه من أجل تبليغ أفكارهم، ومع ذلك فإنّنا إذا ركزنا جيدا سنجد أنّ هذه الفروقات والاختلافات طفيفة، وأنّ الأفكار التّي تعبر عنها تراكيبهم اللغوية تتميز بخصائص ومقولات ذهنية منطقية متأصلة وثابتة في عقل الإنسان و<<تعد هذه المقولات أساسا صالحا لبناء نحو اللغات وصياغة قواعده. وما القواعد النحوية إلاّ جزء من هذه المقولات الفكرية العامة؛ ولهذا هناك تطابق تام ما بين البنية اللغوية والبنية المنطقية>>[1].

2/-النحو العام ومبادئه عند نحاة بور رويال:

إذا كان المنطق هو فن توجيه التفكير عند نحاة بور رويال فإنّ النحو عندهم يعتبر فن التواصل الناجح أي أنّه الوسيلة التّي تقدم لنا الفكر بطريقة واضحة بواسطة مجموع التعابير اللغوية؛ فهو <<دراسة ما يُسمى 'فن الكلام' ولا يُفهم بالنحو...أنّه بِنية متأصلة في اللغة، أو أنّه مجموعة من القواعد التّي بِحد ذاتها تُكوِّن اللغة. هو يدرس فن التواصل الناجح وفن الكلام بطريقة نعبر فيها عن الفكر بشكل كامل وواضح عن طريق صيغ التعبير التّي نختارها. لذلك فإنّ النحو دراسة فعالية وليس دراسة منظومة معينة (من القواعد أو المفردات أو الجمل). ويكمن في توضيح وتسويغ مبادئ الأداء الناجح أو الفهم الصحيح لتلك الفعالية>>[2] فنفهم من هذا أنّ النحو عند رواد هذه المدرسة؛ ليس نظام من القواعد والمبادئ الصارمة كتلك التّي يضعها عالِمُ اللسانيات والمشتغلون بالنحو والصرف وعلوم اللغة، إنّما هو فن التعبير والصيغة السليمة والناجحة التّي من خلالها يُمكن فهم تفكير الآخر والتواصل معه، وبذلك يكون الكلام فنا بوصفه آلية عقلية ناجحة تُمكن من تحقيق آليات أخرى وهي الكشف والتعبير والفهم والتواصل بين المتكلمين/ المستمعين.

---

[1] – مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مرجع سابق، ص07.

[2] – روي هاريس وتولبت هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص 153.

النحو فن الكلام أي أنّه <<علم يهتم بدراسة العمليات التّي تُشكل لنا هذا الكلام وقواعد هذه العمليات؛ أي أنّه ليس عبارة عن أداء فردي ولا عن نظام ألسني اجتماعي>>[1]، بل على العكس إنّه يبحث في الخصائص العامة والمشتركة في كل اللغات؛ هو نحو شامل وليس نحوا خاصا بلغة واحدة فقط وليس أداءً فرديا، وقد أكد نحاة تلك المدرسة أنّ النحو اِنشغال بالكليات وليس بالجزئيات؛ فهو وصف لطبيعة اللغة البشرية عامة وليس للغة خاصة كالفرنسية أو اللاتينية، ولا يتنكر هؤلاء لوجود نحو خاص لكل لغة على حدة، إلاّ أنّهم وضعوا النحو العام لجميع اللغات الهدف الرئيسي لنظريتهم النحوية؛ واعتبروه <<شرحا للخصائص النحوية التّي تشترك فيها جميع اللغات، إذ يمكن تيسير تعلم اللغة إذا كان الطالب يعرف مسبقا؛ على سبيل المثال، الفرق بين الاسم والفعل، ووظائف علامات الإعراب وماذا نقصد بأجزاء الكلام المختلفة، ولماذا نجد مثل هذه الفئات والفروق>>[2].

يبني أصحاب هذه المدرسة نظريتهم في النحو الكلي على مجموعة من المبادئ وهي:

– إنّ الفهم العميق للكلام لا يكون إلاّ إذا تم فهم الأفكار بطريقة صحيحة وعميقة، من خلال الصياغة الصحيحة وفق المنطق للتراكيب الكلامية؛ <<وتساعد معرفة بنية الأفكار في تفسير الفئات الشمولية والاختلافات وقواعد النحو الخاص بجميع اللغات>>[3].

– يجب أن تقوم دراسة النحو على محاولة فهم وتفسير الخصائص الأساسية المتأصلة في الفكر الإنساني لفهم اللغة أكثر؛ فعلى سبيل المثال على اللساني أن يعرف <<ما الشيء الأساسي للفعل؟ ما الشيء الأساسي للجملة؟...لأنّ تلك الخصائص الأساسية، الناجمة عن طبيعة الفكر، هي التّي ينبغي للكلام أن يعبر عنها والتّي تستحق لذلك اهتمام النحو العام>>[4].

---

[1] – محمود جاد الرب، علم اللغة نشأته وتطوره، دار المعارف، ط 01، 1985م، ص54.

[2] – روي هاريس وتولبت هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص 151.

[3] – المرجع نفسه، ص152.

[4] – المرجع نفسه، ص158.

– إنّ البنية المنطقية المشتركة بين جميع الأفراد تجعل من النحو شيئا ثابتا جوهريا في جميع اللغات وهذا على الرغم من الاختلافات السطحية والعارضة التّي تظهر عليها.

– إنّ فهم خصائص النحو هو بداية تحليل لنشاط التفكير الإنساني وفهم له، فقواعد النحو هي الأدوات التّي بها تتوافق بها أشكال اللغة مع الأشكال العامة للفكر، والاختلافات بين أجزاء اللغة والكلام تعبر هي الأخرى عن الاختلافات بين الأفكار.

– إنّ التحليل المنطقي لفهم الاستعمال اللغوي للصيغ التركيبية التّي تشكل العلاقة بين العناصر المكونة للجملة يُمكِّنُ من معرفة قواعد التحويل والتركيب في الجمل.

– يتمثل الهدف الرئيسي لرواد هذه المدرسة في "إنتاج النحو الفلسفي الذّي يهتم بما هو عام في أنحاء اللغات –النحو العام– ولكن ليس النحو الكلي على نحو قبلي"[1] أفلاطوني.

– إنّ للعبارة جانبان: جانب عقلي داخلي وجانب مادي خارجي؛ يمثل الجانب الداخلي البنية العقلية الداخلية والتّي تُشكلها الفكرة أو المعنى والدلالة التّي تعبر عنها العبارة؛ وأمّا الجانب الخارجي المادي فيمثله الصوت والحروف أي مجموع الرموز اللفظية المنطوقة.

– إنّ البنية المنطقية للغة البشرية التّي نادى بها نحاة بور رويال والتّي اعتبروها مشتركة بين جميع الأفراد تمثل بنية داخلية كامنة في ذهن متكلم أي لغة من اللغات.

– تتميز اللغة بأنّها ذات مبدأ ابتكاري خلاّق، فإذا كانت الكلمات اخترعت لتعبر عن الأفكار، فإنّ التنوع الكبير للمفردات ولا نهائية التعابير يعني بالضرورة أنّ الأفكار هي بدورها خلاقة وغير متكررة ولا محدودة.

[1] –هناء صبري، فلسفة اللغة عند نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص170.

ثالثا: النحو الكلي التشومسكي من خلال الأساس المنطقي

1/-حضور الطرح المنطقي لبور-رويال في المنظور اللغوي التشومسكي:

يعتبِر تشومسكي أنّ الاتجاه العقلاني خاصة الفكر الديكارتي يعتبر ركيزة أساسية ومرجعية أولى للدراسات النحوية التّي قدمتها مدرسة بور-رويال فعلى الرغم من أنّ علم المنطق كان محور دراساتهم إلاّ أنّ الفكر الديكارتي المتعلق بالعقل واللغة ومسألة الفطرية في الاكتساب والاستعمال اللغوي كان المُلهم لهم في بناء نظريتهم النحوية المنطقية؛ ويقول في ذلك: <<إنّ النظرية النحوية لمدرسة بور-رويال هي فرع من اللّسانيات الديكارتية لم يقدمها ديكارت بنفسه>>[1]؛ كانت نظريتهم النحوية ذات أسس عقلانية تزخر بمجموعة من المقولات الفلسفية الديكارتية، فلقد حاولوا بناء نحو كلي للغة بناءً على تلك الافتراضات والمنطلقات العقلانية؛ <<فافترضوا وجود سِمات كلية في أنحاء اللغات وافترضوا أنّ الإبداع اللغوي _وضع الكلمات بعضها مع بعضٍ لصنع عدد لامتناهٍ من الجمل_ يمكن أن يدرس باللجوء إلى نسق من القواعد...آملين تحديد طبيعة نسق في الذهن يملكه البشر وحدهم>>[2]، إنّ هذه القواعد شاملة ومشتركة بين جميع اللغات، وتُكوِّنُ نظاما عقليا إنسانيا؛ بالإضافة إلى أنها أساسية وثابتة جوهريا في كل أنحاء اللغات الخاصة، ويتوجب على الدراسات اللِسانية أن تسعى للبحث في هذه المبادئ والقواعد التّي تُشكل ثوابتًا في اللغات الطبيعية؛ من خلال التركيز على التنوع اللامحدود الذّي تزخر به هذه اللغات والذّي يظهر جليا في الاستعمال اليومي المبدع.

أكد تشومسكي أنّ نحاة بور-رويال سعوا <<إلى بناء نحو كلي (علمي وموضوعي)، واعتقدوا أنّه بفضل هذا النحو فقط يمكن أن لا نكتفي بوصف اللغة، ولكن أنْ نأمَلَ في تفسير سبب كون هذا النحو هو الصحيح لمتكلم اللغة _أي لماذا هذا النحو هو ما

---

[1] -Naom Chomsky, la linguistique cartésienne, p17.

[2] - نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص ص 54، 55.

يوجد في ذهن الطفل وليس سواه>>[1]، في نظره؛ لم يتوقفوا عند حد وصف الكلام والمتن اللغوي وصفا ظاهريا ولا لسانيا محضا بل تجاوزوا ذلك إلى المطالبة بفهم وتفسير هذا النحو الذهني الموجود في عقول البشر بشكل فطري. كان أحد أهدافهم هو <<ضبط الحدس القاضي بأنّ اللغات الطبيعية يمكنها أن تختلف بقدر كبير في أصواتها، لكنها تتشابه أساسا في معانيها>>[2]؛ وقسموا الكلام إلى عنصرين هما الصوت والمعنى، إذا اختلف الشكل الخارجي الصوتي للغات البشرية المتعددة فإنّ هذا لا يعني أنّ هذا الاختلاف يمس الشكل الداخلي الدلالي، فمهما كانت الأصول العرقية والدينية والإثنية لشخص ما وكذا للجماعة اللغوية التّي ينتمي إليها فإنّ هذا لا يعني عدم قدرته على تعلم اللغات الأخرى؛ بل إنّ البنية المشتركة للغة البشرية تجعل من معاني ودلالات التعابير مماثلة لبعضها في كل مكان. يرى تشومسكي أنّ لغات العالم ورغم الاختلاف الذّي يظهر بينها على أنّه اختلاف عميق وشاسع يوحي بعدم وجود شيء مشترك بينها، إلاّ أنّ هذه الاختلافات في حقيقتها سطحية وطفيفة قد لا تتعدى الشكل المنطوق (الصوت وصيغته وطريقة استعماله)، ولأنّ جميع هذه اللغات تشترك في الكثير من الأنظمة النحوية والدلالات والمعاني للعديد من التعبيرات فكلمة نهر بالعربية وما يقابلها بالإنجليزية River وبالفرنسية Rivière لها نفس المعنى إننا نقصد بها نفس الشيء على الرغم من اختلاف اللغات.

إنّ الدراسة النحوية للعلامة اللغوية التّي اعتمدها رواد بور–رويال <<تتم من وجهة نظر الأصوات التّي تكوّنها والحروف التّي تمثل هذه العلامات، ومن وجهة نظر 'دلالتها' أي الطريقة التّي يستعملها الإنسان للدلالة على أفكاره>>[3]، ألهمت هذه الدراسة تشومسكي وأطلق على هذين المظهرين المكونين للعلامة اللغوية مفهومي البنية العميقة والبنية السطحية؛ <<تُشكل الأولى البنية التحتية المجردة التّي تحدد تأويلها الدلالي، وتشكل الثانية

[1] – نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص 56.

[2] – المصدر نفسه، ص56.

[3] – المصدر نفسه، ص ص 158، 159.

التنظيم السطحي للوحدات الذّي يحدد التأويل الصوتي ويُربَط بالصورة الفيزيائية للكلام الفعلي، أي بصورته المُدركة أو المقصودة>>[1].

تعد هذه المقاربة الديكارتية التّي قدمها رواد هذه المدرسة تطورا مهما وجادا في مجال البحث اللساني؛ غير أنّ تشومسكي أقر بعدم وجود تطابق تام بين البنيات السطحية والبنيات العميقة، ولا وجود لتلازم تام بين البعد الصوتي والدلالي للعلامة اللسانية؛ فلا تتوقف دلالة العلامة اللغوية عند بنية التعبير اللفظي والتحليل النحوي للعناصر المكونة لها بل هي تكمن داخل ذهن المتكلم السوي، هذا يعني أن فحص العناصر الظاهرة من أي تعبير لغوي (مورفيم، فونيم،...) تبقى عاجزة عن إدراك المستوى العميق من الروابط الدلالية بينها، لذلك اعتبر رواد بور–رويال أنّ النواة الفعلية للغات الإنسانية هي الحكم المنطقي وعلى هذا الأساس أصروا على البنية المنطقية مشتركة بين اللغات وأنّ كل عبارة لفظية يمكن أن تكون درسا في المنطق؛ وقد تبنى تشومسكي هذا الرأي فأقرّ بأنّ <<الصورة الأساسية للفكر هي الحكم الذّي يُسند به شيء إلى شيء آخر ويعبر عنه لغويا بواسطة القضية، التّي يمثل حدها الأول 'الفاعل الذّي هو ما نسند إليه' ويمثل الثاني 'المحمول الذّي هو ما يحمل وقدم مثالهم الشهير:

–خلق الله الخفي العالم المرئي>>[2]

يمكننا أن نستنتج من هذا المثال أنّ البنية العميقة لهذا القضية التّي يطرحها المثال السابق "تتكون من ثلاث قضايا تعبر كل منها على حكم بسيط على الرغم من أنّ البنية السطحية تظهر لنا أنّها حكم واحد ضمني وهو بنية عميقة تتمثل في أذهاننا. وهذا هدف النحو العام التحويلي وهو العمل على إظهار البنيات العميقة فيما وراء البنيات السطحية"[3]. من خلال مفهومي البنية العميقة والسطحية اللذّان طرحهما تشومسكي؛ ظهر مفهوم آخر

---

[1]– نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص159.

[2]– المصدر نفسه، 160.

[3]– المصدر نفسه، ص170، بتصرف.

مرتبط بهما وهو مفهوم التحويل الذّي يُقصد به تلك الميكانيزمات الذهنية التّي تحدث في عقل/دماغ المتكلم والتّي تعمل على طرح وتقديم البنية العميقة في مظهرها السطحي، الذّي من الممكن أن يظهر في صيغ مختلفة؛ دون أن يُخل ذلك التغيير في البنية العميقة، وهكذا <<يصبح تحليل الجملة نحويا، مرادفا لإظهار اشتقاقها وهناك مرحلتان للقيام بعمل كهذا تتمثلان في؛ تطبيق قواعد تركيب العبارة، وتطبيق القواعد التحويلية>>[1].

يُقصد بقواعد تركيب الجملة تلك القواعد التّي تعمل على اتخاذ الجملة وِحدة أساسية للتحليل؛ إذ يتم تقسيمها إلى عناصر وأركان، يرمز إلى كل عنصر منها برمز محدد، فيرمز للاسم ب: (م س) أي مركب أو ركن اسمي، وللفعل ب (م ف) أي مركب أو ركن فعلي؛ "والرسم الشجري للجملة الذّي قدمه تشومسكي"[2] هو كالتالي:

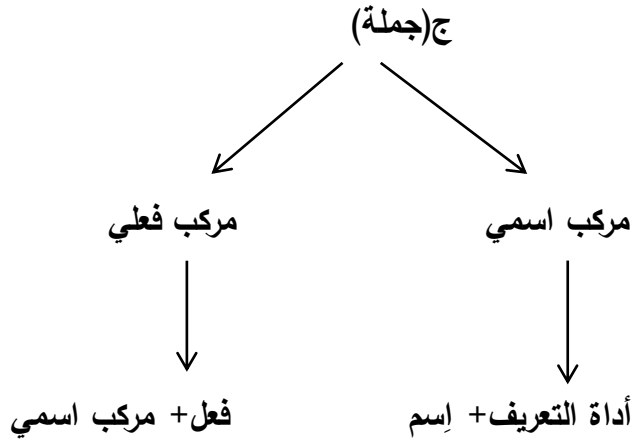

مثال ذلك قولنا: (لعب الطفل)، يمكن التعبير عنها حسب الرسم الشجري كالتالي:

[1] – حون ماهر وجودي جروفز، اللغة والسياسة "أقدم لك نعوم تشومسكي"، مرجع سابق، ص86.

[2]–Naom Chomsky, Language and Mind, Cambridge university press, New York, third edition, 2006, p 90.

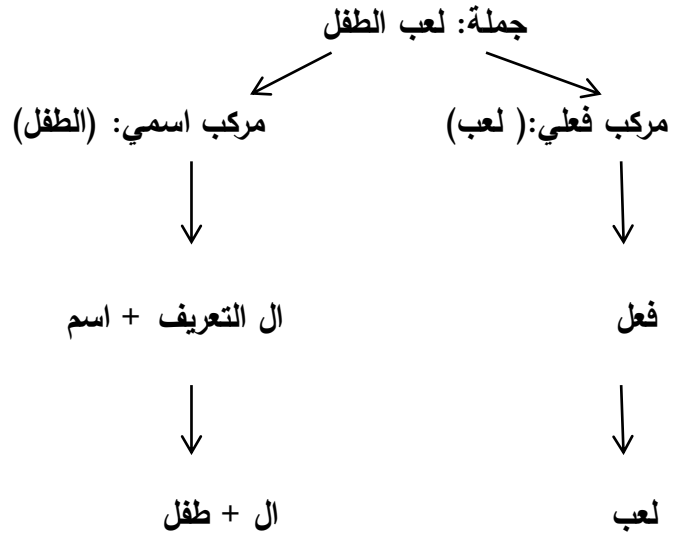

أمّا القواعد التحويلية* فهي "نظام يهتم بمسألة التحويل التّي بواسطتها يمكن تحويل جملة إلى جملة أخرى متشابهة معها في المعنى ومختلفة في الصياغة اللغوية الظاهرة. يتم التركيز في هذه العملية على العلاقات والإجراءات الفاعلة التّي بفضلها يظهر هذا الاختلاف على مستوى البنية السطحية مع التطابق في البنية العميقة. ويكون هذا بالاعتماد على مجموعة من القواعد التّي تقع تحت هذه العملية وهي: قاعدة الحذف، التعويض، التوسيع، الاختصار، الزيادة، إعادة الترتيب، التقديم. وتتم عملية تحويل الجمل بواسطة أسلوبين هما: قواعد جوازية اختيارية وقواعد وجوبية"[1].

تتجلى أهمية هذه القواعد في أنّها تمتلك قدرة خاصة بها وهي تلك القدرة المسؤولة عن تفريع وتقسيم الجمل من خلال مجموعة من الإجراءات القواعدية التّي تُساعد في تفسير الجملة وترتيبها وتحديد عددها، ومن هذا جاء تقسيم تشومسكي للجملة إلى نوعين جملة نواة أساسية وأخرى فرعية مشتقة. تبدأ عملية التحويل من المستوى العميق للجملة أي البنية العميقة ليصل إلى المستوى السطحي، وتأخذ البنية العميقة الأولوية في بدايات تطور

*– طرح تشومسكي هذه القواعد _وأخرى هي القواعد التوليدية والقواعد الصرفية الصوتية_ في المرحلة الأولى من ظهور نظريته اللغوية وهي المرحلة النحوية، لكنه أهمل فيها المكون الدلالي فقد ركز على الجانب النحوي القواعدي فقط في مسألة التحويل من البنية العميقة إلى البنية السطحية، لكن استدرك هذا الأمر في مرحلته الثانية وهي مرحلة النموذج المعيار وجعل من المكون الدلالي بالإضافة إلى المكون التركيبي والمكون الصرفي الصوتي ركيزة في إنتاج الجمل. انظر؛ بريجيته بريشت، مناهج علم اللغة، مرجع سابق، ص277.

[1]– نعمان بوقرة، اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، إربد، ط 01، 2009، ص145، بتصرف.

النظرية التشومسكية لأنّها تُشكل لبِنَته الأساسية وقاعدته النموذجية؛ وهذا يعود إلى كونها تحتوي العناصر اللازمة لتأويل الجمل وطرحها في صورتها السطحية.

يكمن الدور الجوهري الذّي تؤديه القواعد التحويلية في كشف اللُبس وفك الغموض الذّي يُصاحب كثيرا من الجمل التّي تكون متماثلة في البنية العميقة ومع ذلك تبدو مختلفة سطحيا، كقولنا:

_قام أمجد بزيارة أقاربه في أيام العطلة الشتوية.

_زار أمجد أقاربه أثناء عطلة الشتاء.

_في العطلة الشتوية ذهب أمجد لزيارة أقاربه.

إذا نظرنا إلى هذه الجمل من حيث بنيتها السطحية فإننا سنجدها مختلفة؛ في حين أنّها متماثلة في بنيتها العميقة، وإنّ تغير وتحول الصياغة السطحية للتعبير اللغوي فإنّ ذلك لا يعني التبديل في جانبها الدلالي ويمكن فهم عملية التحويل في الشكل التالي[1]:

والتحويل في التصور التشومسكي فإنّه يعني <<أنّ أساس النشاط اللغوي هو الفرق الحاصل بين نظامين أو مستويين من المعلومات والإجراءات، الأمر الذّي يجعل هذا النشاط عبارة عن ترجمة، عبر قواعد وآليات تحويلية، تشتغل بين الكلي والخاص أو بين الثابت والمتغير أو بين الكامن والظاهر>>[2]، وإنّ هذه الآليات التحويلية تعمل بين البنية العميقة والبنية السطحية وتتسم بأنّها ذهنية خالصة. ويرى تشومسكي أنّ نظرية البنية العميقة

[1] – نعوم تشومسكي، البنى النحوية، مرجع سابق، ص51.

[2] – علي حرب، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي، مرجع سابق، ص 107.

والسطحية، كما <<تطورت في دراسات بور رويال اللّسانية، تحوي ضمنيا أجهزة تكرارية وتوفر بذلك الوسائل المتناهية التّي في حوزتها للاستعمال اللامتناهي>>[1]، وهذا ما قد يفسر لنا خاصية الإبداع اللغوي التّي تتميز بها اللغة الإنسانية. ويظهر لنا تأثره بعلم المنطق كثيرا والرياضيات في استخدامه لطريقة الترميز للجمل والمفردات والمفاهيم، فنجده يرمز للغة بحرف اللام (ل)، وللنحو الكلي ب(ن ك)، وللجملة ب (ج)، ناهيك عن الاسم (م س) والفعل (م ف)*، وغيرها ما يدل على محاولته الشديدة لتقريب علم اللغة إلى ميادين العلوم الطبيعية والرياضية والفيزيائية.

2/-النحو الكلي من منظور تشومسكي:

يعتبر مفهوم النحو أحد المفاهيم العريقة في علم اللغة واللسانيات، وقد وُضعت له تعاريف ومفاهيم عديدة، تتقارب أحيانا وتختلف أحيانا أخرى، إلاّ أنّ المتعارف عليه هو أنّه <<فن التكلم الصحيح>>[2]، أي التكلم وفق قواعد اللغة التّي تجعل من هذا الكلام صحيحا ومتوازنا نحويا، وبهذا يكون منظومة من القواعد الحسنة والصحيحة في أي لغة من اللغات من أجل تقديم الكلام بصيغة سليمة، ويشمل هذا النظام القواعد الصوتية الصرفية؛ الدلالية؛ والتركيبية؛ ويهتم بالصيغ اللغوية الخاضعة للقواعد النحوية؛ ومن التعريفات التّي قدمها تشومسكي للنحو هو: <<أنّه وصف للقدرة الفطرية للمتكلم/المستمع المثالي>>[3]، فهو قدرة ذهنية وجزء من التصميم الجيني الموروث للمتكلم، وإنّ العمل على فهمها يحتاج إلى وصف وفهم الآليات التّي تتداخل فيها.

---

[1]- نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مرجع سابق، ص170.

*- يرمز تشومسكي للغة (L) والنحو الكلي (U G)، ولجملة (S) ، وللمركب الإسمي ()، والمركب الفعلي ()

[2]- لالاند، الموسوعة الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، المجلد الأول، بيروت، ط 02، 2001، ص 470.

[3]- نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص77.

تهتم نظرية النحو الكلي التي قدمها تشومسكي بتحديد السّمات العامة للمَلَكة اللغوية الموروثة، فهي تُعنى بالبحث في البنية الداخلية العامة للغة الإنسانية من خلال الكشف عن المبادئ العامة والمشتركة بين اللغات المختلفة ووصفها ومحاولة تفسيرها؛ ولذلك يفهم النحو الكلي بأنّه نسق من القواعد الموجودة في ذهن المتكلم/المستمع وهو جزء من الملكة اللغوية البيولوجية الموروثة وهو <<الاسم المعطى لنظرية الحالة الأولى للملكة اللغوية>>[1]، التّي تعد واحدة من مكونات جهاز اكتساب اللغة العقلي. إنَّ أي محاولة كاملة لوصف المبادئ العامة للغة الطبيعية وتفسير كيفية عملها هو تعرف على البنية الداخلية للعقل/الدماغ؛ وتقصي لحقيقة هذه المبادئ المُشّكلة للنحو الكلي يثبت لنا أنّ وجود اللغات ملازم لوجود البشر، فمن الاستحالة أن تكون هنالك جماعة إنسانية تعيش في منطقة معينة من هذا العالم الذّي نعيش فيه لا يتكلم أفرادها لغة معينة مفهومة فيما بينهم، وينطبق هذا حتى على الشعوب والأمم التّي سبقتنا. بالإضافة إلى أنّ كل لغة من اللغات تتشكل من منظومة من الأصوات المتميزة والتّي تتوحد فيما بينها لتشكل تراكيب لغوية ذات معنى، ناهيك عن تشابه المقولات القواعدية (الاسم، الفعل، الجملة، الفاعل، المفعول) وتماثل الكليات الدلالية (التذكير، التأنيث، الجمع، المفرد).

يحاجج تشومسكي على عِلمية نظرية النحو الكلي، ويستند في تأكيده هذا على فَرضِ الموروث الجيني الذّي يبرره بالسهولة والسلاسة التّي يتعلم بها الأطفال في كل المجتمعات والشعوب لغتهم الأم، وحتى إن تم تنشئتهم في بيئات مختلفة فإنّهم سيتكلمون لغة من لغات تِلك البيئات؛ إنّهم ببساطة يملكون قابلية ذهنية فطرية لتعلم أي لغة يتكلم بها أفراد بيئتهم بصورة متقاربة معهم؛ وهذا ما يميز النحو الكلي فهو << مصمم بحيث إذا ما توفرت الشواهد الملائمة نشأت لغة واحدة فقط من بين اللغات الممكنة، وهذه اللغة تحقُقٌ محددٌ لمبادئ الحالة الأولية مع اختيارات معينة استقر عليها بطريقة أو بأخرى بمعونة الأدلة

[1] – نعوم تشومسكي، بنيان اللغة، مصدر سابق، ص82.

الحاضرة>>[1]. إنّ الأطفال والبشر عموما _باستثناء علماء اللسانيات والنحو_ لا يعرفون أنّهم يمتلكون نظاما من القواعد يُمَكِّنهم من إنتاج هذه التعابير اللغوية الكثيرة واللامتناهية، ويلعب هذا نظام دورا مهما في معرفة كيفية بناء التراكيب اللغوية وإنتاجها وتكوينها، وكذلك الكشف عن العِّلة وراء صحة الجمل وخطئها من جانبها النحوي أو مقبوليتها؛ في نظر تشومسكي إنّ هذه المعرفة اللاواعية هي بمثابة حدس يمتلكه المتكلم/ المستمع يُمكنه من إنتاج جمل مقبولة وأخرى نحوية والتعرف على غير النحوية.

يعد حدس المتكلم/المستمع في النظرية اللغوية التشومسكية أحد تجليات تبنيه للفكر العقلاني الديكارتي*؛ فهو يرى أنّ كل متكلم للغة من اللغات الموجودة في العالم، يمتلك نظاما من القواعد يُمكنه من تكوين وإنتاج عدد محدود أو لا محدود من الجمل والتعابير اللفظية الصحيحة نحويا ولا شيء غيرها، أي أنّ نظام النحو هذا لا ينتج جملا لا نحوية، وهذا يعود لامتلاك المتكلم قدرة ذهنية بيولوجية تدخل هي الأخرى في تصميمنا الجيني، إنّها تختلف عن عمل عالم النحو واللغويات فهي هبة لا يتم تعلمها ولا دراستها؛ إنّما هي فطرية في ذهن كل متكلم لأي لغة. إنّ الحدس اللغوي هو تمظهر من التمظهرات العقلية التّي بها يدرك الفرد المتكلم نحوية التراكيب اللغوية ويتمثل دوره الجوهري في التمييز بين ما هو نحوي وغير نحوي وما هو مقبول لفظيا من تلك التراكيب والصيغ اللغوية والكلامية؛ كقولنا:

أ_ صعد الولد فوق الشجرة(جملة صحيحة نحويا)

ب_ فوق صعد شجرة الولد ال (جملة غير نحوية)

[1]– نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص170.

*– تقوم الرؤية الديكارتية للحدس بأنّه ذلك التصور الذّي يقوم في ذهن خالص منتبه، بدرجة من السهولة والتمييز لا يبقى معها مجال للريب، أي هو التصور الذهني الذّي يصدر عن نور العقل وحده، وبهذا فهو نشاط عقلي وحقيقة من حقائق الذهن يدرك به الفرد حدثا من الأحداث. انظر؛ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 01، مرجع سابق، ص452.

إضافة إلى وظائف أخرى يقوم بها الحدس؛ أهمها تصنيف وترتيب هذه الصيغ من حيث كونها ذات مستوى نحوي جيد وأخرى أقل فأقل إلى غاية غير الصحيحة نحويا، إنّه ترتيب سُلمي للجمل. ولهذا يعد الهدف الرئيسي للنحو الكلي في نظر تشومسكي تقديم صورة واضحة ودقيقة لحدس المتكلم، إنّه تصوير لتلك <<المعرفة التّي تجعل كل فرد متكلم/مستمع قادرا على إنتاج الجمل وتأويلها من جهة، وعلى التمييز بين ما ينتمي للغة المدروسة من جمل وما لا ينتمي إليها>>[1]، وفي هذا الإطار يفرق بين نوعين من المفاهيم المرتبطة بالحدس وهما نحوية الجمل ومقبوليتها. نحوية الجملة يُقصد بها مراعاة نظام القواعد وترتيب الملفوظات وأركانها في صياغة وتركيب الجملة بغض النظر عن جانبها الدلالي، فهي <<مفهوم تقني إجرائي وليس حكما قيميا لما يصدر عن المتكلم>>[2]، ويختص إجراء النحوية بتحليل المتن اللغوي المكتوب بدرجة أكبر من الشفوي. أمّا المقبولية؛ ويقصد بها أنّ العبارة لا يتم تعريضها لتحليل قواعدي بُغية فهمها أو معرفة تركيبها النحوي؛ لأنّها تكون مقبولة ومفهومة من خلال السياق الكلامي وهي ترتبط أكثر بالأقوال الشفهية. وتعد هذه خاصية جوهرية وإحدى ميزات اللغة البشرية الطبيعية والاستعمال اللغوي العادي اليومي.

تسعى نظرية النحو الكلي لفهم خصائص المبادئ العامة والكلية للغات الإنسانية وكيفية عملها، وليست مجرد تجسيد لهذه المبادئ؛ ومن خلال فهمنا وتحديدنا لها يفهم خصائص نحو كل لغة على حدة، هو إذن <<دراسة استعمال آليات اللغة عند البشر بصفة عامة، وفي الوقت نفسه، وضع أجزاء من الأنحاء الخاصة مع ما يتطلبه هذا العمل من تلازم بين المنظورين>>[3]، وبهذا المعنى فإنّ النحو الكلي هو محاولة للوصول إلى <<خصائص اللغة الضرورية منطقيا ونظريا من جهة المفهوم، وهي الخصائص التّي إذا غابت عن نظام ما لا يمكن أن نسميه لغة مثل خاصية وجود جمل وكلمات. إنّ دراسة

[1] – مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مرجع سابق، ص32.

[2] – المرجع نفسه، 37.

[3] – المرجع نفسه، ص300.

السمات الضرورية بيولوجيا جزء من العلوم الطبيعية؛ لأنّ اهتمامها هو تحديد جانب واحد من علم الجينات البشري، هو تحديدا طبيعة القدرة اللغوية>>[1].

يُطلق تشومسكي على مجموع الخصائص الأساسية التّي تدخل في تصميم اللغات الإنسانية لفظ الكليات اللغوية وهي <<المواد اللغوية والخصائص الشكلية المشتركة بين اللغات البشرية مهما بدت لنا هذه اللغات متباعدة ومختلفة في بنيتها السطحية>>[2] وهي فطرية متضمَّنة في عقول/أدمغة البشر وهي مكون رئيسي من مكونات النحو الكلي، وموجودة بصورة ثابتة ومشتركة في معظم اللغات الإنسانية إن لم نقل كلها باستثناء قلة قليلة. تشمل هذه الكليات الأنماط اللغوية النحوية والدلالية والتركيبية وحتى الصرفية والصوتية؛ ومن بين هذه الأنماط اللغوية والخصائص الكلية هي أنّ <<الترتيب العام بين مكونات الجملة في أغلب اللغات يكون إمّا (فاعل، وفعل، ومفعول به)؛ أو(فاعل، مفعول به، وفعل)، وهناك لغات قليلة جدا يكون فيها الترتيب (فعل، فاعل، ومفعول به) في حين أنّ هناك شبه إجماع على استحالة وجود ترتيب بصيغة (مفعول به، فاعل، وفعل)، وهناك نمط أخر وهو استحالة أن تكون صيغة الاستفهام في أي لغة عكس الترتيب الأساسي للكلمات في الجملة>>[3].

يقوم ادعاء تشومسكي على أنّ اللغة البشرية هي لغة واحدة بالرغم من الاختلافات السطحية الثانوية الظاهرة عليها، وهذه الكليات اللغوية ما هي إلاّ مظهر من مظاهر كلية اللغة الإنسانية، وبالإضافة إلى ترتيب الكلمات في الجملة هنالك خصائص كلية كثيرة موجودة في اللغات من بينها أنّ <<معظم اللغات تستطيع أن تؤدي المعاني المجردة والبعيدة في الزمان والمكان عن المتكلم، وتعد الأشكال اللغوية غير نهائية في عددها، وذلك لأنّها صيغت باستعمال نظام تأليفي متمايز، ويبرهن البحث في اللغات كلها

[1] – هناء صبري، فلسفة اللغة عند نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص230.

[2] – مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مرجع سابق، ص08.

[3] – ستيفن بنكر، الغريزة اللغوية "كيف يبدع العقل اللغة"، تر: حمزة بن قبلان المزيني، الرياض، د ط، 2000م، ص ص300، 301.

على وجود ثنائية في التنميط حيث يستعمل نظام القواعد من أجل ترتيب الصوتيات في داخل الصرفيات بشكل مستقل عن المعنى، ونظام آخر لكي يرتب الصرفيات في داخل الكلمات والمركبات، محددا معانيها...وإنّ الآلية النحوية التّي تستعمل في اللغات كلها هي نفسها تقريبا>>[1]؛ إضافة إلى أنّ كل اللغات تحتوي على كم هائل من الألفاظ، وتصنف هذه الألفاظ ضمن مقولات الاسم والفعل، الصفة والخبر، الجملة، وغيرها من أجزاء الكَلِم.

تقر لنا اللّسانيات التشومسكية أنّ الكليات اللغوية* في النحو الكلي بمثابة مخطط نموذجي للصفات الرئيسية التّي تمتاز بها اللغة الإنسانية؛ والتّي من الاستحالة وجودها عند صنف آخر من نظم اتصال الكائنات الأخرى، إنّ الأمر شبيه بوجود مخطط الصفات النوعية التّي توجد في صنف حيواني دون صنف آخر. ويمكن تلخيص أهم المبادئ العامة للنحو الكلي التّي تضمنتها مقاربة المبادئ والوسائط** التشومسكية في:

-مبدأ الإسقاط والمقولات الفارغة: ينص هذا المبدأ على أنّ <<البنى المعجمية يجب أن تمثل مقوليا Categorially في كل مستوى تركيبي. هذا المبدأ من المبادئ التّي تسهم

---

[1]- المرجع السابق، ص304

*- هناك الكثير من أمثال تشومسكي ممن يقرون بوجود هذه الكليات اللغوية، فقد قام عالم اللسانيات جرينبرغ في عام 1963م بالبحث في هذه الفرضية، فأخذ عينات من ثلاثين لغة من لغات العالم متباعدة جدا؛ من القارات الخمس (كالصربية والإيطالية، النوبية، السواحلية، الفنلندية، التركية، العبرية، الهندية، اليابانية، الملاوية، المايا، وغيرها) فوجد في دراسته الأولى، التّي اقتصرت على دراسة ظاهرة ترتيب الكلمات والصرفيات، أنّ هناك ما لا يقل عن خمس وأربعين خِصِّيصَةً كلية، وأجريت بعدها أبحاث كثيرة شملت العديد من اللغات ووُجدت مئات من الأنماط والخصائص الكلية اللغوية. أُنظر؛ المرجع نفسه، ص300.

**- ابتدأت هذه المقاربة مع بداية ثمانينات القرن العشرين (1981م)؛ وتمثل تحولا ومنعطفا في تاريخ النحو التوليدي التحويلي، يُصنفها البعض كمرحلة أولى من نظرية البرنامج الأدنوي، في حين يرى آخرون أنّها مرحلة مستقلة بذاتها، إذ تميزت بجملة من الخصائص والمميزات التّي جعلت من ملامح هذه النظرية ترقى إلى مستويات أكثر وضوحا؛ قدم فيها تشومسكي مجموعة من المبادئ العامة والفرعية لنظريته الخاصة بالنحو الكلي، وهذا استنادا إلى دراسته المعمقة للغة الإنجليزية. تهتم هذه المقاربة بالإجابة عن اثنين من الأسئلة هما: الأول: ما هو نسق المعرفة اللغوي الموجود في ذهن أي متكلم؟؛ ويهتم هذا السؤال بنظرية اللغة أي النحو الخاص؛ والثاني: كيف يكتسب الأفراد اللغة؟ ويرتبط هذا السؤال بحل مشكلة أفلاطون. أُنظر، نعوم تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، مصدر سابق، ص14.

في الاستغناء عن قواعد البنية المركبية، كلية _فيما عدا بعض الخصوصيات المتعلقة بكل لغة على حدة_ إذا ما كانت التكملات والظروف adjuncts المتنوعة تحدد أيضا عن طريق المبادئ العامة بمجرد تعيين الباراميترات كباراميتر الصدر أولا، أو الصدر آخر>>[1]، وتكمن أهمية مبدأ الإسقاط في عملية اشتقاق الجمل والعبارات في أنّه يُساهم في المحافظة على خواص الوحدات المعجمية داخل أي صيغة أو تركيب لغوي، وهو أحد المبادئ التّي قدمها تشومسكي من أجل تقليل اللجوء إلى القواعد الكثيرة التّي بها نظام النحو المقدم في المراحل والنماذج الأولى، إنهّ نوع من عملية تبسيط القواعد إلى أدنى حد، إضافة إلى القواعد والمبادئ اللاحقة.

-قاعدة انقل ألفا move-a: تم التوصل إلى هذه القاعدة بعد مجموعة الإجراءات التعديلية التّي أدخلها تشومسكي على المكون التحويلي منذ 1965م، وهذا من أجل ضبط آليات اشتغاله من خلال تصنيف التحويلات ووضع مجموعة من القيود عليها، وتم جمع هذه القواعد وتبسيطها في قاعدة تحويلية واحدة تشترك فيها جميع اللغات وتسمى بقاعدة أنقل ألفا move- aحيث إنّ A- أ عبارة عن مقولة اعتباطية الحالة[2].

-التبعية البنيوية: يقوم هذا المبدأ على أنّ <<المعرفة اللغوية تعتمد على علاقات بنيوية في الجملة أكثر من اعتمادها على ترتيب الكلمات وتسلسلها، ومن أجل هذا يتوجب أن نرسخ مفهوم بنية العبارة، ذلك أنّ الفرضية اللسانية منذ 1930م بنيت على أساس هو أنّ الجملة تتكون مجموعة من كلمات لبناء عبارات معينة>>[3]، ولقد حاول تشومسكي أن يشرح هذا المبدأ من خلال مثال عالِم كوكب المريخ، حيث توصل للنتيجة أنّ أدمغة البشر منظمة

[1]- نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص170.

[2]- مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مرجع سابق، ص ص308،307.

[3]- أسماء بن منصور، النحو الكلي بين اكتساب اللغة وتفسيرها، مرجع سابق، ص233.

على شكل قوالب شبه مستقلة عن بعضها بعض، إلاّ أنّها تعمل بشكل متناسق مترابط. أحد هذه القوالب يختص بالملكة اللغوية>>[1].

-نظرية الثيتا(Theta theory): تسمى بنظرية "الأدوار المحورية وتقوم على فهم وتحديد المهام الدلالية الخاصة التّي يمكن أن يأخذها موضوع ما بالاستناد إلى محمول معين، ويرتبط تعيين هذه الوظائف تبعا لخاصيتين لغويتين هما خاصية اللزوم وخاصية التعدية. وتعتمد هذه النظرية على إسناد الأدوار المحورية الاسمية...حسب حاجيات المحمول من أدوار وما يلزمه من موضوعات تبعا لخاصية اللزوم أو التعدية التّي يتسم بها...ويمكن التفريق بين موقعين يمكن أن تظهر فيهما المركبات الاسمية: موقع الموضوع، مواقع لا-موضوع، وتتضمن هذه النظرية مبدأ المقياس المحوري الذّي يضبط آلية الاسناد"[2].

-نظرية الحالة(Case theory): ظهرت هذه النظرية تبعا "لنشأة الأفكار المتعلقة بدراسة جمل المصادر المؤولة (infinitival clauses) ذوات الفاعل. وتتلخص في أنّه بإمكان جملة المصدر المؤول أن تظهر بعد حرف الجر أو الفعل، ولكن ليس بإمكانها أن تظهر بعد الاسم أو الصفة..؛ تعالج هذه النظرية السؤال المتعلق بالكيفية التّي تُحَدَد بها "الحالة" وتعتمد الإجابة هذا السؤال على قرارات حاسمة تخص الأنظمة الفرعية الأخرى للنحو الكلي"[3*]، بمعنى أنّ حروف النصب مثلا تحدد حالة النصب كقولنا: (إنّ المطر غزيرٌ) دراستنا لهذه الجملة هي دراسة حالة النصب، وكذا حروف الجزم تحدد حالة الجزم وحروف الجر تحدد حالة الجر.

أمّا الوسائط والمبادئ الفرعية للنحو الكلي فهي كالتالي:

---

[1]- نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص87.

[2]- مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مرجع سابق، ص320

[3]- نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها، أصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص ص240، 243.

*- لا تتُطبق هذه النظرية في اللغة العربية خلافا للإنجليزية، فإنّ ما يمكن أن يدخل على المصادر الصريحة أو المؤولة وبخصوص مواقعها، كلها صحيحة، وذلك لجواز أن تشتغل المصادر محمولة للأفعال أو الصفات، أو الأسماء أو الحروف الجر، وهلم جرا. أُنظر، المصدر نفسه، عن المترجم، ص241.

– نظرية العامل والإحكام الربطي: في كل لغة من الإنسانية توجد الكثير من الوحدات اللغوية التّي تكون عبارة عن مقولات فارغة لا يمكن فهمها ولا تأويلها إلاّ من خلال ربطها بوحدات، وعناصر لغوية أخرى تسبقها ليُفهم معناها وسياق التعبير اللغوي؛ وهكذا يتم بناء التركيب القواعدي بصورة سليمة كالمضمرات والعائدات، والعبارات المُحيلة(أسماء الأعلام) والعناصر الفارغة، وينحصر الدور الرئيسي لهذا المبدأ اللغوي في <<الإحالة المشتركة لتعبيرين اثنين وطبيعة السياق النحوي الذّي يحكم هذا الاشتراك في الإحالة، إذ قد يشترك تعبيران اثنان في الإحالة إلى شيء معين>>[1].

– نظرية X–bar: تُعنى هذه النظرية بمحاولة "تجسيد الخصائص العامة لبنى العبارات جميعها وليس توصيف بنية عبارة بعينها في هذه اللغة أو تلك. وتقوم باستخدام مبادئ عامة تؤلف جزءا من القواعد الكلية، وتقضي هذه النظرية بأنّ هناك أربعة فصائل معجمية رئيسة هي: الاسم والفعل، الصفة وحرف الجر ترأس العبارات المعجمية وهي (ع أ)، و(ع ف)، و(ع ص) و(ع ج) "[2].

– وسيط إسقاط الضم: "ظاهرة تركيبية مفادها أن موقع الفاعل في بعض اللغات لا يشغله أحيانا عنصر محقق صوتي، ويثبت هذا الوسيط في بعض اللغات إيجابا وفي لغات أخرى يثبت سلبا، ويُسمى باسم وسيط الفاعل الفارغ"[3].

إنّ تأثر اللسانيات التشومسكية بالنظرية النحوية لمدرسة بور–رويال يظهر جليا في الكثير من المواضع في النظرية التحويلية التوليدية وخاصة في جانبها المرتبط بمبدأ الحكم المنطقي ونظرية النحو الكلي ومبادئها، غير أنّ النحو التشومسكي يتميز <<بالصورنة والتعبير الواضح عن القواعد والمبادئ و 'مستويات' الحوسبة والعلائق بين المستويات

[1] – مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مرجع سابق، ص323.

[2] – مرتضى الجواد باقر، مقدمة في نظرية القواعد التوليدية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 01، 2002، ص ص 98، 99.

[3] – مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مرجع سابق، 495.

والعناصر... الطريقة الوحيدة الكافية لوصف لغة تتمثل في بناء نظرية صورية (نحو) لها، تُبين بلغة صورية واضحة ماهي مبادئ وقواعد اللغة. في حين؛ لم يحاول نحاة بور رويال القيام بذلك، كانت جهودهم تفتقر إلى الدقة الكافية...لذا ينبغي أن نقول بوضوح ماهي القواعد المركَّبِية والتحويلية للغة معينة>>[1].

[1] – نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص57.

المبحث الثاني:

فيلهلم فون همبولت وتوليدية اللغة عند تشومسكي

أولا: التأسيس الفلسفي للغة عند همبولت

1/-همبولت والنقدية الكانطية:

تشكل فلسفة عصر الأنوار المحطة العقلانية والإطار الذهني للتكوين الفلسفي الأول الذّي انطلق منه همبولت للبحث والتنظير لفكره اللغوي ودراساته الأنثروبولوجية؛ وقد كان تكوينه هذا مستلهما من النزعة الإنسانية بتوجيه من أساتذته ومعلميه خاصة أستاذه جاكوب إنجل؛ وباعتراف منه فقد كان حتى عقده الثالث من العمر متأثرا ومتمسكا أيم تمسك بتعاليم عصر الأنوار وفلسفته، غير أنّه وبعد عام 1788م تغيرت نظرته لتلك التعاليم الأنوارية؛ فتنوعت أساليب تعامله معها بين الإبقاء والاحتفاظ ببعض منها ونفي ورفض البعض الآخر*.

كانت العقلانية الأنوارية بالنسبة لهمبولت مرادفة "لفلسفة كريستيان وولف التّي كان يرى فيها مجرد منهج منطقي صوري يحلل ويقارن التصورات العامة، ويتمسك بالكشف عن العلاقات، ويزعم استنتاج وجود الأشياء من بناءات قياسية خادعة وهو عاجز عن فحصها في ذاتها، ولكن هذا الأمر هو مخالف ومشوه للحقيقة وقريب جدا إلى الرؤية الفلسفية القائمة على أنّ الكون فضاء مبني على نظام التصادم بين القوى والأجسام، إضافة إلى أنّ اتباع هذا المنهج الصوري المجرد يعيق العلوم على إدراك حقائق الأشياء. ولهذا فإنّ أول ما قام به همبولت بعد تحرره من الفكر الأنواري هو البتُّ في مسألة تأثير الجسم على

---

*- كان فكر الفيلسوف الألماني فيلهلم فون همبولت(1767-1835م)؛ بالفرنسية:(Guillaume de HAMBOLDT) في مراحله الأولى يتحرك في حدود تعاليم فلسفة الأنوار، فقد تحصل على يد أستاذه جاكوب إنجل على تكوين فلسفي تَرَّكز على الدراسات في علم المنطق والأخلاق والميتافيزيقا والايستطيقا، وقد مكنه هذا من التعرف على فلسفة كريستيان وولف وليبنتس؛ غير أنّ تأثره بهذه الفلسفة الأنوارية قلَّ بعد ذلك؛ وسعى لرفض ودحض بعض تلك التعاليم التّي رأى أنّها بعيدة تماما عن سبيل العقل والحكمة، خاصة أراء وأفكار الشكاك والإشراقيين. انظر؛ مصطفى بلبولة، اللغة والأمة "مقاربة لفلسفة همبولت"، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الفلسفة، جامعة وهران، الجزائر، 2013/2012م، ص56.

الروح، ليبرز للحياة الحِّسية أهميتها بالنسبة إلى الحياة النفسية"[1]، مُخالفًا الرؤية الديكارتية التّي تعطي الأهمية والأولوية للحياة النفسية بعيدا عن القوة الجسمية المبنية على قانون التماس ونظام التصادم الكوني.

رغم الرفض الذّي أبداه اتجاه فلسفة الأنوار العقلانية خاصة تلك المتعلقة بآراء فلسفة وولف وليبنتس إلاّ أنّ رفضه لم يكن قطعيا بخصوص أهمية العقل الإنساني ودوره الفاعل؛ غير أنّ رؤيته له كانت مخالفة نوعا ما للقداسة التّي كان يمنحها له فلاسفة الفكر الأنواري، وإنّما أخذت نظرته بُعدا فلسفيا كانطيا؛ خاصة وأنَّ كانط يعتبر إحدى أهم المرجعيات الفلسفية له. "تمحور انخراطه في الفكر الكانطي في عدم قبول أية معرفة للحقيقة إلاّ عن طريق العقل وأنّ الإنسان يجب أن يكون أساسا وهدفا لكل فلسفة؛ واعتبر همبولت أنّ جوهر الفلسفة الكانطية يتمثل في كونها فلسفة للإنسان بدرجة أولى لأنّها ألحقت بالفكر مهمته الحقيقية المتمثلة في بناء نسق كامل لنشاط الإنسان؛ ومع ذلك فإنّ غياب اللغة في الفكر الكانطي وحضورها في فلسفة همبولت شكل بعض اللُبس والغموض عند البعض"[2].

إنّ اشتغال همبولت على اللغة كظاهرة إنسانية ملازمة للكينونة البشرية التّي تُعد مشروطة ومقترنة بها لَدلِيل على مركزية الإنسان في المنظور الهمبولتي، ومع آرائه المتعلقة بعلاقة اللغة بالفكر والعالم أقر همبولت وِفق تصورٍ كانطي صَرْفْ؛ <<أنّ اللغة هي تركيب بين ذاتية الإنسان وموضوعية العالم وهي التّي تؤسس للعلاقة بينهما أي بين الفكر والعالم>>[3] وبهذا تكون اللغة ذلك النشاط الداخلي العقلي الذّي يتحد فيه الفكر والعالم، إنّها لحظة تتجلى فيها الذاتية الإنسانية الفكرية مع الموضوعية الخارجية ، وهكذا تكون تمظهرا للفكر الإنساني وإمكانا لمعرفة العالم؛ <<ويؤكد أرنست كاسيرر...على أنّ همبولت بارتكازه على التحليل النقدي لملَكَة المعرفة، كان يبحث عن النقطة التّي تتزاوج فيها الذاتية مع

[1] – المرجع نفسه، ص ص59، 60.

[2] – المرجع السابق، ص ص61، 63.

[3] – المرجع نفسه، ص94.

الموضوعية ليزول ذلك التعارض بينهما ويتَّحدان في مركب واحد، ذلك المركب الذّي تتحقق فيه أيضا الوحدة بين الفردية والكونية، وينعكس فيه ذلك الاتحاد الأصلي بين الإنسان والعالم>>[1].

يعد مفهوم الصورة الداخلية للغة واحدا من المفاهيم الارتكازية في المنظور اللغوي الهمبولتي، ومع أنّ هذا المفهوم لم يكن من ابتكار همبولت بل كان متداولا في عصره*، إلاّ أنّه قد أضفى عليه فلسفته الخاصة ما جعل منه مفهوما ملازما للمنظور اللساني الهمبولتي. فاللغة في نظره تتألف من ثنائية هي صورة داخلية وشكل خارجي، تقابل الصورة الداخلية اللغوية[=الشكل الداخلي للغة، أو الحس اللغوي الداخلي] الشكل الخارجي أو المادة ويمثله الصوت، وبهذا فهو <<يقترب من المفهوم الكانطي للصورة، والتّي تعني مبدأ المواضعة الملازم للمعرفة، من حيث إنّه تعبير عن علاقة، ومن حيث إن معرفة أي ظاهرة ترتد إلى علاقات زمكانية. فوحدة الموضوع تتأسس على وحدة الصورة. إنّ إدخال المتنوع والمتعدد ضمن علاقات لا يمكن أن يكون أبدا من عمل الحواس، بل نِتاج لفاعلية الخيال، وبالتالي فإنّ مصدر العملية هو الذَات المُفكرة لا الموضوع. ويرتكز كانط في هذا الدور الذّي يؤديه الحُكم باعتباره وِحدة تعكسها وِحدة الجملة. ويبدو من هذا أنّ كانط يعطي أولوية للصورة على المادة، وهو الأمر نفسه عند همبولت الذّي يُعمم مفهوم الصُورة على اللغة بكاملها فداخل الثنائية صورة/مادة، يكون الطرف الأول هو الذّي يميز اللغة>>[2].

---

[1] – المرجع السابق، ص96.

* – كان مفهوم الصورة الداخلية مستعملا ومتداولا عند هردر وغوته، ولكنهما كان يعنيان به مفهوما مقابلا لمفهوم الصورة الخارجية للعمل الأدبي والشعري (الصورة الداخلية/الصورة الخارجية)، وهو مفهوم آخر مغاير للذّي كان يستعمله همبولت (الصورة الداخلية/المادة). انظر، المرجع نفسه، ص104.

[2] – المرجع نفسه، ص ص104، 105.

2/- همبولت والتقليد اللغوي الديكارتي:

في نظر همبولت لا تُفهم اللغة إلاّ بكونها ظاهرة إنسانية فريدة من نوعها، وعِّلة هذا؛ هو تلازمها بالعقل الإنساني فهو بوصفها نشاطا عقليا وديناميكية متدفقة أقر بأنّها مَلَكة مُتأصلة في الطبيعة البشرية ومقرونة بها، وهكذا يكون همبولت قد عَبَّر عن هذه الفكرة ضمن تصور ديكارتي محض؛ وهو التصور القائم على أنّ اللغة خاصية إنسانية بحتة وعلامة فارقة للإنسان مميزة له عن باقي الكائنات الأخرى، وما تميزها هذا ليس إلاّ نتيجة حتمية لارتباطها بالعقل الإنساني وما انعدامها إلا مظهر من مظاهر الافتقار إلى العقل والتفكير، فالفارق الجوهري والحد الفاصل بين الإنسان والحيوان هو اللغة؛ وأمّا نظم الاتصال المكونة من الإشارات والأصوات والحركات التّي نراها عند الحيوانات، فلا تعدو أن تكون استجابات وردود أفعال آنية لمثيرات، <<ولا يبتعد همبولت كثيرا عن هذا التصور، حيث يذهب إلى أنّ للحيوانات تلك الخاصية التّي تجعل منها غير قادرة على نقل الصوت من مستواه الحيواني إلى الصوت المُتَمَفصِّل، ولو أعطيت لها هذه القدرة لكانت من نوع الطبيعة الإنسانية>>[1].

يتابع همبولت تبنيه للرأي الديكارتي _بشكل غير معلن عنه_ بأنّ العلامة الفارقة بين الإنسان والكائنات الأخرى هي أنّه كائن مفكر وصاحب لغة؛ وتتبين هذه العلامة في أنّ اللغة مرتبطة بفهم الإنسان لنفسه وإدراكه للأشياء داخل عقله أولا؛ أي أنّ اللغة وسيلة لكشف الذات لذاتها أولا ثم تصبح أداة مُعالِجَة للمدركات الحسية الخارجية عنها ووسيلة لفهم وإدراك هذا جميعا؛ فيكشف الإنسان عن ذاته لذاته عن طريق فهمه للأفكار التّي تدور في ذهنه وإدراكه للنشاط الداخلي له، ويتضمن هذا النشاط مشاعره وعواطفه وانفعالاته الباطنية التّي لا يتسنى لأحد أن يعرفها قبل أن يُصرح بها هو بِكلامه، ويمتد الأمر إلى أن يكشف عن الأشياء الحسية والعوالم الخارجة عنه عن طريق الأصوات المنطوقة التّي يُنشئها أو التّي

[1]- المرجع السابق، ص100.

يسمعها وعن طريق هذه الأصوات يستطيع إدراك تلك الأشياء والعوالم ويركب التصورات في ذهنه ويفهمها؛ وتتم هذه العملية كلها أي معالجة وفهم الأشياء عن طريق اللغة بصورة غير واعية ولا مُفكر فيها إنّها تتم بطريقة داخلية، وعليه تُفهم اللغة عنده بأنها <<موهبة وضرب من الخصائص الفِطرية لعقل الإنسان ومقدرة داخلية>>[1] لا نظير لها عند الأنواع الحية الأخرى.

لم يقتصر تأثره بالفكر اللغوي الديكارتي في فرادة اللغة الإنسانية بل تعدى الأمر إلى المبدأ الخلاق الذّي أُسست له الفلسفة الديكارتية ومضمونه؛ يتمثل في أنّ اللغة التّي يستعملها البشر تتميز بخاصية إبداعية تُمكِّن المتكلم من تأليف وتأويل ما لا حصر له من المنطوقات، وكذلك يذهب همبولت في نفس المنحى حين يربط <<مفهوم الشكل الداخلي للغة بالطابع الإبداعي في استعمالها>>[2]، ويعتبر هذا الطابع مركزيا في الدرس اللغوي الهمبولتي، وما جعل همبولت يتميز عن بعض اللغويين في عصره وهو أنّه <<لم يقتصر على دراسة ظاهرة لغوية معينة بل حاول إقامة نظرية لغوية شاملة، لقد أدرك أنّ اللغة ملكة من عمل العقل، وهي فوق هذا قوة فعالة(Energeia) وليست مجرد حاصل (Ergon)، إذ لولاها لما كان هناك أي نوع من التفكير، وهذه القدرة الخلاقة هي التّي تجعل أعمال الإنسان تتميز بالذكاء والإبداع؛ وذلك عكس أعمال الحيوان التّي تتصف بالآلية، ولا تفوق مستوى تلبية الوظائف الغريزية>>[3].

[1]– عبد الرزاق دوراري، بعض الأسس المعرفية لنظرية تشومسكي "آراء كارل فيلهالم فون همبولت المؤسسة"، مجلة اللغة والأدب، العدد 16، ص192.

[2]– مصطفى بلبولة، اللغة والأمة "مقاربة في فلسفة همبولت"، مرجع سابق، ص86.

[3]– أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، ط 02، 2005، ص60

3/- هيردر والفكر الرومانسي:

كان فون همبولت ينتمي للتيار الرومانسي الذّي كانت اللغة واحدة من أهم الفضاءات التّي طالها فكر هذا التيار ومقولاته، "فحسب منظورهم هناك توازٍ بين العلاقة التّي تربط لغة الفرد بحياته العقلية الفردية وبين تلك التّي تربط لغة الأمة بحياتها العقلية؛ وهذا هو مكمن التعارض بين هذا التصور والاتجاه المنطقي الذّي يرى تكافؤا بين اللغات الطبيعية في تعبيرها عن البنية المنطقية. فالرومانسية تعتبر اللغة إرثا حضاريا، وهي نتاج للعقل الموضوعي، أي العقل الجمعي، حيث إنّ التماثل في الأفكار والتصورات هو الذّي أفرز لغة مشتركة بين أفراد الأمة الواحدة، وتباين الإرث الحضاري المتجسد في العقل الجمعي، هو الذّي يؤدي إلى تباين اللغات"[1].

من أبرز ممثلي التيار الرومانسي والذّي كان له تأثير على المنظور اللغوي الهمبولتي هو هيردر الذّي كان يرى بأنّ اللغة الإنسانية هي في جوهرها ليست إلاّ عملية النمو وانتقال سُلَّمي من الأسفل إلى الأعلى أي من مراحل أولية إلى أخرى أكثر نضجا وتطورا؛ فاللغة مثل <<الطفل ليست سوى أصوات وحيدة المقاطع وحادة وفظة؛ فالأمة في بدايتها الأولى المتوحشة تركز مثل الطفل على كل الأشياء. فليس لكليهما إلاّ الإحساس بالذعر والخوف والإعجاب، وتتمثل لغة هذه الإحساسات في الصراخ والإيماءات>>[2]، إنّ الأمر يتشابه مع نمو النبات، وهذه الصيرورة تَمْتثِل لها كل اللغات الموجودة؛ فمن لغة فقيرة ومرحلة بِدائية إلى مرحلة ناضجة مكتملة عبر مراحل متدرجة أفقيا حتى تصبح لغة أكثر غنى وثراءً ودقة، وكلما كان فكر الأمة غنيا ومنظما كلما ظهر ذلك في تنظيم ودقة وازدهار لغتها.

في نظر هيردر هناك <<تناسب دقيق بين اللغة والفكر، إذ يعتقد أنّ أبعاد المعرفة تتطابق مع أبعاد اللغة، حيث إنّ هناك توازيا حقيقيا بينهما، وهو الأمر الذّي يجعلنا في

---

[1]- مصطفى بلبولة، اللغة والأمة "مقاربة في فلسفة همبولت"، مرجع سابق، ص26.

[2]- المرجع نفسه، ص26.

غالب الأحيان نفكر باللغة وفيها وحسبها>>[1]، وعليه تكون علاقة الفكر باللغة هي علاقة تلازمية فيكون تطور لغة شعب ما متلازما مع تطور فكرهم والعكس إذا كانت لغتهم فقيرة فإنّ هذا يعني فقر فكرهم، وبالتالي تكون اللغة في أحيان كثيرة دليلا وبرهانا على قوة فكر وشخصية شعب أو أمة ما، ومن خلال هذه الرؤية فإنّه <<من الممكن معرفة أنماط التفكير لدى مختلف الشعوب عن طريق الدراسة الصحيحة لمختلف لغاتها. ونلمس في مثل هذه الأفكار البعد المنهجي للغة بالنسبة إلى الأنثروبولوجيا، وهو الخط نفسه الذّي سيسير عليه همبولت فيما بعد>>[2].

إنّ التلازم الموجود بين الفكر واللغة عند هيردر يُثبت أنّ اللغة ظاهرة تختص بالإنسان دون غيره من الكائنات كالحيوانات مثلا، التّي على الرغم من وجود أنظمة تواصلية بينها والتّي تتشكل من الإشارات والإيماءات إلاّ أنّ المحرك الفعلي لهذا الأنظمة هي الغريزة التّي تكون ذات قوة كبيرة وفعالة، على عكس الإنسان الذّي تكون الغريزة عنده أقل قوة من الحيوانات، في حين هو يتفوق عليها بالعقل الذّي هو ملكة إنسانية خالصة ليس له مثيل عند كل الأنواع الحية المُنتِج للغة، وبهذا يربط هيردر بين <<الفضاء الحيواني وبين قوة الغريزة لدى الحيوانات من جهة، وبين هذا الفضاء وحاجتها إلى اللغة من جهة أخرى؛ فهناك تناسب عكسي بين قوة مَلَكة الإحساس والقدرات والغرائز، وشدتها لدى الحيوانات وبين اتساع مجال نشاطها وتنوعه>>[3].

[1] – المرجع السابق، ص26.

[2] – المرجع نفسه، ص26.

[3] – المرجع نفسه، ص27.

ثانيا: المنظور اللغوي الهمبولتي

1/- اللغة والتأسيس لمفهوم الصورة الداخلية:

يرى معظم المشتغلين بعلم اللغة أنّ موقف همبولت اللغوي يمكن فهمه أنّه <<من النوع الذّي يربط النتائج المحصلة من الحقل الجديد لعلم اللغة التاريخي والمقارن بالأفكار الفلسفية عن اللغة التّي تعكس ملامح القرن الثامن عشر وكذلك بفلسفة علم الأنثروبولوجيا التّي كانت جزءًا لا يتجزأ من الحركة الرومانسية الألمانية>>[1]؛ وعليه تعتبر اللغة عنده نشاطا ذهنيا توليديا يتميز بكونه دائما ومستمرا، فهو ديناميكية مستمرة موجودة بصورة فطرية في الذهن البشري؛ مهمتها الأساسية توليد وإنتاج الكلمات التّي تتجسد من خلال الأصوات المنطوقة المسموعة في تعابير لفظية مفهومة. بهذا يرى همبولت بأنّ اللغة ليست عملا جاهزا في الذهن إنّما هي نشاط وعمل في طور الإنجاز والاستعمال. فبملاحظة المخزون اللغوي البشري يُستنتج أنّ اللغة هي حالة من الصيرورة الدائمة وأنّها طاقة ذهنية متحركة تعمل كمولد للمنطوقات والتعبيرات اللفظية المعبرة عن كم هائل من الأفكار والتصورات حول العالم.

من هذا المنطلق الفلسفي الممتزج بالفكر الرومانسي أسس همبولت لطرحه اللغوي المرتبط برؤيته للإنسان والعالم ككل بواسطة اللغة، فثار ضد بعض الأفكار والآراء التّي لطالما تَثَّبتَت في الحقل اللساني، فكانت أول ثورته ضد الفكر المتبني والمدافع عن أنّ اللغة الإنسانية وُجِدت من أجل التواصل وأنّ الدافع الرئيسي من وراء استعمال الكلمات والجمل هو تحقيق وظيفة التبليغ والتواصل مع الآخر، فرأى في هذا انتقاصًا من قيمة اللغة وتقليلا من شأنها كونها تمثل امتيازا نوعيا، ومع ذلك فإنّه لم يرفض قطعيا التواصل كوظيفة تقوم بها الظاهرة اللغوية، فالتواصل في نظره مبدأ ضروري لارتقاء وازدهار الحياة الروحية والفكرية

[1]- روي هاريس وتولبت جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص226.

للإنسان، <<فعلى مستوى الحياة النباتية [=البيولوجية] المحضة التّي يعيشها الإنسان على سطح الأرض، فإنّ الحاجة هي التّي تدفع الفرد إلى الاتحاد مع الآخرين، وهو أمر يقتضي استعمال اللغة، ذلك الشرط الضروري لإنجاز أعمال مشتركة بفضل إمكانيات الفهم التّي تتيحها، ولكنها أيضا شرط للتطور الروحي [=الفكري] حتى بالنسبة إلى الحياة الداخلية المنطوية على ذاتها>>[1]، إنّ الأهمية الاجتماعية التّي تكتسيها اللغة بفضل التواصل والمتجسدة في إقامة الروابط وإمكانات التفاهم بين الأفراد وبناء العلاقات الاجتماعية أمر لا شك فيه؛ لكن أن يتم اختزال هذه الطاقة الهائلة [اللغة] في مجرد جانب الاجتماعي فهذا غير ممكن، لأنّ كونها طاقة داخلية فهي نابعة من داخل الإنسان وتمثل استجابة لأمر داخلي فردي أولا قبل أن تكون ضرورة اجتماعية خارجية؛ وبهذا التصور يعطي همبولت الأولوية للجانب الداخلي للغة باعتباره الجانب الجوهري وحجر الأساس لها، ويرى أنّ <<إنتاج اللغة يستجيب لحاجة داخلية للإنسانية، فهي أبعد من أن تختزل في مجرد حاجة خارجية موجهة إلى التواصل الاجتماعي، إنّها محايثة للطبيعة الإنسانية، وهي الشرط الضروري بإبراز القوى الروحية التّي تسكنها، والوصول إلى رؤية العالم>>[2]. إنّ كون اللغة ملكة متأصلة في الطبيعة الإنسانية يجعل من الكلام المنطوق تمظهرا وتجلٍ لقوة داخلية عميقة ويصبح التواصل ناتجا عن ضرورة داخلية.

إضافة إلى معارضته إلى التواصل كشرط لوجود اللغة، فإنّه عارض ورفض الفكرة القائلة بأنّ الاختلاف بين اللغات هو تباين سطحي فقط ومتماثل من الناحية الداخلية العميقة، بمعنى أنّ التفاوت بين اللغات هو تباين في الكلمات والأصوات وليس تباين في التصورات ودلالة الألفاظ على هذه الأشياء، في حين قامت فكرة همبولت على أنّ التفاوت اللغوي هو تباين في كلا الجانبين أي اختلاف في الكلمات وبنياتها الصوتية وتباين في دلالاتها عن الأشياء والأفكار التّي تحملها، فاللغة في نظره <<ليست عاكسة للعالم، إنّما هي

[1] – مصطفى بليولة، اللغة والأمة "مقاربة في فلسفة همبولت"، مرجع سابق، ص82.

[2] – المرجع نفسه، ص83.

التّي تصنع العالم>>[1]، ويقر بأنّ التنوع في اللغات موجود <<بأشكال شتى وليس في الأصوات فقط، كما ينشأ الفرق في استعمال الأصوات من خلال الحس اللغوي [=الصورة الداخلية] مع الأخذ بعين الاعتبار صيغة اللغة، وكذلك استيعاب اللغة هذه الصيغة>>[2]. ويستند همبولت في تبريره لمسألة التنوع في اللغات إلى أنّ كل لغة من هذه اللغات هي تعبير عن شخصية أمة معينة تَشَّكل وجودها عن طريق مجموعة من الظروف المادية والفكرية والأسباب الحضارية المتنوعة، ولذلك فإنّ مسألة التنوع والاختلاف اللغوي هي مسألة حتمية، ومع أنّه من المُتبَّنِين لقضية الأصل اللغوي الواحد والمبدأ الكوني الشمولي إلاّ أنّه يقر بالفروقات اللغوية. إضافة إلى هذا رفض أن يكون النحو والمعجمية المبدأين الوحيدين لفهم اللغة وأعلن عن وجود مبدأ ضروري وأساسي آخر أكثر عمق هو المبدأ المولد للكلمات وترتيبها، ويميه بالشكل الداخلي للغات الذّي يرتبط بالمظهر الإبداعي للاستعمال اللغوي[3].

تَتَشَّكل اللغة الإنسانية من مبدأين أساسيين هما الشكل الداخلي[=الصورة الداخلية] والشكل الخارجي[=الصوت]، بدونهما تصبح مجرد نسق من الإشارات والحركات التّي تشبه نظام الاتصال الحيواني؛ ويعرفهما بأنهما <<الحس اللغوي الداخلي[=الصورة الداخلية] هو القدرة العقلية بكاملها بقدر ارتباطها بصياغة اللغة واستعمالها...والصوت بقدر اعتماده على تكوين أعضاء النطق وقيامه على ما يتلقى الإنسان من أسلافه>>[4]، ويرى بأنّ هذين المبدأين مكملان لبعضهما البعض ومتفاعلان بشكل دائم ومستمر بحيث لا تقوم العملية الكلامية إلاّ بهما.

تمثّل الصورة الداخلية مُرتكزا لغويا في فلسفة همبولت الذّي يعتبرها القوة المتحكمة في الكلام من داخل الإنسان أي من ذهنه/عقله، لأنّها مبدأ داخلي يُوَلِد ويُنتج الأصوات ويوجهها

---

[1] – المرجع السابق، ص85.

[2] – روي هاريس وتولبت جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، 224.

[3] – مصطفى بلبولة، اللغة والأمة "مقاربة في فلسفة همبولت"، مرجع سابق، ص 86

[4] – روي هاريس وتولبت جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص223.

وينظمها من داخل ذهن الإنسان ليعبر عنها في شكل أصوات منطوقة مسموعة ومفهومة. فإذا كانت الملكة اللغوية الإنسانية فطرية وداخلية فهذا يعني أنّ الصورة الداخلية التّي تتحكم وتُهيمن على توليد وإنتاج التعابير هي ركيزة الملكة الفطرية الذهنية وتتجلى قوة هذا التحكم في أنّها تُعبر عن الفكر وترتبط بكيفية استعمال الكلام وصياغته، وحسب المنظور الهمبولتي فإنّ <<عمل الروح الذّي يجعل من الصوت الُمتمفصِّل واسطة للفكر، يُمَارَس وفق وظيفة مستمرة وموحدة، تلك الوظيفة التّي إذا ما اضطلع بها بشكل تام قدر الإمكان وأُدِّيَت بنظام، تشكل صورة اللغة>>[1].

تُحول الصورة اللغوية الداخلية الأفكار من حالتها الداخلية العقلية إلى حالة خارجية قابلة للملاحظة أي إلى كونها أصواتا منطوقة، فاللغة إذن هي نشاط ذهني متكرر بصفة مستمرة ودائمة يخلق ويُولِد الصوت المنطوق القادر على التصريح والتعبير عن الفكر. وتشمل حركية هذا النشاط على القواعد والآليات التّي تساهم في توليد التعابير الكثيرة واللامحدودة من وحدات محدودة ويتعدى الأمر إلى أنّ هذا النشاط الفعال الذّي يتميز بالطاقة الخلاقة له الدور الفعال في طريقة استعمال تلك التعابير وصياغتها في أصوات نتكلم بها ونسمعها ونفهمها. ويكون بهذا الصورة اللغوية الداخلية هي الشكل الداخلي الثابت أو الحَّس الداخلي للغة أمة معينة.

إذا كان الحس اللغوي هو القوة الداخلية العقلية التّي تولد الكلمات والتعابير من داخل ذهن الإنسان وتهيمن عليها وتحولها إلى أصوات منطوقة معبرة عن الأفكار فهذا يعني أنّ الصوت هو الشكل الخارجي الذّي تتبلور فيه تلك الفكرة من خلال الكلمات المنطوقة. فإذا كان امتلاك الإنسان لأعضاء جسمية بيولوجية (اللسان، الحنجرة،...) من أجل الكلام أحد الشروط اللازمة والتّي بدونها لا يكون هناك نطق إلاّ أنَّ هذا لا يعني بأنّها هي الأساس الأول له بل على العكس يعتبر الحس الداخلي هو القدرة الأولى المتحكمة والمؤثرة في اللغة

[1]– مصطفى بلبولة، اللغة والأمةّ مقاربة في فلسفة همبولت"، مرجع سابق، ص101.

لذلك فتشبع الصوت بهذه القوة العقلية هو ما يعطي الألفاظ فعاليتها وقوتها إلاّ أنّ التأثير يكون متبادلا بين الصوت والحس الداخلي ويؤثر الصوت في الحس فينقل له التجربة الحسية الخارجية ويتشكل جوهره الحقيقي في نطق الفكرة التّي لولاه لظلت حبيسة الذهن؛ و<<تمثل فعالية اللغة _لاسيما صيغتها الصوتية_ الآلية التّي تمكن الإنسان من فصل وربط النشاطات الذهنية الأخرى التّي لا شكل لها لتشكل منها فكرة حقيقة. ولأنّ الصيغة الصوتية في اللغة منطوقة لذلك يمكن أن نستخدمها في نطق الفكرة>>[1]. يمثل الإرث اللغوي الذّي يأخذه الفرد من قومه وأمته إحدى الركائز الأساسية في صقل الصوت المنطوق؛ في حين تبين الصورة الداخلية للغة <<بأنّ الفكر لدى شعب معين يعبر عن نفسه بكيفية محددة، وفق قواعد محددة. وهذه الصورة هي السر في ظهور اللغة بشكل تلقائي كوحدة منظمة، وذلك رغم تعدد المتكلمين بها>>[2].

طور فون همبولت مفهوم الإنتاج في اللغة الذّي قدمه ديكارت وأعطاه تسمية أخرى وهي التوليد ففي رأيه تقوم الملكة اللغوية الذهنية والتّي تعتبر جزءا لا يتجزأ من ذهن الإنسان بتوليد الجمل والتراكيب اللغوية الكلامية بصورة دائمة وديناميكية، ويقوم هذا النشاط التوليدي على مجموعة من المبادئ الثابتة والمحدودة والتّي من خلالها يولد الذهن بصورة غير محدودة التعابير والتراكيب اللفظية. فمن خلال الصورة الداخلية (الحس اللغوي الداخلي) والتّي تمثل القوة العقلية لتوليد اللغة يصبح الكلام عملا ذهنيا إبداعيا ومعبرا عن الذات الحرة والنشاط اللغوي حر وإبداعي. تتخلص وجهة نظر همبولت حول السمة الإبداعية للغة البشرية في:

-إنّ اللغة البشرية تتميز بكونها ذات مظهر إبداعي لأنّ النشاط اللغوي يعد نشاطا ذهنيا توليديا متدفقا ومستمرا؛ وهذا يعني أنّ الألفاظ والعبارات التّي يولدها هذا النشاط تتسم

---

[1]-روي هاريس وتولبت جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص233.

[2]- مصطفى بلبولة، اللغة والأمة "مقاربة في فلسفة همبولت"، مرجع سابق، ص101.

بكونها جديدة وغير متكررة أي أنّ الذهن لا يعيد تكرار نفس الكلمات والتعابير بنفس المعاني والدلالات والأشكال إنّما هو يُنشئ تعابير تتسم بالجدة والأصالة دوما.

-يتميز الإبداع اللغوي الإنساني في كونه حرا وغير مقيد بأسباب معينة وحالات محددة أي أننا في استعمالنا اليومي للكلام نبدع عبارات جديدة وحرة غير مرتبطة بحالة ولا بسبب معينين إننا نتكلم لنعبر عن إرادتنا الحرة وتصورنا الخاص للعالم والأشياء، فليس بالضرورة أن يكون هناك سبب أو قصد معين لنتكلم <<فالكلمات تتدفق حرة... دونما ضرورة أو قصد>>[1] فهي تلقائية ملازمة للكلام البشري ويقول همبولت: <<السمة الإبداعية تلقائية حاضرة في كل فعل كلامي. اللغة دائما فعل وأداء إبداعي للعقل وهي فعل يقوم به الفرد بإرادة حرة>>[2].

-إنّه لا متناه ولا محدود فعلى الرغم من أنّ المبادئ التوليدية للغة تكون ثابتة ومحدودة إلاّ الاستعمال الإبداعي للغة هو لا محدود ولا نهائي، لأنّ الصورة الداخلية المنتجة للغة تمكن العقل البشري من إنتاج ما لا نهاية له من الوحدات اللغوية (الكلمات، الجمل، التعبيرات اللفظية والنحوية) مع أنّ مبادئها وقواعدها ثابتة ومحدودة.

-هو مشترك وعالمي وخاص ومتفرد لأمة دون أخرى: وهذا لأنّ المبادئ التّي تحكم الملكة اللغوية كونية وعالمية ومشتركة ولهذا فإنّ الإبداع اللغوي للاستعمال اليومي هو أيضا مشترك وكوني. وهو خاص لأنه صورة معبرة عن شخصية كل أمة عن الأخرى. ويجب أنّ نفرق بين الإبداع الفني اللغوي (الشعر) الذّي يعد خصيصة وموهبة فريدة من نوعها ويميز أشخاصا عن غيرهم وبين الإبداع اليومي للكلام العادي الذّي يشترك فيه جميع الأفراد[3].

---

[1]-روي هاريس وتولبيت جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص229.

[2]- المرجع نفسه، ص230.

[3]- المرجع نفسه، ص 231.

2/-اللغة رؤية وتصور خاص للعالم:

أعلن همبولت أنّ اللغة ليست مجرد أداة للتعبير والتصريح الحر بالأفكار إنّما هي تتعدى ذلك بكثير من كونها أداة فردية وبرهانا للتعبير الحر عن الفكر للفرد إلى كونها أداة تتبلور فيها التجربة الذاتية بالتجربة الجماعية، وبهذا الرأي يبتعد همبولت عن ديكارت ويحاول تأسيس تصور فلسفي للغة خاص به. في الكلام يقدم الفرد رؤيته الخاصة للعالم إلاّ أنّ هذه الرؤية لا تكون بمعزل عن تجربته الجماعية كونه جزأ لا يتجزأ من جماعته أو أمَّته فهو يعيش مع هذه الجماعة ويتشارك معها الماضي والحاضر وسيُكَوِّن معها مستقبل للأجيال القادمة التّي سترى حاضره كماضٍ تستند إليه كما فعل هو. إن تجربته الجماعية هذه تنم عن تجارب الأجيال التّي سبقته وكونت له ذلك الحاضر، لذلك فاللغة التّي يملكها شخص ما هي إلاّ <<نظام ينطوي على تجارب الأجيال السابقة وينقل للأجيال اللاحقة رؤية العالم تختلف تماما عن رؤى العالم التّي تعكسها اللغات الأخرى. فكل لغة تنظم العالم بطريقتها الخاصة>>[1]؛ فلغة شخص ما هي لغة تجربته الفردية والجماعية وهي لغة خاصة بهذه الجماعة لغة تعبر عن التصور الخاص لهذه الجماعة دونما غيرها من الجماعات أو الشعوب والأمم الأخرى.

الحديث عن لغة ما هو حديث عن تجربة أمة معينة ورؤية عن العالم خاصة بهذه الأمة دون غيرها من الأمم تنعكس فيها أفكار وقيم تلك الأمة/ الشعب؛ فإذا كان كلام الفرد هو تعبير عما يدور في ذهنه من أفكار وتصورات فهذا يعني أنّ لغة أمّة ما؛ هي بدورها تعبير عن أفكار تلك الأمة، ما دامت تعبر عن تصور ورؤية تلك الأمة فهي إذن جزء لا يتجزأ منها ومكون تركيبي أساسي لكيان وهوية الأمم ولا يمكن الحديث عن اللغة إذن في الإطار النحوي أو الصرفي (اللساني) فقط لأنّ هذا الإطار ضيق جدا مقارنة مع ما

[1]- مصطفى بلبولة، فلسفة اللغة واللسانيات في الفكر المعاصر على خطى همبولت، ضمن: مجلة الأكاديمية للدراسات الإجتماعية والإنسانية، جامعة الشلف، الجزائر، العدد 18، جوان 2017، ص41.

تمثله اللغة من أنّها مكون لازم للأمة وشاهد على نمو فكرها ويفهم من هذا أنّ <<اللغة ليست وسيلة لتركيب الفاعل والمفعول وحسب؛ بل لصياغة الهوية القومية لتلك الأمة>>[1]. ومن الآراء التّي قدمها همبولت في هذا المنظور هو أنّ لغة أمّة تحدد لنا طريقة تفكيرهم والمنظور الذّي يرون به الأشياء والعوالم وطريقة إدراكهم وفهمهم لها وأسلوب التحليل الذّي يتبعونه ولذلك فإنّ تفوق لغة أمة/شعب معين ما هو إلاّ دليل واضح على تفوق فكرهم وتصورهم والعكس صحيح فكلما كانت اللغة ناقصة ورَثَّة؛ هذا يعني أنّ تفكير ذلك الشعب/ الأمة هو أيضا ناقص وساذج؛ ويُوحي الرأي الهبمولتي للمطلع عليه بأنّه فكر يُعزز العنصرية والتفوق العرقي؛ <<وتحدد طبيعة اللغة التّي يستعملها قوم ما بالتفرد القومي، وأنّ تلك اللغة تحدد بدورها الطريقة التّي يفكر بها أولئك القوم أو يتلقون الواقع ويفهمونه>>[2]، فاللغة إذن هي التّي تحدد بنية الفكر وطريقة التفكير للأمة؛ عكس مدرسة بور رويال فعندهم بنية الفكر هي التّي تحدد بنية اللغة.

تصبح اللغة بهذا المنظور الهمبولتي واسطة للربط بين الفرد وأمته لأنّها خليط بين التجربة الفردية والخبرة الجماعية لأنّ الفرد هو جزء من تلك الأمة (القوم) التّي ينتمي إليها يتأثر بها ويؤثر فيها فتتكون بذلك شخصية هذا الفرد غير بعيد عن شخصية أُمَّته، وكون اللغة التّي يستعملها أداة تساعده في المزج والتركيب بين فكره وتصوراته العقلية الذاتية وبين الخبرة الاجتماعية الموضوعية التّي يأخذها من قومه، وتكون لغة الأمة أيضا وسيلة للتعبير عن شخصيتها ونظرتها للعالم؛ حيث <<تُشكل اللغة بمجموع ألفاظها وتراكيبها في منظور همبولت أُطرا لمقولات الفكر، وضربا من الفهم القبلي لإدراكنا للعالم، حيث إنّ هناك ارتباطا لا يُفك بين تركيب اللغة وصورتها الداخلية وبين إدراكنا الخاص للعالم. فكل لغة

[1] – روي هاريس وتولبت جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص234.

[2] – المرجع السابق، ص233.

ترسم حول الأمة التّي تتكلمها دائرة لا يمكن الخروج منها إلاّ لندخل في دائرة رسمتها لغة أخرى>>[1].

نفهم من هذا أنّ اللغة هي أداة كشف عن الآخر وعن الأمة الأخرى، وأي محاولة لفهم أمة معينة أو فرد ما تبتدأ من فهمنا للغة تلك الأمة ولما يتكلم به هذا الفرد لأنّ لغتهم هي تصريح عن فكرهم وتعبير عن شخصياتهم وهويتهم ونظرتهم لهذا العالم؛ ولهذا <<فإنّ التفاعل المستمر والخلاّق بين الفكر واللغة والعالم تخصِّبه الأمة، بحيث تعطي لغتها الخاصة جوهر فرديتها، وفي الوقت نفسه، وتتشكل كأمة بفضل اللغة. إنّ هذه الفردية المجسَّدة في الصورة الداخلية للغة، تعبر عن ذاتها في رؤية العالم>>[2].

إذا كانت اللغة حسب فون همبولت هي روح الأمة وتصور خاص للعالم فهذا يعني أنّ كل لغة من اللغة تنفرد بخصائص تجعلها فريدة من نوعها ومتميزة عن باقي اللغات الإنسانية الأخرى وهذا ما يبرر تأكيده على أنّ لغة أمة معينة هي تعبير عن شخصية تلك الأمة وتفكيرها ورقيها، إلاّ أنّ هذا لا يعني حسبه أنّ كل لغة مستقلة عن الأخرى استقلال تام يجعل من كل واحدة منها لها كيان منفصل عن الآخر من حيث المبادئ والصيغة والاستعمال؛ بالعكس لا وجود لمثل هذا الانفصال التام والقطعي فكل اللغات البشرية تمتلك تشابها كثيرا فيما بينها ويمس هذا التشابه نواحي عديدة ويصل هذا التشابه في بعض الأحيان إلى حد التماثل ما يوحي لنا بأنّ اللغات المتنوعة والمختلفة هي ذات أصل واحد أو أنّها نتجت عن لغة أولى يمكن اعتبارها اللغة الأم لها جميعا؛ <<فكل لغة خاصة هي... شذرة من كلٍّ أكبر انفصلت منه، إنّها شذرة بالنسبة إلى ما كانت عليه

[1] – مصطفى بلبولة، فلسفة اللغة واللسانيات في الفكر المعاصر على خطى همبولت، مرجع سابق، ص 41.

[2] – مصطفى بلبولة، اللغة والأمة "مقاربة لفلسفة همبولت"، مرجع سابق، ص ص145، 146.

أثناء تعاقب مراحلها، وبالنسبة إلى الأصل الذّي انحدرت منه؛ وأخيرا بالنسبة إلى مجموع اللغات الموجودة أو التّي وجدت في العالم>>[1].

تتسم اللغة الإنسانية بأنّها ذات مبدأ شمولي كوني وما الفرق الموجود بين اللغات التّي يتكلمها البشر على اختلاف أجناسهم هو اختلاف في الأصوات والصيغ الصوتية واستعمالها، والأفكار التّي تُنشئها عقول الأقوام، فإذا كان الصوت المنطوق يعبر عن الفكرة الموجودة في ذهن الفرد ولغة قوم هي الناقلة لأفكارهم فهذا يعني أنّ الاختلافات بين اللغات هي اختلافات في الأفكار أيضا، لكن ما الذّي يعنيه همبولت بأنّ للغة مبادئ تجعل منها شاملة وكونية وأنّ اللغات جميعها يمكن أن تكون قد انحدرت من لغة واحدة في وقت من الأوقات؟.

إنّ المبدأ الشمولي الكوني للغات الإنسانية حسب رأي همبولت هو أنّ الملكة اللغوية الإنسانية هي قدرة داخلية ذهنية يمتلكها جميع الأفراد وأن هذه الملكة هي بمثابة الآلية التّي تنتج اللغة ولذلك فمبادئ وقوانين عملية الإنتاج هذه هي أيضا مشتركة بين جميع البشر هذا من جهة؛ أمّا من جهة أخرى فإنّ اللغات البشرية تمتلك جميعا خواصا مشتركة وأهم خاصية من هذه الخواص هي أنّ كل لغة هي معبرة عن الفكر الذّي تحكمه القوانين الشمولية. ولذلك فإنّ جميع لغات العالم انحدرت من أصل واحد أو من لغة واحدة يمكن أن نطلق عليها اسم اللغة الأم لكن الحركية والسير الكبير الذّي ميز البشرية وأوصلنا إلى ما نحن عليه اليوم لا يسمح لنا بأن نعرف هذه اللغة الأولى التّي تعد أصل جميع لغات العالم ويرى في كتابه آراء في اللغة بأنّ <<هناك لحظة خُلقت فيها اللغات التّي انحدرت منها لغات العالم اليوم 'وقد ابتعدت تلك اللحظة الآن لدرجة أننا لم نعد نملك أية معرفة تاريخية عنها'>>[2]؛ ولكن مفتاح فهم جميع اللغات هو بحوزة كل الأشخاص هو مخبأ داخل أذهانهم

[1] – المرجع نفسه، ص 143

[2] – روي هاريس وتولبت جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص228.

جميعا، <<إنّ تعريف همبولت للغة يحول دون وضع خط فاصل بين المفاهيم الأربعة: اللغة والفكر والأمة والعالم، إنّها مفاهيم متداخلة بينها تداخل قوي. فكل لغة خاصة في نظره هي تنفيذ خاص ومتميز للغة باعتبارها ملكة فطرية، وبالتالي فإنّ المهمة التّي تنهض بها كل لغة هي في واقع الأمر مهمة شمولية>>[1].

[1]– المرجع نفسه، ص 230.

ثالثا: اللغة نشاط توليدي عند تشومسكي

1-اللغة نشاط توليدي تركيبي:

يطرح تصور همبولت للغة منظورا لسانيا متشبعا بالفلسفة العقلية الديكارتية والأفلاطونية، فكما أفلاطون وديكارت اللذان أرجعا كل معرفة إنسانية للعقل؛ ها هو يرى بأنّ العقل الإنساني هو مصدر المعرفة اللغوية وأساسها ولا يمكن فهم اللغة كظاهرة بحثية في مجال علم اللسانيات إلاّ عن طريق اعتبارها ملكة ذهنية داخلية ونشاطا عقليا إبداعيا. <<فاللغة بالمعنى الدقيق، لا يتم تعليمها، ولكن فقط يتم إيقاظها في الذهن: لا نستطيع إلاّ تزويد المرء بالطريق التّي سيطورها بنفسه>>[1]؛ فالكلمات التّي ننطق بها لا نتلقاها من الخارج ولا يتم تخزينها في الذاكرة إنّما يمتلك البشر الألية الفطرية التّي تسمح لهم بإنتاج الألفاظ وتكوين التعابير الدالة على أفكارهم بوضوح وتبتدأ هذه الآلية بالعمل تدريجيا منذ السنوات الأولى من عمر الإنسان وامتداد تجاربه اليومية.

إنّ جوهر اللغة عند همبولت حسب تشومسكي يتمثل في كونها عملية إنتاج وتوليد فعلي أي أنّها ليست ناتجة عن التعليم الخارجي والتدريب ولا هي نِتاج محيط خارجي وعائلي، إنّما هي أولا عملية ونشاط يقوم به الدماغ/الذهن مستمر وغير مرتبط بزمان ولا مكان معينين أي لا تتحكم به الحالات الخارجية ولا الانفعالات الداخلية إنّما هو حر يشترك فيه البشر جميعا، ويتمثل الدور الرئيسي لهذا النشاط في خلق الأصوات المنطوقة مهمتها التعبير عن الذات وعن أفكارها. لقد تأثر بالفكر الديكارتي القائل بأنّ <<اللغة عملية إبداع حر، قوانينها ثابتة، ولكنّ الوسيلة التّي تُستعمل المبادئ بها لإنتاج اللغة حرة ومتغيرة بشكل لانهائي. حتى استعمال وتأويل الكلمات يحتوي على خلق حر>>[2].

---

[1]- نعوم تشومسكي، غريزة الحرية، تر: عدّي الزعبي، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط 01، 2017، ص30.

[2]- المصدر نفسه، ص 35

يرى تشومسكي أنّ تأثر همبولت بالفكر الديكارتي لم يكن عائقا في أن يطور همبولت تصورا خاصا به؛ وهذا التصور قائم على تقديمه لمفهوم الشكل الداخلي الثابت للغة، تتجلي قيمة هذه الصورة في كونها متحكمة في إنتاج وتوليد الكلمات اللامحدودة بالرغم من أنّ المبادئ التّي تحكمها وتسيرها هي ثابتة ومحدودة؛ ويتفق المفهوم التشومسكي للغة معه، باعتبارها عملية إنتاج مجموعة من الكلمات والمنطوقات اللامحدودة واللانهائية من مجموعة محدودة من الوسائل والمبادئ المحدودة والمتناهية. تقوم هذه الصورة بتحديد عملية اكتساب واستعمال اللغة ويمكن فهمها على أنّها <<نظام من العمليات التوليدية مزروعة في العقل البشري والتّي تحدُّ ولكن لا تحدِّد الإبداع الحر للذكاء العادي، أو على مستوى أعلى وأكثر أصالة للكاتب أو للمفكر>>[1].

بناءً على المنظور الهمبولتي تمثل اللغة عند تشومسكي <<العمل الذهني المتكرر لصنع الصوت المنطوق القادر على التعبير عن الفكر>>[2]؛ فالذهن يقوم بعملية دائمة متكررة لإنتاج الألفاظ والجمل؛ تتسم هذه العملية بالديناميكية المستمرة والطاقة الخلاقة لإنتاج الكلام، يُعرّف هذا الإجراء التوليدي بأنّه <<مفهوم حسابي تقديري يُفسر كيف يكون ممكنا انطلاقا من معطيات محدودة وشروط محصورة، عناصر أو قواعد أو وسائل، إنشاء ما لا يتناهى من التراكيب، من غير أن يعين ذلك أنّ كل التركيبات ممكنة...وهو عند همبولت مجرد مفهوم بسيط في حين أنّ يُشكل عند تشومسكي نظرية أي شبكة من المبادئ والتصورات>>[3]*. الإجراء التوليدي هو جوهر اللغة الرئيسي والمتمثل في الإنتاج والخلق الدائم المتكرر والمتجدد للكلام الذّي يُصرح بالأفكار ويُشترط في الكلام أن يكون منطوقا أي أن يتكون من كلمات وألفاظ تُكون هي الأخرى جملا منطوقة ومسموعة ذات دلالة لا إشارات

---

[1]– المصدر السابق، ص35.

[2]– نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص135.

[3]– علي حرب، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي، مرجع سابق، ص 107.

*– استخدم هذا المفهوم عند الإغريق كمبدأ للتفسير، في غير مجال خصوصا في الرياضيات. انظر، المرجع نفسه، ص107.

وإيماءات صوتية معينة، فالكلمات المنطوقة في حديث ما تتكون من مجموعة من الوحدات (الحروف..) يمكن استعمالها لتكوين كلمات ومنطوقات أخرى جديدة غير تلك التّي قلناها سابقا فالفرد منا يقوم بعملية توليد دائمة للألفاظ والتعابير أثناء الكلام، وهكذا تكون اللغة <<نشاطا توليديا بدلا من مُنتَجٍ لا حياة لا فيه>>[1].

إنّ الكلمات هي وحدة من مجموع الوحدات التّي تكوِّن اللغة والتّي بدونها لا يمكن أن نُكَوِّن التراكيب اللغوية والتعبيرات اللفظية ولذلك يركز تشومسكي على أنّ مفهوم الكلمة الذّي قدمه همبولت أحدث الفارق في الدراسات اللسانية فقد نظر إلى اللغة بوصفها <<شيئا منطوقا ومفهوما في الإدراك من خلال ممارسة القوة البشرية للكلام بدلا من استخدام عملية معينة مماثلة ببساطة (لقدرة الحيوان الحسية)>>[2]، ومنه فإنّ الكلمات التّي نعبر بها عن الأفكار يجب أن تتجلى في صوت منطوق هذا الأخير لا يعد شكلا خارجيا فقط إنّما هو تجلٍ للأفكار في شكل صيغ كلامية؛ إنّ الكلام على حد تعبير همبولت <<ليس شيئا موضوعا أمامنا، نستطيع أن نراه بكليته أو نتواصل به تدريجيا قطعة إثر قطعة؛ بل ينبغي تصوره بالأحرى، بوصفه منتجا دائما لنفسه حيث تكون قوانين الإنتاج محددة، بينما مدى الإنتاج وصيغته يبقيان كليًا غير محددين>>[3].

تعتبر الكلمات دليلا على عمليتي الفهم والإدراك العقليتين للإنسان، إذ يتطلب تكوين الكلمات وتوليدها فهما تاما للفكرة وإدراكا لها، <<ويستوجب الحديث عن الكلمة في اللغة بوصفها منطوقة؛ الرجوع إلى نسق العناصر التحتية التّي تبنى انطلاقا منها. وهي عناصر يمكن استعمالها لتكوين كلمات أخرى كثيرة لامتناهية وفاقا لحدوس وقواعد

[1] – نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص135.

[2] – المصدر نفسه، ص 135.

[3] – إيتين جيلسون، اللسانيات والفلسفة 'دراسة في الثوابت الفلسفية للغة'، تر: قاسم مقداد، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط01، 2017م، ص102.

محددة>>[1]؛ أي أنّ مجموع المبادئ التّي تتألف منها الألفاظ هي قواعد محددة وثابتة في ذهن الإنسان فتمكننا حتى في حالة الكلمات المنفردة من تكوين سلسلة من الألفاظ اللامتناهية والمعبرة عن التصورات الموجودة في عقولنا، ولهذا يجب أن <<ينظر إلى اللغة بكونها تُنتج نفسها إلى الأبد بقوانين محددة، لكن يظل مجال المنتج، وإلى حد ما حتى طبيعته غير محددين تماما>>[2].

مادامت الكلمات التّي تُكوِّن لنا اللغة غير محدودة ولا نهائية فهذا يعني أنّ المعجم الذّي يتكون من آلاف الكلمات والألفاظ لا يمكن النظر إليه إلاّ بوصفه غير محدود هو الآخر ولهذا فهو ليس شيئا جامدا لا حياة فيه إنّه مجموع كبير من الألفاظ التّي تولدها الصورة العضوية للغة، فالكلمات لا توجد جاهزة في أذهاننا ولا تحتفظ بها ذاكرتنا، إنَّ عملية التوليد متكررة بشكل مستمر وبكيفية لا نعيها ولا ندركها مطلقا ولهذا فإنّ استعمال المعجم يتطلب <<توليدا مستمرا وإعادة توليد للقدرة على صنع الكلمة>>[3]. إنّ المعجم اللغوي يستم بالخاصية اللانهائية هذه الخاصية التّي تعتبر خاصية مميزة للغة الإنسانية فهي ملازمة للغة فحتى الأطفال في سنواتهم الأولى يملكون القدرة على توليد ألفاظ جديدة لم يتلقوها من اهاليهم أو محيطهم الاجتماعي؛ فالمعجم ليس شيئا جاهزا في ذهن الإنسان تُؤْخذ منه الألفاظ كلما احتجنا إلى استعمالها. إنّ الصورة العضوية للغة هي التّي تمكننا من خلق وابتكار الكلمات وتكوين المعجم الذّي يتطلب دوما التوليد المستمر للكلمات الجديدة.

إنّ امتلاك الإنسان لملكة اللغة بوصفها جزءا لا يتجزأ من تكوينه العقلي الإنساني دليل على أنّ اللغة الإنسانية ليست مطلقا مثل نظام التواصل الحيواني. يتوافق رأي تشومسكي مع رأي همبولت في أننا لا نتكلم من أجل المساعدة المتبادلة ولا للتواصل فقط، إنّ الحاجة الوظيفية لا تحكم اللغة الإنسانية مثلما تهيمن على نسق الاتصال الحيواني؛

[1]– المرجع نفسه، ص135.

[2]– المرجع السابق، ص136.

[3]– المرجع نفسه، ص137.

ومبرره أنّ اللغة ليس مصدرها العقل الإنساني فقط كما يرى ديكارت، بل إنّ الشكل الثابت للغة لا تمتلكه الحيوانات وكل الكائنات الأخرى غير الإنسان، وإذا صادف أن وجدنا من يمتلك مثل هذه القدرة فهذا يعني أنّه يشبهنا وبإمكانه تكوين وإنتاج المنطوقات مثلنا، و<<تُشكل صورة اللغة العنصر الثابت والموحد في هذا العمل الذهني للرقي بالصوت المنطوق إلى التعبير عن الفكر>>[1].

يتضمن مفهوم الصورة <<قواعد تركيب الكلام، وقواعد تكوين الكلمة، وقواعد تكوين التصورات، هذه التصورات هي التّي تحدد طبقة الكلمات الأساسية>>[2]، تعد هذه القواعد أحد المكونات الرئيسية للشكل الداخلي الثابت للغة وهي قواعد فطرية موجودة في العقل الإنساني وهي ثابتة ومحددة مما يجعل منها آليات ثابتة ولازمة يتبلور دورها في توليد الألفاظ؛ وتعمل هذه القواعد في إطار واحد بحيث تندمج معا وتكون بنية نسقية تتشكل من خلالها اللغة؛ يقول تشومسكي: <<إنّ اللغة عند همبولت ليست كتلة من الظواهر المنعزلة – كلمات، أصوات، إنتاجات كلامية، فردية، إلخ– لكنها على الأصح نسق عضوي تترابط داخله كل الأطراف ويتحدد دور كل عنصر في علاقته بالعمليات التوليدية التّي تشكل الصورة التحتية>>[3]؛ ويميز في اللغة بين الصورة الداخلية والصورة الخارجية، تمثل الصورة الخارجية للغة (الأصوات) المادة الأولية التّي صنعت اختلاف اللغات، أمّا الصورة الداخلية للغة تمثل نمط أو بنية النحو والمعنى التّي استغلت المادة الأولية والمميزة للغة عن لغة أخرى، وعلى هذا الأساس يقارب تشومسكي بين الصورة الداخلية والخارجية وبين الفكر والصوت عند نحاة بور–رويال وهو ما يدعوه بالبنية العميقة والبنية السطحية.

إضافة إلى صورة اللغة والتّي تتضمن مجموع القواعد التّي تتحكم في تركيب الكلام وتكوين الكلمات وقواعد تحديد وتكوين التصورات التّي تشكل المعجم اللغوي

---

[1]– نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص136

[2]– المصدر نفسه، ص137.

[3]– المصدر نفسه، ص148.

والأصوات المنطوقة المعبرة عن الفكر، <<أدخل همبولت تمييزا آخر بين صورة اللغة وما يُسميه طابعها>>[1]؛ إنّ طابع اللغة هو تلك القوة المتحكمة في كيفية استخدام اللغة، فإذا كانت الصورة الداخلية للغة تهيمن على الكلام من الداخل وتتعلق أكثر ببنيته التركيبية والدلالية، فإنّ طابع اللغة الذّي يتميز بكونه داخليا هو الآخر فإنّها يتحكم وينظم طريقة استعمال هذا الكلام ولا يتعلق ببنيته؛ وكلما كانت الصورة العضوية الداخلية تعبر عن قوة الفكر كان الاستعمال قويا ومعبرا وخلاقا، ويرى تشومسكي التمييز بين صورة اللغة وطابعها يكمن في أنّ طابعها يتغير من فرد لآخر ومن استعمال لآخر مع عدم حصول هذا التغيير في البنية اللغوية <<ويرتبط طابع اللغة ارتباطا وثيقا بعناصر أخرى... كما أنّه إبداع فردي للغاية. وبهذا يكون الاستعمال العادي للغة عند همبولت وأسلافه الديكارتيين والرومانسيين، أعمالا ذهنية إبداعية>>[2]. ومن خلال الشكل الداخلي للغة وطابعها يصل تشومسكي إلى أنّ اللغة الإنسانية يمكن التمييز فيها بين الكفاءة اللغوية والأداء الكلامي.

إنّ النحو التحويلي التوليدي في التصور اللساني الذّي قدمه نعوم تشومسكي <<يمثل القدرة التّي حصَّلها المتكلم–السامع الطبيعي، وهو يحدِّد تمثيل كل جملة على مستويي البنية المركبية والبنية التحويلية (من بين أشياء أخرى). وتستخدم هذه التمثيلات من ثَمَّ في استعمال اللغة وفهمها، وهي توفِّر الأساس لنظرية أعم للغة سوف تهتم بالمعنى والإحالة. والشروط على استعمال اللغة الملائم، والكيفية التّي تُفهم بها الجمل، وبالإنجاز في سياقات اجتماعية واقعية، وباستخدام الكفاءة اللغوية في التفكير والتواصل>>[3]؛ ويرى مصطفى غلفان أنّ النحو التوليدي التشومسكي يأخذ معنين عام وخاص.

---

[1]– المصدر السابق، ص148.

[2]– المصدر نفسه، ص149.

[3]– نعوم تشومسكي، أصول النحو التوليدي كما يراها تشومسكي "مقدمة كتاب البنية المنطقية للنظرية اللسانية"، تر: حمزة بن قبلان المزيني، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 01، 2020، ص 162.

المعنى العام يقوم على أن النحو التوليدي للغة معينة هو <<نظرية تهتم بشكل ومعنى الصور التعبيرية في هذه اللغة>>[1]، أي أنّه تلك القدرة الذهنية التّي تُمّكِن متكلم لغة ما من الربط بين ما يسمعه من أصوات ومعانيها، فهو تلك المعرفة الموجودة في ذهنه والتّي يستطيع بواسطتها توليد وتأويل وفهم معاني التعبيرات اللفظية التّي يُدلي بها أو التّي يسمعها. فالنحو التوليدي بهذا المفهوم لا يعني سوى ذلك النسق اللغوي المتكون من مجموعة من القواعد التركيبية والدلالية والصرفية الصوتية الموجودة فطريا في ذهن أي فرد متكلم/مستمع للغة معينة.

يرتبط هذا النسق بما تحدده الملكة اللغوية التّي تعتبر وحدة ذهنية من وحدات الذهن/الدماغ الإنساني، من صيغ لغوية وما يرتبط بها من معنى وصوت. وهو <<نظام من القواعد يعزو إلى الجمل أوصافها البنيوية بصورة عامة واضحة ومحددة جدا، وهذا النوع من النحو يحاول أن يحدد في صورة مصطلحات أعظم ما تكون جودة سمات معرفة اللغة التّي تزود المتكلم/ المستمع بالأسس التّي يعتمد عليها في الاستخدام الفعلي للغة>>[2]

أمّا المعنى الخاص، فيقصد به تشومسكي أنّ النحو هو تلك النظرية التّي يقوم علماء اللسانيات بالعمل فيها على معرفة وفهم الآليات التّي تتخذها الملكة اللغوية المحددة وراثيا عند متكلم لغة ما ووصف هذه الآليات ومعالجتها بطريقة صورية تمكنهم من توضيح وفهم كيفية بنائها وتحديد سماتها وخصائصها المتنوعة وبهذا يكون هذه النظرية حسب تشومسكي هو براديغم لغوي صوري ولهذا يقول: << من الواضح أنّه ينبغي أن نسند للنحو وضع نظرية قائمة على الاطرادات التّي نسميها البنية التركيبية للغة. وبما أن النحو مصاغ صوريا، فإنه يشكل نظرية رياضية لبنية لغة طبيعية خاصة>>[3].

---

[1] – نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها أصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص53.

[2] – المصدر السابق، ص77

[3] – مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مرجع سابق، ص29

ينحصر وصف النحو على مجموع الجمل والتعابير اللفظية الصحيحة والمقبولة نحويا، إذ يُظهر وصف هذه الجمل الصحيحة نحويا القدرة الخلاقة التّي يتمتع بها النسق اللغوي الإنساني وحقيقتها المتمثلة في إنتاج وفهم وتأويل ما نهاية له من هذه الصيغ التعبيرية القواعدية. <<يُطلق مصطلح النحو التوليدي على طائفة من القواعد التّي تحدد أنواعا مختلفة من أنظمة اللغة،...وهو طائفة من القواعد التّي تطبق على معجم محدود من الوحدات فتولد مجموعة (إمّا محدودة أو غير محدودة) من الائتلافات (المكونة من عدد محدود الوحدات) بحيث يمكن بهذه القواعد أن نصف كل ائتلاف بأنه سليم في صوغه في اللغة التّي يصفها النحو>>[1]، وعموما تحدد مبادئ نظرية النحو التوليدي التحويلي <<التخطيط الذّي يفعله الطفل في اكتساب اللغة. وهي تحدد الكليات اللغوية التّي تكوِّن "جوهر اللغة"، ويمكن بذلك النظر إليها على أنّها عنصر أساسي في تحديد قدرة اللغة الفطرية>>[2].

2-الإبداع من الاستخدام اللغوي إلى كونه تجسيدا للحرية الإنسانية:

إنّ فهمنا لمفهوم الإبداع عند همبولت لا يتوقف عن معرفة أنّ الاستعمال اليومي للغة هو نشاط عقلي يتصف بالإبداعية والخلق والتحرر من الضوابط أو المسببات والمحفزات، بل يأخذ طريقا أوسع وأعمق بكثير من هذه الفكرة، إنّ فهم الإبداع عنده حسب تشومسكي يجب أن يُدرس بالنظر إلى خلفيته الاجتماعية والسياسية التحررية، فإذا كان الإبداع عنده هو بمثابة عملية خلق حر فهذا تعبير عن فكر حر وواعي، وأنّ الإنسان بطبعه خَلاَّق، وهكذا تكون الحرية جوهر كل إبداع وابتكار.

---

[1]- محمد محمد علي يونس، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط 01، 2004، ص84.

[2]- نعوم تشومسكي، أصول النحو التوليدي التحويلي التوليدي كما يراها تشومسكي "مقدمة كتاب البنية المنطقية للنظرية اللسانية"، مصدر سابق، ص 162.

يتتبع تشومسكي الرأي الهمبولتي القائل بأنّ الإبداع اللغوي ليس أكثر من كونه صورة مصغرة عن الخاصية الجوهرية التّي تميز الإنسان وهي الحرية التّي هي <<بلا شك الشرط الذّي لا يمكن الاستغناء عنه، والتّي بدونها لن يفلح السعي إلى الوصول الأكثر توافقا مع الطبيعة البشرية>>[1]. إننّا بدون الحرية لا يمكن أن نكون بشرا سنكون حينها مجرد آلات نُوَّجَه ونخضع لمجموعة من القوانين والضوابط لن تكون هنالك روح وإرادة حرة وحتى أفعالنا لن تكون أكثر من مجرد استجابات لأوامر ونواهي، فكما أن الآلة نخضعها لمجموعة من الشروط من أجل أن تحقق لنا نتائج معينة كذلك سيصبح الأفراد عند سلبهم حريتهم وإخضاعهم. ستفقد الذات الإنسانية روحها وجوهرها إذا ما فقدت حريتها.

الحرية هي وسيلة لتحقيق الذات من خلال تمكين الفرد من ممارسة عمله بحرية تجعل من هذا الفعل عملا إبداعيا هادفا ويقول همبولت: <<طبيعيا، الحرية هي الشرط الضروري الذّي بدونه لا يمكن أن ينتج العمل، حتى الأكثر إرضاءً للروح، أي آثار نافعة من هذا النوع. وما لا يختاره الإنسان بإرادته الحرة، وما يُقيده أو حتى ما يوجهه فقط، فإنّه لا يُصبح جزءا من طبيعته؛ ويظل غريبا عنه إلى الأبد وإذا أنجزه فإنه لا يقوم بذلك بواسطة طاقة بشرية حقيقة، ولكن فقط بواسطة مهارة آلية>>[2]، وإنّ أي استنكار ورفض للحرية كخاصية جوهرية طبيعية يتمتع بها الإنسان هي عدم اعتراف باستقلالية هذا الكائن عن الكائنات الحية الأخرى.

يحقق الوعي بالحرية إمكانية تغيير وتحسين الذات الشخصية وكل الإنسانية من فكر وعمل، وإنّ ممارسة هذه الحرية في أفعال وسلوكيات يطور من الذات الفردية والإنسانية جمعاء، فإذا قام الأفراد بأعمالهم بطريقة حرة واختيارية عفوية ستنتج أعمالا إبداعية لها بصمات خاصة وخلاقة وسيكون كل الأشخاص بمثابة فنانين لأنهم سيقومون بعملهم بحب

[1] – نعوم تشومسكي، غريزة الحرية، مصدر سابق، ص31.

[2] –نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية، مصدر سابق، ص145.

وإتقان دون أي إكراه خارجي أو سلطوي، فالضغوطات التّي تمارسها السلطة على حريات الأفراد لا تنتج لنا سوى <<الرتابة والتنميط، وتسلب أعمال الناس من طابعها الخاص؛ ولهذا السبب فإنّ العقل الحقيقي لا يمكنه أن يطلب من الإنسان أي شرط آخر سوى ذلك الذّي يتمتع فيه كل فرد بالحرية المطلقة وغير المحدودة إلى أبعد حد ليطور بنفسه شخصيته الحقيقة>>[1].

يرتبط التعبير الحر عن الفكر في اللغة بالاستخدام الإبداعي لها، وليست اللغة سوى مظهر تتجلى فيه الحرية بأسمى معانيها، ولكن لا يجب أن نفهم أنّ هذه الحرية مطلقة مما يسمح للبشر بممارسة ما يحلو لهم بل على العكس؛ إننا حسب تشومسكي مقيدون بوسيلة طبيعية تجعل من حريتنا مقيدة هي الأخرى ويرتبط هذا التقييد بطبيعتنا الجينية الوراثية، فنحن لسنا مخلوقات كاملة يمكن لعقولنا استيعاب كل الأشياء والتصورات وهذا لأنّ هنالك من الجوانب التّي تعد عصية على الفهم والإدراك الإنساني وأخرى تظل غامضة حتى يتم اكتشافها، إلاّ أنّ هذا التقييد لا يعني بأنه من الاستحالة تحقيق كماله الذاتي الإنساني ، وهذا أمر طبيعي لأنّ جميع الكائنات الحية تمتلك نظاما جينيا وراثيا يتميز بمجموعة من الخصائص الموروثة والتّي تقيد وتنظم أفعالها لكن يختلف الأمر بين هذه الكائنات الحية والإنسان في <<أننا نتوفر على عقول تتمتع بالإبداع والابتكار...ولكن الحرية التّي يستطيع البشر بلوغها ليست مطلقة، وإنما هي مقيدة بطبيعتهم، حيث إنّ الاعتقاد بوجود خصائص ذهنية معقدة ومتأصلة يقيد تطور الإنسان إنّما لا ينفي أو ينكر قدرته على تحقيق الكمال الذاتي اللامتناهي>>[2]؛ تتمثل هذه القيود في كونها نظاما منهجيا داخليا يسير ويهيمن على عملية الإبداع وبدونه لا يكون هنالك إبداع بل يكون أمرا لا معنى له. فهذا النظام هو بمثابة محددات لعملية الإبداع الحر.

---

[1] – المصدر نفسه، ص145.

[2] – نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي "الأفكار والمثل"، مرجع سابق، ص480.

يقر تشومسكي أنّنا كائنات حرة وأنّ حريتنا تظهر في سلوكنا وأفعالنا وما الفعل اللغوي سوى واحد من هؤلاء التجليات للإرادة الحرة التّي نملكها، فملكة اللغة التّي تمثل نظاما ذهنيا توليديا والتّي تمكننا من توليد أعداد لا متناهية من التعبيرات اللفظية باستخدام عدد محدود من الآليات المتناهية يمكن <<أن تقدم لنا بعض التلميحات لفهم السلوك المحكوم بالقوانين وإمكانات الفعل الحر والمبدع ضمن إطار نظام قوانين يعكس، جزئيا وعلى الأقل، الخصائص المتأصلة والكامنة في التنظيم الذهني للبشر>>[1].

يفسر الإبداع من جهتين <<من جهة أولى هنالك ذلك الإبداع المتأصل والموروث في اللغة، ذلك الإبداع المتمثل في القدرة على وضع الكلمات معا بغية التعبير عن عدد غير متناه من الأفكار؛ فيما هنالك ذلك الإبداع الفكري والمعنوي الذّي يتوفر عليه الفرد من جهة أخرى. غير أن هذه الصور المختلفة للإبداع المحكوم بالمعالجات وقيود من أنواع مختلفة إلى حد بعيد، إنّما يمكن أن تعمل كلها معا في حال استخدام اللغة>>[2]، وعن طريق المظهر الإبداعي للاستعمال العادي للغة يمكننا أن نستخلص ماهية القواعد والتفاصيل المعقدة التّي تحكم تراكيب الجمل والعملية الكلامية وأن نعرف مبادئ النحو الكلي كجهاز ذهني لاكتساب اللغة. وتمكننا اللغة عن طريق الإبداع الحر من فهم العمليات والأنشطة الذهنية المعقدة وتفسيرا للسلوك الإنساني فتكون أحد المفاتيح الهامة لفهم الطبيعة البشرية التّي ما تزال غامضة في جوانب عدة. ويقترب تحليل تشومسكي للغة على أنّها خاصية نوعية إبداعية وملكة ذهنية إنسانية تمكننا من الوصول إلى فهم التكوين الأصلي للبشر (الطبيعة البشرية) من الدراسات النفسية أكثر وقد <<صرح أكثر من مرة بأنّ دراسة اللغة لا يمكن إلاّ أن تكون جزءا من علم النفس الإدراكي>>[3].

---

[1] – المرجع نفسه، ص479.

[2] – المرجع السابق، ص480

[3] – محمد محمد العمري، الأسس الابستيمولوجية للنظرية اللسانية البنيوية والتوليدية، مرجع سابق، ص221.

في المنظور التشومسكي يجب أن تشمل الدراسة العلمية الوعي الإنساني كواحد من الأنساق التّي يمكنها أن تكشف لنا العديد من الحقائق حول البشر عموما، فهو مرتبط باللغة بصفتها خاصية إنسانية وجوهر الفكر الإنساني. من وجهة نظره نفسية إدراكية يعتبر <<الكلام والاستماع(speaking/listening) عمليتين ذهنيتين؛ فالحديث عن التكلم يتضمن أيضا الحديث عن الاستماع، لأنّ الاستماع بحد ذاته يمثل عملية انعكاسية للكلام (inverse speech)، بتفصيل أكثر الاستماع يستثير أو يستفز كلاما داخليا(inner speech)، ومنه عملية الكلام والاستماع في حيز الوجود في وعينا(consciousness) لذلك باستطاعتنا استحضارها وتسليط ضوء الانتباه (attention) عليها، فأن تتكلم هو أن تمتلك فكرة أو رغبة تريد أن تعبر عنها، ذلك يعني أنْ تمتلك صورة عنها كاملة نسبيا تضعها في كلامك>>[1].

يتطلب فهم علاقة الوعي باللغة في اللسانيات التشومسكية النظر في مفهوم الانتباه، إذ يؤكد هذا المفهوم <<المبدأ التشومسكي؛ أي النظام الجيني المؤسس للغة (underlying or genetic system)، والذّي تسعى القواعد الكونية لفهمه؛ حيث إنّ الانتباه عملية إدراكية (cognitive process) تختار تفاعلا محددا بين العالم الخارجي والداخلي. بتعبير آخر، كل العمليات الإدراكية تتلقى أوامر متعلقة بأشياء ذاتية أو موضوعية محددة، وهذه العملية هي بالضبط ما يحدث في ظاهرة اكتساب اللغة>>[2].

بالنظر إلى تداخل العمليات الذهنية وعلاقتها بالوعي والإبداع اللغوي اِرتأى تشومسكي أن تكون اللسانيات فرعا من فروع علم النفس الإدراكي؛ ويقول في هذا <<بأنّهما موضوعان لا أميز بينهما، أي أنني أنظر إلى اللسانيات على أنّها ذلك الجانب من علم

[1] – إبراهيم محمد علي راجح، نظرية تشومسكي وتفسير القضايا الإدراكية الذهنية "دراسة لسانية إدراكية بينية"، ضمن: المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، العدد 02، المجلد 05، يونيو 2019، ص113.

[2] – المرجع نفسه، ص 115.

النفس الذّي يهتم بالمظاهر الخاصة لهذا الموضوع>>[1]، واعتبر أنّه <<إذا كانت اللسانيات هي الدراسة العلمية للغة، وعلم النفس يدرس اكتساب اللغة واستعمالها، فإنّ التمييز بينهما لا معنى له، لأنّ مادة ما لا يمكن أن تهتم باكتساب أو استعمال معرفة دون الاهتمام بطبيعة هذه المعرفة. إنّ علم النفس الذّي يقتصر على وصف نماذج الإدراك والتعبير ويقصي من حلقته نفس النظام المكتسب، يحكم على نفسه بعقم كلي، لأنّه علم لا موضوع له،...وعلى هذا الأساس يسعى المشروع التوليدي لتأصيل علم النفس اللغوي كعلم جديد، يهتم بالنظام المكتسب وبطرق اكتسابه في نفس الوقت>>[2]، وعلى أساس هذه المقاربة أقام الحجة في معارضته للتوجه السلوكي اللغوي المبني على أسس علم النفس السلوكي.

[1] – نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص 18.

[2] – امحمد الطيب بنكيران، الخلفية الفلسفية في النظرية التوليدية، ضمن مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 03، المجلد 25، يناير/مارس 1997. ص49.

خلاصة:

إنّ الفلسفة العقلانية وما أثمرت عنه من نظريات ورؤى تمجد الإنسان وتجعل منه بؤرة البحث والتفكر؛ أُقصيت لعقود من الزمن من طرف المفكرين والباحثين الذّين شغلهم الهوس المادي التجريبي، ما دفع بتشومسكي بوصفه مُحيِّيًا لبعض من أفكار هذه الفلسفة أنْ يتقصى في تاريخ اللسانيات عن دعائم لتثبيت هذه الأفكار؛ وترسيخ قواعد التراث العقلاني في ميدان علم اللغة. فكانت نظرية مدرسة بور–رويال اللغوية ولسانيات فون همبولت حَجريْ الزاوية اللذّان بهما تم إكمال إرساء أسس النظرية اللغوية لتشومسكي.

مثلت الظاهرة اللغوية مقدرة عقلية في نحو بور–رويال وهذا على غرار تأثرهم بفلسفة ديكارت العقلية وتصوره اللغوي، بيد أنّ انشغالهم بعلم المنطق والنحو كان السبب الرئيسي في ربط اللغة عندهم بالقضايا والمبادئ المنطقية، فتطابقت في منظورهم بنية الفكر مع بنية اللغة إذ لم تعد اللغة مرآة عاكسة للفكر بل هي الفكر في حد ذاته. بهذا المنظور اعتبر تشومسكي أنّ النحو الذّي قدمه نحاة بور–رويال ليس سوى فرع من القراءة الديكارتية للغة، وعلى هذا الأساس وظف قضية الحكم المنطقي (المسند، المسند إليه) للتدليل على البنية المنطقية الكلية للغة والتّي تكمن خلف التنوع الظاهري الهائل للغات الإنسانية، بالإضافة إلى هذا طرح تشومسكي مفهوم التحويل بناءً على مفهومين آخرَين هما البنية العميقة والبنية السطحية اعتمادا على التقسيم الثنائي الذّي أقامه نحاة هذه المدرسة للكلام (مظهر داخلي، وآخر خارجي).

تجَسد تأثر تشومسكي بفلسفة همبولت اللغوية في تبنيه لمفهوم التوليد، إذ تمثل اللغة عنده نشاطا توليديا خلاقا، بفضل هذا النشاط الذهني يستطيع الفرد إنتاج ما لا حصر له من الملفوظات والتعابير، وفهمها في مواقفها ومناسباتها من دون أن تكون هذه المواقف سببا ومثيرا لخلق هذه التعابير، وهكذا يكون التوليد إحدى العمليات الذهنية التّي تبرهن عن

ارتباط إنتاج اللغة الإنسانية بعمليات نفسية وذهنية أخرى كالفهم والتأويل والذاكرة. في نفس المنحى يأخذ مفهوم الصورة الداخلية للغة الدور المركزي في بناء وخلق التعابير الكلامية اللامحدودة والتّي تتجسد في الإبداعية التّي تتسم بها اللغة الإنسانية، وحسب تقدير تشومسكي أنّ فهم الآليات التّي تحكم عملية الخلق اللغوي ستُمِّكن العلماء وخاصة السيكولوجيين من فهم بعض آليات السلوك الإنساني المحكوم بالحرية والاختيار الإنسانيين، ما شكل ذريعة ودافعا قويا لتشومسكي ليعلن عن أنّ اللغة برهان عن قيمة الإنسان ودوره كفاعل سيكولوجي واع، مفكر متكلم يملك القدرة على الإبداع والخَلق؛ وله من الملكات ما ينفي عنه التصور الآلي الذّي روجت ورسخت له النظريات اللسانية طوال عقود سبقته وخاصة منها اللسانيات البنيوية السوسورية والسلوكية.

الفصل الثالث:

اللسانيات السوسورية والسلوكية والدحض التشومسكي لها

المبحث الأول:

اللسانيات السوسورية والنقد التشومسكي

المبحث الثاني:

المدرسة السلوكية والتفنيد التشومسكي لها

مدخل:

ركزنا في هذا الفصل على الدحض الذّي وجهه تشومسكي للدراسات الوصفية في علم اللغة محاولين تتبع أثر المسار الفلسفي الذّي اتخذه. فلقد مثلت المرجعيات اللغوية العقلية دعائم للمنطلقات الفلسفية _الأفلاطونية الديكارتية_ في هذه المواجهة المتعارضة مع اللسانيات الوصفية (وأخص بالذكر هنا؛ اللسانيات السوسورية واللغويات السلوكية). كانت المقولات والمبادئ التّي استلهمها من مرجعياته الفلسفية أهم الحجج والبراهين التّي اعتمدها لتفسير الظاهرة اللغوية.

كان الخطاب التشومسكي خطابا حادا ومعارضا لتلك الآراء الوصفية المسيطرة على حقل اللغويات. زعزع بفضل براهينه القوية والبدائل التّي قدمها عرش النظرية السوسورية والمدرسة السلوكية، بعدما كان علماء هذه المذاهب اللسانية يرون في اللغة سلوك ظاهري خاضع للوصف؛ وقابل للتعميم الاستقرائي جاعلين من المتن اللغوي أساس الدرس اللساني. جاء تشومسكي ليؤسس نظريته المعروفة باسم "النحو التوليدي التحويلي" على كل ما يُخالف نظرة هؤلاء اللغويين، فاعتبر اللغة بنية داخلية ذهنية وجزءً لا يتجزأ من العقل/الدماغ، يقوم فهمها على لزوم تفسيرها وليس وصفها. من هنا نتساءل: على ماذا قام الانقلاب اللغوي التشومسكي ضد اللسانيات السوسورية والسلوكية حتى سيطرت نظريته اللغوية على ميدان علم اللسانيات حتى وقت قريب؟

المبحث الأول:

البنيوية السوسورية والنقد التشومسكي

أولا: الأسس العامة للسانيات السوسورية

1-الثنائيات السوسورية:

بُنيت اللسانيات السوسورية* على مجموعة من المقولات الثنائية التّي مثلت حجر الأساس في التقليد اللغوي السوسوري؛ وهي معروفة في الأوساط اللغوية بالثنائيات السوسورية وهي ثنائية المقاربتين الدايكرونية والسايكرونية، وثنائية اللغة والكلام، وثنائية القدرة والإنجاز. "عارض سوسور البحث اللساني الذّي كان سائدا قبله"** وخاصة النحو التاريخي والمقارن الذّي كان يعتمد في أساسه على المنهج التاريخي لدراسة الظاهرة اللغوية بوصفها حادثة تاريخية، واعتبر أنّ اللغة لا يمكن دراستها بهذا المنهج فقط، واقترح أن تتم دراسة اللغة عن طريق الوصف باعتبارها حالة ذات إطار زماني ومكاني محدد. وطرح ما يعرف في علم اللسانيات بالمقاربتين التعاقبية التاريخية (الدايكرونية/ Linguistique diachronique)، والتزامنية الآنية (السايكرونية/Linguistique synchronique).

يرى سوسور بأنّ اللّساني في المقاربة التاريخية؛ يعالج اللغة بوصفها ظاهرة تاريخية يتحكم في تطورها التعاقب الزمني، مُتّخذا المنهج التاريخي المقارن وسيلة تمده بفهم كيفية تطورها وما هي التغيرات التّي طرأت عليها وفي أي من الجوانب والمستويات تغيرت؛ هل في الجوانب النحوية أو الصرفية أو التعبيرية أم كلها، وهكذا يكون اللساني في هذه الدراسة متتبعا ومراقبا <<للتغيرات والتطورات المختلفة التّي طرأت على لغة ما عبر فترة من الزمن

---

*- اللسانيات السوسورية نسبة إلى فرديناند دو سوسور(1914/1827)، يُلقب بأبو اللسانيات الحديثة، مؤسس اللسانيات البنيوية، عارض علم اللغة التاريخي والمقارن، وأول من أدخل الدراسة الوصفية في علم اللغة. انظر، بريجيته بارتشت، مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى نعوم تشومسكي، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 01، 2004، ص 84.

**- ضمن تاريخ علم اللغة تعتبر مقاربة سوسور المتمثلة في كتابه المحاضرات، معارضة لوجهتي نظر مؤثرتين في علم اللغة؛ الأولى هي التّي تلك أسسها نحاة بور رويال في كتابهم علم نحو بورت رويال حيث ينظرون إلى اللغة على أنّها مرآة للفكر وتستند إلى منطق كلي (عالمي وشامل)، وتعتبر اللغة عندهم عقلانية بشكل أساسي، وأمّا وجهة النظر الثانية فتعود إلى القرن التاسع عشر حيث كان يُعتبر أن تاريخ لغة معينة هو الذّي يفسر الحالة الراهنة لتلك اللغة. انظر، جون ليشته؛ خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص 309.

أو خلال حقب متتابعة في الزمن الماضي>>[1]؛ وهي مبنية على دراسة اللغة بالنظر في إلى تعاقب المراحل الزمنية عليها، فهي مقاربة تهتم << بدراسة عبارات متتالية لا يدركها العقل الجماعي>>[2].

محور الدراسة في المقاربة التعاقبية هو مجموع الجمل والملفوظات المكونة للغة المراد دراستها؛ وكيفية تغير وتطور هذه الجمل والملفوظات على التوالي في الجماعة اللغوية التّي تتبنى هذه اللغة. يعتبر سوسور أنّ هذا النوع من البحث اللساني هو بحث عقيم لأنّه يُقدم لنا نتائج تنحصر في تاريخ تطور لغة معينة، والعائلات اللغوية واختلافات اللغات وتنقلها عبر الأجيال فتكون اللغة حادثة من الحوادث التاريخية، فهو إذن لا يمدنا بأي فهم ووصف واضح للغة ويقع خارج مجال الاتفاق والإدراك الجماعي.

بُنيت المقاربة التزامنية (السايكرونية) على أسس وأساليب مختلفة تماما عن تلك التّي كان يتم الانطلاق منها واستخدامها في اللسانيات الدايكرونية، يُقر سوسور بأنّ عالم اللغة في هذه المقاربة يهتم بوصف اللغة في إطار زمني محدد بعيد عن تاريخ وتعاقب الفترات الزمنية؛ فهو إذن يقوم على وصف حالة لِلُغة ما يكون الزمن الشرط الأول في دراستها، أي أنّ كل تعبير لفظي أو جملة أو كلمة نتحدث بها هي حالة لسانية قيلت في ظرف زمني معين في جماعة لغوية محددة، فدراسة اللساني لهذا التعبير أو الجملة؛ يكون متزامنا مع الوقت الذّي قيلت فيه وبهذا يستطيع دراستها ووصفها وتصنيفها، وتهتم <<بدراسة اللغات كنظم موجودة في نقطة معينة من الزمن>>[3] يكون اللغوي مشاركا لا مراقبا؛ ويتبع الدراسة الوصفية التّي <<لا تقتصر في الواقع على دراسة اللغات الحديثة أو المعاصرة، بل يمكنها أيضا أن تدرس اللغات الميتة بشرط أن تتوفر كل المعطيات اللغوية التّي تنبني عليها

[1] – أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، مرجع سابق، ص 125.

[2] – جفري سامسون، مدارس اللسانيات التسابق والتطور، تر: محمد زياد كبة، النشر والمطابع لجامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، د ط، 1997، ص40.

[3] – المرجع نفسه، ص26.

الدراسة العلمية الوصفية>>[1]، ويعد سوسور من أول اللسانيين الذّين أقاموا البحث اللغوي على المنهج الوصفي، الذّي يعتمد على محاولة وصف واستقصاء الأحداث المُشكِّلة للنظام اللغوي وتصنيفها ووظيفتها داخل هذا النظام.

يكون اللساني جزءًا من الحالة اللغوية التّي يتم وصفها بالنظر إلى كونها نظاما من العلاقات ذات البعد السيكولوجي الذّي يأخذه الفرد المتكلم من جماعته اللغوية؛ فاللسانيات التزامنية هي دراسة داخلية للغة <<تهتم بالعلاقات المنطقية والنفسية التّي تشكل نظاما في العقل الجماعي عند الناطقين باللغة>>[2]؛ ومن خلال التمييز بين اللسانيات الدايكرونية التعاقبية وبين اللسانيات السايكرونية التزامنية يوضح سوسور أنّ الأولى هي دراسة اللغة من الخارج، في حين تعد الثانية هي دراسة لها من الداخل*[3].

ينظر سوسور إلى اللغة بوصفها منتوجا اجتماعيا تمت المواضعة عليه من طرف الجماعة التّي تُشكل كيانا سلطويا أوليا؛ وتم قبولها من الأفراد الذّين ينتمون إلى هذه الجماعة وهي موضوع علم اللسانيات ويعرفها بقوله: <<اللغة نتاج اجتماعي لملكة اللسان ومجموعة من التقاليد الضرورية التّي تبناها مجتمع ما ليساعد أفراده على ممارسة ملكة اللسان>>[4]. فهي مجموعة الاتفاقات والمواضعات التّي وضعتها الجماعة اللغوية لممارسة الملكة المشتركة بينهم وهي اللّسان، ومنه تكون الجماعة هي المصدر الأول والرئيسي في إنتاج اللغة والمتحكمة في العملية اللغوية التّي يؤديها الأفراد أثناء تواصلهم الكلامي؛ وليس

---

[1] – أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، مرجع سابق، ص 125.

[2] – جفري سامسون، مدارس اللسانيات التسابق والتطور، مرجع سابق، ص 40.

* – يُشبه سوسور اللغة بلعبة الشطرنج بقوله: <<إنّ كون هذه اللعبة انتقلت من بلاد فارس إلى أوروبا هو أمر خارجي، بينما يعتبر داخليا كل ما يتعلق بالنسق والقواعد>>، فلا يهم تاريخ أصل اللعبة وكيفية انتقالها من مكان لآخر؛ ولا حتى من أي مادة صنعت قطع اللعبة من خشب أو عاج، فما يهم هو طريقة اللعب والنظام المتبع في هذه الطريقة وقواعده. كذلك في حالة اللغة فلا يهم تاريخ لغة ما ومن أي أسرة لغوية وما هي لغتها الأم، إنما الذّي يعنينا في البحث اللساني هو النظام اللغوي وقواعده ومبادئه. انظر، ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، تر: محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 01، مارس 2012، ص112.

[3] – فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، تر: يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، د ط، 1985، ص85.

باستطاعة هؤلاء الأفراد أن يتمردوا عن هذه السلطة. فهي <<مجموع كلي متكامل كامن ليس في عقل واحد بل في عقول جميع الأفراد الناطقين بلسان معين>>[1].

اللغة تحقق جماعي لملكة اللسان التّي يشترك فيها مجموعة من المتكلمين بهذا اللسان، يعبر هذا التحقق تعبيرا عن تجسد الوحدة العقلية المشتركة لهؤلاء المتكلمين؛ وتمتل هذه الوحدة نظاما متواجدا بصورة فردية في عقول المتكلمين وهذا النظام ما هو إلاّ نسخ متعددة من نظام جماعي لهذه الجماعة. لغة مجتمع معين ما هي إلاّ نظام متكامل موجودة في عقل كل فرد ينتمي لهذا المجتمع؛ ويوحي هذا المفهوم بأنّ اللغة ما هي إلاّ قاموس موجود على شكل نسخ كثيرة في عقول الأشخاص الذّين ينتمون لنفس الجماعة اللغوية وتكون هذه النسخ موزعة بصورة متماثلة ومتشابهة إلى الحد الذّي لا يسمح للأفراد بإحداث تغييرات فيها <<ويمكن التعبير عن أسلوب وجودها بالصيغة الحسابية الآتية: 1+1+1+1+...= (النمط الجماعي)>>[2].

إذا كانت اللغة تحققا جماعيا فإنّ الكلام يختلف عن اللغة في أنّه تحقق فردي، فهو ظاهرة فردية تختص بالفرد دون الجماعة يعبر عن الأداء الفردي للاستعمال الكلام، وليس موضوعا لعلم اللغة واللسانيات ويُعرفه فريناند دو سوسور بأنّه: <<مجموع ما يقوله الناس ويضم: (أ)–الفعاليات التّي تعتمد على رغبة المتكلم، (ب)–الأفعال الصوتية التّي تعتمد أيضا على إرادة المتكلم، وهذه الأفعال لا بد منها، لتحقيق الفعاليات المذكورة في (أ)>>[3]؛ بحسب هذا التعريف يمثل الكلام نشاطا فرديا خاصا يقوم على الجانب النفسي والتّي يسميها دوسوسور بالفعالية التّي تتحكم في رغبة الفرد المتكلم وعلى الجانب الصوتي الذّي يمثل مجموعة الأصوات التّي تتشكل فيها هذه الرغبة والإرادة الفرديتان، وهو يمثل جانبا ثانويا

[1] – أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، مرجع سابق، ص123.

[2] – فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص38.

[3] – المرجع نفسه، ص38.

<<سايكوفيزيائي في حين يمثل الجانب الجوهري الاجتماعي الجانب السايكولوجي في جميع صفاته>>[1].

رغم الاختلاف والتمايز بين اللغة والكلام إلاّ أنّ سوسور يرى أنّ كليهما مكملان لبعضهما البعض من خلال أنّ كليهما ضروري للآخر؛ فاللغة تُحقِقُ الفهم من الكلام، والكلام ضروري للغة لأنّه يُثبِّتُ أركانها، يقول سوسور: <<إننا نتعلم لغتنا بالإصغاء للآخرين>>[2] بمعنى أنّ اللغة تتكون جراء خبراتنا اليومية الفردية، ويكون الكلام الذّي نسمعه ونتحدث به هو عماد هذه الخبرات التّي تتجمع وترسخ في الدماغ الإنساني على هيئة مخزونٍ من الانطباعات التّي تُشكل اللغة التّي لا تخرج عن كونها منتوجا جماعيا. وهما يمثلان معا جانبين أساسيين لملكة اللسان. ويعدد سوسور الأمور التّي تميز اللغة عن الكلام ويمكن تلخيصها في الجدول الآتي[3]:

اللغة	الكلام
-اجتماعية -جوهرية -مسجلة سلبيا -نفسية -مجموع البصمات الموجودة في كل دماغ -نموذج جماعي	-فردي -تابع شبه عرضي -فعل إرادي، وذكي -نفس فيزيائي -مجموع ما يقوله الناس -غير جماعي

[1] – المرجع السابق، ص37.

[2] – المرجع نفسه، ص38

[3] – ماري آن بافو وجورج إلياسرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص133.

2/-علم اللسانيات السوسوري:

من خلال التمايز بين اللغة والكلام ككيانات تُشكل مجموعة مترابطة ومتكاملة فيما بينها والتّي يمكن دراستها وتحليلها على أساس الثنائية اللسانية (الآنية، التعاقبية) وعلى ثنائيات أخرى ستطرق إليها في المطلب الثاني من هذا المبحث، قدم سوسور مفهومه لعلم اللسانيات على أنّه علم يُعنى بدراسة اللغة دراسة وصفية تتعامل هذه الدراسة مع اللغة كنظام مركب من مجموعة من الأنظمة تتم دراسته في نقطة معينة من الزمن.

يعتبر الكثير من اللغويين واللسانيين أنّ دو سوسور هو من أرسى قواعد علم اللسانيات ووضع لها منهجها الخاص وهو المنهج الوصفي لذلك يُلقب بأب اللسانيات الحديثة؛ يُعد كتابه المشهور "دروس في اللسانيات العامة" (ويترجم أيضا ب: علم اللغة العام") عرضا للتصور السوسوري للظاهرة اللغوية ولعلم اللسانيات، فاعتبر أنّ <<اللغات مجرد أشياء قابلة للدرس وخاضعة لمحك التجربة>>[1] فهي في نظره ظواهر تقبل الوصف والتجريب ونظام من العلامات والوقائع الاجتماعية. وتهدف لسانيات سوسور إلى إرساء قواعد علم اللغة، وإخضاع اللغة للدراسة الوصفية، وبلوغ قدر أكبر من التعميم ونفي دراسة التاريخية المتعلقة بالبحث عن اللغة الأم التّي انحدرت منها لغات العالم؛ ففي رأيه <<لا وجود لأي لسان أم، ولا وجود لأي لسان بنت، ولكن هناك لسان عندما وُجِدَ، تدحرج وانتشر عبر الزمن، من دون أي نهاية محددة مسبقا لوجوده، ومن دون أن يكون هناك حتى إمكانية داخلية لكي ينتهي، إلاّ في حال وقوع حادث وعنف، أو في حال وجود قوة قاهرة، داخلية أو خارجية، قد تأتي لإزالته>>[2].

يتسم المسار اللغوي بالحركية والاستمرارية وليس هنالك أي قوة أو ضغط يمكنه أن يوقف هذه الدينامكية التّي تتصف بها اللغة لأنّها الأداة التّي تمكننا من فهم العالم الذّي

---

[1]- أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، مرجع سابق، ص 120.

[2]- لويك دوبيكير، فهم فرديناند دو سوسور وفقا لمخطوطاته "مفاهيم فكرية في تطور اللسانيات، تر: ريما بركة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 01، أيلول/سبتمبر 2015، ص 63.

نعيش فيه بواسطة استعمالنا للمفردات؛ ولقد <<رأى سوسور أن فهمنا للواقع يعتمد أساسا على استعمالنا _للأغراض الاجتماعية_ الإشارات اللفظية التّي تُشكل اللغة التّي نستعملها والمفردات ليست هامشية ولكنها _على عكس ذلك_ مركزية لحياة الإنسان. إذ أنّ الوجود الإنساني وجود محدد لغويا>>[1].

تَدرس المقاربة التزامنية التّي اقترحها سوسور اللغة بوصفها حالة موجودة ضمن إطار زمني محدد، ودراستها في التعاقبات الزمنية التّي سبقت تلك الحالة مع التركيز فقط على الإضافات التّي يمكن أن تُفيدنا في وصف الوحدات اللسانية وتصنيفها، ومن هذا الأساس تكون مُهمة اللسانيات كعلم هي:

(أ)- أنْ تصف وتؤرخ لجميع اللغات التّي ستتمكن من الوصول إليها، مما يقود إلى إعداد تاريخ الأسر اللغوية وإلى إعادة بناء اللغات الأم لكل أسرة.

(ب)- أنْ تبحث عن القوى الفاعلة بشكل دائم وكلي في جميع اللغات، وإبراز القوانين العامة التّي يمكن أن ترجع إليها جميع ظواهر التاريخ الخاصة.

(ج)- أن تحدد مجالها وتعرف نفسها بنفسها.[2]

تمثل هذه الخطوات الركائز الأساسية لكل انطلاقة لسانية تُعنى بفهم ودراسة الظواهر اللغوية في التصور السوسوري، والغاية منها تحقيق قدر كبير وواسع من التعميم، وتأسيس دراسة لسانية قائمة بذاتها مستقلة عن الدراسات الأخرى ذات نتائج موضوعية. تكون وظيفة اللغة من خلالها أداة ووسيلة تواصلية ناجحة، يعتبر سوسور أنّ هذه القائمة من الخطوات <<يحركها حافزان أساسيان هما: البحث عن التعميم، وتأسيس علم نافع...والواقع أنّ

[1]- روي هاريس وتولبت جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص256.

[2]- ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبيرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص 108.

اللسانيات ستصبح نافعة إذا ما قُدِّمت أدوات للملاحظة شاملة بما يكفي، ودقيقة بحيث يستعملها جميع من لهم اهتمام باللغة>>[1].

يقوم تأسيس اللسانيات كعلم مستقل بذاته، على تحديد اللغة _بوصفها واقعة اجتماعية وأحد أهم تمظهرات مَلَكة اللِّسان_ كموضوع لهذا العلم الذّي انصب تركيزه على اللغة في مظهرها الشفوي وليس على مظهرها المكتوب (الكتابة)، لأنّ المظهر الشفوي يعطي صورة حقيقية للغة الطبيعية إذ تبرز فيه الأبعاد النفسية للمنطوقات والتعابير بجلاء في حين أنّ الكتابة تصيب اللغة بالجفاء؛ ويذهب سوسور من خلال هذا التمييز إلى أبعد من هذه النقطة إلى أنّه عدَّ اللغة(الشفوية، المنطوقة) مختلفة عن الكتابة، إذ تعمل هذه الأخيرة على تجريد اللفظ من الانطباع النفسي الذّي يميز كل كلمة أو جملة أو تعبير لفظي يتحدث به المرء وعليه يمكننا اعتبار أنهما <<نسقان مختلفان؛ مع أنّ المبرر الوحيد لوجود الثاني هو تمثيل الأول>>[2]؛ وعلى اللغويين الاهتمام باللغة في صورتها المنطوقة المسموعة وتخليصها من مظهرها الكتابي <<لأنّ من المفضل أن يحل ما هو طبيعي في محل ما هو مصطنع...وهذا هو هدف علم الصّواتة التّي تسمح بالانفلات من أوهام الكتابة>>[3].

يعد سوسور أول من طرح فكرة البِّنْيَة في مجال علم اللغة، إلاّ أنّه لم يُقدم هذا المصطلح ولم يستخدمه مطلقا، ولكنه عبر عنه بكلمة النسق والنظام ففي نظره تقوم الدراسة الجادة للظاهرة اللغوية على اعتبار اللغة بِّنية؛ وأنّ خصائصها الأساسية هي خصائص بنيوية[4]، أي أنّه قام بالتركيز على كيفية بناء اللغة والأجزاء التّي تدخل في تركيبها النسقي ككل متكامل تترابط أجزاؤه فيما بينها؛ تمثل هذه الأجزاء مجموعة الإشارات ذات الدلالات والأصوات المنطوقة والمسموعة، تتركب هذه الأصوات مع الأفكار لتكَوِّن لنا وحدات لسانية كالألفاظ والجمل تُعبر كل وحدة عن دلالة معينة، فاللغة عبارة عن <<نظام يتكون من عدة

---

[1] – المرجع السابق، ص108.

[2] – المرجع نفسه، ص116.

[3] – فردينان دي سوسور: علم اللغة العام، مرجع سابق، ص51

[4] – روي هاريس وتولبت جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص258.

نظم، وهي النظام الصوتي، الفونولوجي، المورفولوجي، النحوي، الدلالي وجميعها ذات وجود مستقل، ولكنها تصب في النهاية في نظام واحد متكامل ومتناسق هو ما نسميه النظام اللغوي>>[1].

المرتكز الرئيسي في نظرية سوسور هو نسقية اللغة، باستبعاد فكرة كونها معطى تاريخي إلى اعتبارها حالة داخلية مُشكلة من مجموعة من العلاقات النسقية والوظيفية؛ تُسيرها عدة نظم تمثل ركائزها ودِعامتها التّي بُنيت بها ولا شيء يأتيها من خارج هذه الدعامات. مع أنّ هذه النظم التّي تمثل دعامات البناء اللغوي تعتبر كلٌ متكامل تشكل لنا اللغة يمكن معه دراسة كل نظام على حدة فهناك علم دراسة الأصوات، وعلم الدلالة وغيرها، إلاّ أنّه لا يمكن دراسة اللغة بحصرها في نظام جزئي واحد من النظم المكونة لأنّها نظام لغوي متكامل.

إنّ السِّمة الحاسمة في البنيوية السوسورية تكمن في الفكرة القائلة أنّ البنية ذاتها تخلق الوحدات وعلاقاتها مع بعضها البعض؛ فالبناية أو البيت هو ذلك التصور الفكري الذّي جعلنا نشيد هذا الهيكل من الآجر والحجر والألواح[2]؛ يطبق سوسور الأمر نفسه على اللغة فكل إشارة لغوية لها بنيتها الخاصة ولا تؤثر التغييرات التّي تحدث فيها في بنيات الإشارات اللغوية الأخرى، فالتغييرات في بنية كلمة "كتاب" بالعربية لا تؤثر في"live" بالفرنسية أو"book" بالإنجليزية بالرغم من أنّ المعنى الذّي تمدنا به المعاجم والقواميس لهذه الكلمات الثلاثة هو معنى واحد.

اللغة نظام واحد متكامل ولا نتصور أنّ الأصوات والدلالات هي التّي تُشكل لنا العلامة اللغوية كمعطيات سابقة عليها بل على العكس فالعلامة اللغوية هي كل متكامل لا يتجزأ من الأصوات والدلالات. إنّ تصور اللغة قائم على أنّها بِنية للعمليات الذهنية لدى الأفراد الذّين يستعملونها، وكذلك بِنية للعمليات التواصلية التّي بواسطتها يؤدي مجتمع ما

[1] – جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، مرجع سابق، ص64.

[2] – روي هاريس وتولبت جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص259.

وظيفته كونه كيانا حضاريا[1]. وبالتالي فإنّ تتمثل أولا في كونها نظاما كليا متكونا من مجموع الإشارات والوحدات اللغوية والقواعد المركبة عرَفه الفرد وأتقنه داخليا وباستطاعته استخدامه بطريقة سهلة ومألوفة مع أنّه لا يستطيع إحداث التغيير فيه؛ ما يبرهن أنّ هذا النسق قد ترسخ في ذهن الفرد بصورة كلية، ومن ناحية أخرى هو يمثل ذلك النسق الذّي تم بموجب العقد الاجتماعي الذّي أنشأه أفراد مجتمع معين بغية تحقيق التواصل الفعال بينهم؛ ولهذا فهو دليل على التفوق الفردي مع وصولها إلى الذروة القصوى من التفوق لدى الجماعة ولهذا يؤكد سوسور أنّ اللغة <<لا تكتمل في أي فرد وحده، ولكنها توجد لدى الجماعة بدرجة الكمال>>[2].

[1] – المرجع السابق، ص260.

[2] – المرجع نفسه، ص261.

ثانيا: التصور البنيوي السوسوري للغة

1-اللغة بوصفها حقيقة اجتماعية ونظاما من القيم:

إذا ما نظرنا في التعريف الذّي قدمه سوسور للغة على أنّها نتاج المواضعة الجماعية فإننا نستنتج بأنّ اللغة في جوهرها ظاهرة بعيدة ومستقلة عن الفرد وتختلف باختلاف الجماعات الإنسانية لأنّها <<نتاج عقل جماعي لمجموعات لغوية>>[1]، هي تُعبر عن تجسيد لاتفاق جمعي بين عقول الأفراد الناطقين بلغة واحدة فالمتكلمون باللغة العربية هم يجسدون مواضعة بين الناطقين بالعربية، تتمثل هذه المواضعة في أنّها نتاج سلطة العقل الجماعي الذّي يجمعهم وتشمل هذه السلطة كل فرد أو مجموعة ناطقة باللغة العربية، ويتماثل الأمر مع كل لغات كالفارسية والإيطالية وغيرها.

تعبر اللغة عن أنّ هناك وعيا جماعيا يُنتج للفرد كلماته وتعابيره ويتحكم فيها ويتشاركها مع جميع المتكلمين بنفس لغته، في مشهد يغيب فيه دور الفرد في إنتاج هذه المنطوقات واستبدالها أو تغييرها إذ لا وجود لوعي فردي خارج عن الوعي الجماعي فكل الأفكار التّي يحملها أفراد مجتمع هي أفكار متشابهة. إذن تمثل اللغة واقعة من الوقائع الاجتماعية بحيث تكونت نتيجة الاتفاق الجمعي، وهي أحد المظاهر الرئيسية لملكة اللسان ولا يمكن دراستها بعيدا عن كونها منتوجا جماعيا لهذا فهي قابلة للوصف والدراسة العلمية لأنّ <<اللغة حقيقة اجتماعية>>[2]؛ لا يوقفها زمن ولا ينفيها تغير ما وهي بهذا المعنى برهان على تحقق الوعي الجماعي على أرض الواقع، وأنّ هذا الوعي يكون جماعة لغوية متجانسة من حيث تعلم واكتساب واستخدام هذه الظاهرة. ويعتبر المظهر الاجتماعي المميز والمكون للغة أحد أهم وأبرز الاختلافات التّي تميز اللغة بوصفها نظاما متكاملا عن الكلام الفردي الذّي يعد تابعا لها؛ إنّ اللغة عند سوسور هي شيء يتسلمه الفرد من المجتمع أي من الخارج وليست شيئا ينبع من الداخل فهي ليست معطى داخليا ذهنيا.

---

[1] – فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص23.

[2] – المرجع نفسه، ص24.

تتقارب هذه الرؤية السوسورية مع النظرية السوسيولوجية للعالم الفرنسي إيميل دور كايم الذّي كان معاصرا له ولعالم النفس النمساوي سيغموند فرويد؛ ولقد طرح دور كايم فكرة الحقائق الاجتماعية في <<كتابه قواعد الأسلوب الاجتماعي. وقال إنّ من واجب علم الاجتماع أن يدرس ويصف مجموعة من الظواهر التّي تتميز في نوعها عن ظواهر العالم الفيزيائي المادي، وعن الظواهر التّي يعالجها علم النفس، مع أنّها حقيقية أيضا شأنها شأن الظواهر المادية والنفسية الأخرى>>[1] فالأفراد المنتمون لجماعة معينة هم يخضعون لسلطة هذه الجماعة بوعي أو دون وعي منهم وتصرفاتهم وأفعالهم وحتى طرق تفكيرهم إنّما هي خاضعة لتلك السلطة وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها حسب دور كايم، كذلك في حالة اللغة عند سوسور كل واقعة لغوية هي واقعة اجتماعية تَتَحدد بالنفوذ والسيطرة الجمعية الخارجة عن إرادة الفرد؛ فيكون كل فرد متكلم ينتمي لجماعة لغوية معينة قد تثبت في وعيه الفردي مجموعة من الوقائع اللغوية _التّي أنتجتها هذه الجماعة_ وقَبِلَها بوعي منه أو من دون وعي وهو في حياته اليومية يستخدم هذه الوقائع اللغوية التّي اكتسبها من جماعته اللغوية؛ وهذا يدل على أنّ اللغات ليست إلاّ حقائق اجتماعية؛ فالمتكلم الإسباني يتكلم اللغة الإسبانية التّي تثبتت في عقله عن طريق اكتسابه لمجموعة من التعابير والكلمات والملفوظات من جماعته اللغوية الاسبانية، وسيركب الجمل على الطريقة اللغوية الاسبانية وليس على الإنجليزية أو الفرنسية.

إنّ اللغات في نظر سوسور ليست أفكار ولا أشياء معطاة مسبقا كما كان يُنظر إليها من قبل، فالألفاظ ليست تسميات لأشياء مادية ولا هي أفكار موجودة مسبقا في عقولنا؛ ولا مفاهيم جاهزة في الدماغ البشري لأنّ هذه النظرية خاطئة حسب رأيه، فلا وجود لمصطلح الفطرية والقبلية في التصور السوسوري للغة لأنّ مثل هذه المصطلحات تُضلل البحث اللساني أكثر مما تقدم له حلولا ولأنّ الألفاظ والمنطوقات تنشئها الجماعات اللغوية التّي ينتمي أفرادها إليها.

[1] – جفري سامسون، مدارس اللسانيات التسابق والتطور، مرجع سابق، ص36.

نادى سوسور بضرورة فصل الدراسة اللسانية عن باقي المجالات العلمية الأخرى واعتبر أنّه من الخطأ اعتبار علم اللسانيات فرعا من الفلسفة أو علوم الأحياء حيث كان يُنظر إلى اللغة ككائن حي ومادة عضوية تنطبق عليها الدراسة الطبيعية العلمية مثلها مثل الظواهر والوقائع الطبيعية ففي نظره، إنّ العلوم الطبيعية والتجريبية تتعامل مع الظاهرة المراد دراستها كمعطى مسبق ومادة حسية جاهزة للبحث إلاّ أنّ الدراسات اللسانية ليست كذلك فلا وجود لمواضيع جاهزة ومباشرة فيها _كما هو الحال في علوم الفيزياء، الكيمياء، وعلوم النباتات وغيرها_ <<لأنّ اللسانيات مناقضة تماما للعلوم التّي يمكنها الانطلاق من معطى الحواس...تلك العلوم تشتغل على موضوعات معطاة مسبقا بينما في مجالنا لا شيء يماثل هذا وخلافا للاعتقاد بأنّ الموضوع يسبق وجهة النظر، سنقول إنّ وجهة النظر هي التّي تخلق الموضوع>>[1].

تتعارض رؤيته اللسانية أيضا مع التصور الفلسفي المرتكز على أنّ اللغة تعبر عن الفكر ومصدرها الذات الإنسانية؛ في رأيه أنّ اللغة حتى وإن كانت ترتبط بالإنسان إلاّ أنّها ليست معبرة عن فكره وليس العقل مصدرها، فهي لا ترتبط بالذات الفردية إلا في الإطار الجماعي الذّي يعيش فيه؛ إنّها نشاط إنساني جماعي _والفكر ليس سوى جانب واحد منها_ <<تُظهر أعمالا مشتركة أو منفردة لقوى جسدية ونفسانية وعقلية>>[2].

يعطي سوسور أهمية قصوى للجانب النفسي في دراسة اللغة ويجعل من هذا الجانب أحد أعمدة بناء الظاهرة اللغوية، إذ يعتبر أنّ <<كل شيء في اللغة إنما هو في جوهره نفسي، بما في ذلك مادة اللغة ومظاهرها الآلية كالتغير في الصوت>>[3] فالذّي يتحكم في الكلمة ونطقها وكونها معبرة عن تصور ما إنّما هو ذلك الانطباع السيكولوجي الذّي يلفها.

---

[1] – ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص109.

[2] – لوبيك دو بييكير، فهم فرديناند دو سوسور، مرجع سابق، ص 92.

[3] – فرديناند دي سوسور، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص24.

إنّ اللغة نظام من العلامات اللغوية تُسيره وتتحكم فيه الأعراف والتقاليد المجتمعية؛ تُشكل هذه الأعراف الأفراد الذّي يكونون هذه المجتمعات فكريا، لغويا، ثقافيا، وسياسيا؛ ويكون هذا التشكيل الفردي بمثابة الصورة الكاملة والواضحة لهذا النظام الجمعي. وتعد اللغة بهذا المفهوم نتاجا جماعيا موروثا وحتى الأفكار التّي يحملها الأفراد متماثله تقريبا ولا تختلف إلاّ في القليل؛ تتجلى هذه الأفكار في الأصوات التّي تنطق بها ولهذا يعرف سوسور اللغة بأنها: <<فكرة منظمة مقرونة بالصوت>>[1].

الفكر عند سوسور ليست سوى <<كتلة غير متميزة لا شكل لها>>[2] أي أنّ الأفكار التّي يدعي العقليون بأنّها معطيات سابقة قبلية موجودة في العقل البشري ليست مما يُجانِب الصواب في أي نقطة، لأنّ الأفكار ليس كذلك إنّما هي كتل لا متمايزة غير واضحة الشكل مبهمة وغامضة وفي حالات كثيرة تكون لا معنى لها إلاّ إذا تم التعبير عنها بالكلمات والجمل المنطوقة؛ هذه الأخيرة هي الأداة والوسيلة الوحيدة لإخراج الفكرة من اللاّتميز الذّي تكون فيه إلى كونها حقيقة متجسدة في الواقع.

إذا كانت الأفكار كُتلا مبهمة لا شكل لها فإنّ الأصوات المقرونة ليست إلاّ كيانا ماديا لا معنى له قبل أن يرتبط بها، فالصوت ليس شيئا معطى مسبقا ولا مادة جاهزة وقالبا ثابتا للفكرة إنّما هو كيان مادي لا يأخذ صورته الكاملة إلاّ باقترانه بفكرة معينة؛ فهو إذن <<مادة مرنة تنقسم في كل حالة إلى أجزاء متميزة كتوفر الدوال التّي يحتاج إليها الفكر>>[3] فالصوت يتميز بالمرونة التّي تسمح له بالتشكل في صور متعددة والانقسام إلى أجزاء تتمثل في دوال تعبر عن مدلولات فكرية متعددة.

يمكن تشبيه اللغة بورقة: وجهها الفكرة وظهرها الصوت: لا يستطيع المرء أن يقطع الوجه من دون أن يقطع الظهر في الوقت ذاته. كذلك في اللغة لا يستطيع المرء فصل

---

[1] – المرجع نفسه، ص131.

[2] – المرجع نفسه، ص131.

[3] – المرجع السابق، ص131.

الصوت عن الفكر كما لا يستطيع فصل الفكر عن الصوت ولا يمكن تحقيق هذا الفصل إلاّ عن طريق التجريد[1]؛ أي دراسة كل من الفكر والصوت اللذين يُشكلان وحدة اللغة في مستوى تجريدي نفسي محض وليس مستوى ماديا لأنّ ما يتحكم بالدال والمدلول كمفهومين لغويين هو الناحية النفسية ما يفسر اعتباطية العلامة اللغوية المُشكلة منهما والتّي تعطي قيمة العلامة اللغوية، وإذا كان ديكارت يرى بأنّ اللغة مرآة العقل فإنّ سوسور من خلال مثال الورقة أكد أنّه من الاستحالة الفصل الجوهري بين الناحية الصوتية والفكرية في اللغة.

يصف سوسور اللغة بأنّها <<نظام من القيم>>[2]؛ إذ تتحدد هوية العلامة اللغوية بشبكة من العلاقات الترابطية الأفقية مع العلامات اللغوية الأخرى التّي تدخل معها في اللغة نفسها. يُطلق مصطلح القيمة على هذه المجموعة من العلاقات ويتمحور حول عمليتي المبادلة والمقارنة؛ بمعنى بأنّ اللفظ يمكن استبداله بشيء مختلف عن طبيعته كالتصور أو فكرة معينة أو يمكن مقارنته بلفظ آخر أو مجموعة من الألفاظ المقابلة له؛ ومن ثمة فإنّ القيمة في اللغة ليست ثابتة ولا مطلقة إنّما هي نسبية والقيمة في أي مجال <<تخضع على ما يبدو لمبدأ واحد، يظهر وكأنه ينطوي على تناقض. فهذه القيم تتكون دائما من:

(1)-شيء مختلف يمكن استبداله بالشيء الذّي نريد تحديد قيمته.

(2)-شيء مشابه يمكن مقارنته بالشيء الذّي نريد تحديد قيمته>>[3]

تتحدد قيمة أي عنصر في الكلمة بشكل مباشر أو غير مباشر على قيمة العناصر الأخرى التّي تَتحد معه وتكوّن هذا اللفظ، فقيمة الحرف أو مجموعة الحروف والفونيمات المكونة لكلمة ما إنّما تظهر واضحة في اتحادها وتشكيلها لها، ولا قيمة لفونيم ولا لحرف

[1] – المرجع نفسه، ص 132.

[2] – المرجع نفسه، ص131.

[3] – المرجع السابق، ص134.

بعيدا عن العناصر الأخرى التّي كَونت معه هذا اللفظ ولذلك فإنّ <<قيمة أي عنصر لغوي تعتمد على العناصر التّي يتقابل معها>>[1].

2-اللغة نظام من العلامات:

تعد اللغة في التصور السوسوري <<نظاما من الدلالات يعبر عن أفكار، ومن ثم، فهي قابلة للمقارنة بالكتابة؛ وبأبجدية الصم والبكم، وبالطقوس الرمزية، وصيغ التأدب، والإشارات العسكرية...إلخ، إلاّ أنّها أهم هذه الأنساق>>[2]؛ وهكذا تكون اللغة بمثابة الكُل المركب من أجزاء، تُشكل معا نظاما خاصا من العلامات التّي تُعد عنصرا أساسيا في الدراسة اللسانية السوسورية والتّي يُسميها بالسيميولوجيا؛ ويرى سوسور أنّ اللغة <<تُمثل نظاما سميولوجيا متكاملا للإشارات ثنائية الأوجه...وبسبب إتقان البشر لمثل هذا النظام السميولوجي أصبح بإمكانهم التواصل لغويا مع الآخرين الذّين يُشاركونهم النظام نفسه، وكذلك التفكير التحليلي للعالم الذّي يعيشون فيه>>[3]

تعتبر العلامة اللغوية (الإشارة) في منظور سوسور مفتاحا لدراسة اللغة الطبيعية، وقد تكون العلامة لفظا أو جملة نعبر بها عن فكرة أو معنى معين بصوت منطوق تكون العلامة اللغوية <<وحدة أساسية في عملية التواصل بين أفراد مجتمع معين، وتضم جانبين أساسيين هما: الدال والمدلول>>[4]، يمثل هذان الكيانان طرفي العلامة اللغوية وهما <<ذو طبيعة سايكولوجية؛ يتحدان في دماغ الإنسان بآصرة التداعي (الإيحاء)>>[5].

يمثل الدال الصورة الصوتية للعلامة اللغوية؛ وهو الصوت المسموع من الكلمة أو الجملة إلاّ أنّ هذا لا يعني بأنّ الصوت لوحده هو الدال بل على العكس؛ يمثل الصوت أحد

---

[1]- جفري سامسون، مدارس اللسانيات التسابق والتطور، مرجع سابق، ص41.

[2]- ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص111.

[3]- روي هاريس وتولبت جي هيلر، أعلام الفكر اللغوي، مرجع سابق، ص257.

[4]- أحمد مومن، اللسانيات والتطور، مرجع سابق، ص127.

[5]-فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص 84.

جوانب الصورة الصوتية وهو الجانب الفزيائي المادي وتتدخل في هذا الجانب أعضاء النطق الفيزيولوجية. وجوهر الصورة الصوتية هو الجانب السايكولوجي أو الصورة النفسية ويقصد بها سوسور <<ذلك الانطباع أو الأثر الذّي تتركه في الحواس...تصبح واضحة عند ملاحظتنا للساننا. فنحن نستطيع أن نتكلم إلى أنفسنا، أو نتلو في ذهننا قصيدة، من غير أن نحرك شفاهنا>>[1]؛ فالصورة الصوتية لكلمة يتلقاها مستمع ما، إنما هي ذلك الإحساس الذّي يحمله الصوت الحامل لها والذّي يتلقاه المستمع؛ زد على هذا فإنّ الإنسان يُجري مئات المحادثات مع نفسه يوميا دونما أي ينطق بكلمة واحدة؛ وهذا الحديث إنّما ناشئ من إحساسه النفسي فقط وهذه حقيقة لغوية حسب رأيه. تحمل الصورة الصوتية ناحيتين؛ إحداهما أكثر أهمية في الدراسة اللغوية من الأخرى وهي الناحية السايكولوجية (النفسية) للصورة الصوتية؛ وثانيهما الناحية الفيزيائية المادية (الصوت).

يُشكل المدلول الطرف الثاني في العلامة اللغوية وهو الفكرة أو التصور الذّي تقابله الصورة الصوتية، هذه الأخيرة والتّي تكون أقل تجريدا من الفكرة تُكوِن هذه الأخيرة المعنى والتصور الذّي تحمله الإشارة اللغوية والتّي تتميز بطابعها النفسي؛ ولهذا يجب أَلاَ نفهم أنّ التصور أو الفكرة هي كيان له وجود عقلي محض أي أنّها معطى موجود مسبق، فمفهوم المعطيات المسبقة والكيانات القبلية ليس لها مكان في المنظور السوسوري ولا قيمة لها لأنّ العقل الفردي ما هو إلاّ ورقة سَطر فيها العقل الجماعي الأفكار والتصورات التّي تبقى مجردة من الوضوح حتى تتحد مع الأصوات ليُشكلا معا الكلمات والتعابير؛ ويمكن التعبير عنهما بالرسم الآتي[2]:

[1] – المرجع نفسه، ص85.

[2] – المرجع السايق، ص 85.

فكرة

صورة صوتية

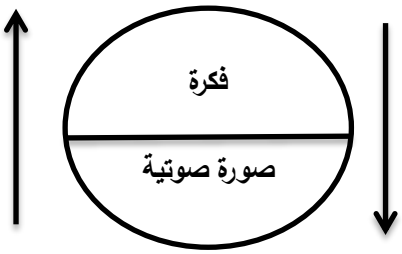

إنّ العلاقة بين الدال والمدلول يحكمهما مبدأ أساسي هو مبدأ الاعتباطية؛ ويعني بها سوسور أنّها تعسفية وغير ضرورية وبرهانه في هذا أنّ كلمة <<أخت لا ترتبط بأية علاقة داخلية مع الأصوات أ–خ–ت، التّي تقوم مقام الدال بالنسبة إليها؛ وحجته عن إمكانية تمثيل هذه الفكرة بأي تعاقب آخر يستمدها من الاختلافات القائمة بين اللغات ومن وجود لغات مختلفة أيضا>>[1] فكلمة أخت في العربية يمكن التعبير عنها بأصوات تختلف عن الأصوات التّي نعبر بها في الإنجليزية (sister) والفرنسية (soeur) هذا التباين بين الأصوات التّي تتجلى في صورة الدال تبين لنا أنّ اختلاف اللغات بين الجماعات اللغوية إنّما هو دليل على اعتباطية الإشارة اللغوية (الدال، المدلول).

يعتبر سوسور بأنّ العلامة اللغوية تتميز بصفتين قد تبدوان للوهلة الأولى أنهما متناقضتان هما صفتا الثبات والتغير وهما؛ أولا أنّ العلامة اللغوية عادة ما تميل إلى الثبوت، لأنّ ثمَة قوى تعمل على منع التغير اللغوي وتقاوم التبادل الاعتباطي ولعل أهم هذه القوى والأسباب التّي تساعد على ثبوتية الإشارة اللغوية هي أنّ اللغة هي موروث جماعي فالعلامات المكونة لهذه اللغة لا يمكن للأفراد التغيير فيها لأنّ الدال والمدلول يخضعان

[1]– أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، مرجع سابق، ص 128.

لسلطة الجماعة وليس لسلطة الأفراد؛ وقد أَجْمَلَ سوسور عوامل ثبوت الإشارة اللغوية في أربعة عناصر وهي:

_ اعتباطية وتعسفية الإشارة اللغوية تحول دون تغيير للإشارة اللغوية لأن قيام هذه الإشارة لا يحتاج إلى أساس ضروري منطقي بمعنى أنّ كل لفظة لا تدل شيء محدد بعينه.

_ كثرة الألفاظ والمفردات في كل لغة من لغات العالم يساعد في ثبوتها وعدم تغيرها بسهولة.

_ التعقيد الذّي يميز اللغة كنظام وبنية من العلامات شديدة التعقيد يجعل من متكلمي هذه اللغة استحالة تغييره مع أنّهم يستخدمونه بشكل يومي وبصورة عفوية مع أنّهم يجهلون تماما كيفية عمل هذا النظام وحتى المختصون منهم في مجال اللغويات والنحو فإنّهم يلقون صعوبة كبيرة في فهم كيفية عمله.

_ ميل المجتمعات للحفاظ على ما ورثوه وما اتفقوا عليه هو أحد الأسس المساهمة في ثبوت العلامة اللغوية، لأنّ اللغة نتاج جمعي موروث والناس بطبعهم يميلون إلى الحفاظ على ما ورثوه فيصبح هذا الحفاظ نوعا من الخمول وعدم الاكتراث نحو التجديد لأنّها ترتبط بالاستخدام اليومي للأفراد[1].

يرى سوسور أنّ الزمن (الوقت) له تأثير مهم في استمرارية ثبوت العلامة اللغوية بيد أنّه سبب رئيسي أيضا في تطورها وتغيرها، قد يبدو هذا أمرا متناقضا لكن فرديناند دو سوسور يعتمد هذا الرأي ويدافع عليه، إذ يساعد الزمن على تغير الإشارة اللغوية تدريجيا من دون تخطيط لها أو في لحظة مفاجئة إنّما يتم شيئا فشيئا ولا يتم الانتباه له إلاّ بعد مرور زمن كبير على ثبوت الإشارات التّي تم إحلالها مكان الإشارات السابقة، ويتم التغيير والتطور في مستوى العلاقة بين الدال والمدلول أو فيهما معا وليس في أحدهما فقط؛

[1] – فرديناند د سوسر، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص ص92،91.

فتحدث التغيرات في <<أشكال المفردات ومعانيها...التغيرات الصوتية التّي تصيب الدال، أو تلك التغيرات في المعنى التّي تصيب المدلول>>[1]

يرجع سوسور سبب حدوث تلك التغييرات إلى العديد من القوى وتاريخ اللغة وخاصة تاريخ المفردات، وتخضع اللغة لهذا التغير بطريقة حتمية لا يمكن مقاومته أو رفضه لأنّه يتم أولا من دون وعي كامل للجماعة اللغوية وأفرادها؛ ويمكن تلخيص الأسباب والقوى الرئيسية المتحكمة في تغير العلامة اللغوية هي:

_ العلاقة بين الدال والمدلول: هي أهم المحركات الأساسية لتطور وتبدل العلامة اللغوية، فالتعدد والكثرة والتغير الذّي تتميز به المفردات في اللغات الإنسانية ينجم عنه بالضرورة تغير في المفاهيم والتصورات التّي تحملها تلك المفردات، وهذه إحدى نتائج الطبيعة الاعتباطية للعلامة اللغوية وهو افتقارها للأساس المنطقي حسب سوسور.

_ الزمن: هو ثاني أهم القوى المتحكمة في تغير الإشارة اللغوية حتى وإن كان التغير يتم بصور تدريجية ولا يحدث مرة واحدة في زمن واحد؛ وبما أنّ للزمن غير ثابت وهو في ديناميكية واستمرارية دائمة فإنّ هذه الديناميكية تدفع بالإشارات اللغوية إلى التبدل وتغير مواقعها أو تركها نهائيا؛ <<فالتغير أمر لا مناص ولا توجد لغة واحدة في العالم تقاومه، فما إن تمضي فترة من الزمن حتى تدون بعض التغييرات الواضحة>>[2].

_ الاستخدام اليومي للعلامات اللغوية من قبل الأفراد يساهم بتغير الألفاظ والمفردات وحتى المدلولات الكثيرة في أي لغة من اللغات، والأمر لا يقتصر على اللغات الطبيعية فقط بل يتعدى هذا الأمر إلى اللغات الاصطناعية (الرمزية الرياضية أو غيرها...)أيضا، <<فمن يخترع لغة ما يستطيع السيطرة عليها قبل أن توضع موضع الاستخدام ولكن ما إن تدخل

[1] – أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، مرجع سابق، ص129

[2] – فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص 94.

مجال الاستخدام لتحقق الغاية التّي وضعت من أجلها حتى تصبح ملكا لجميع الأفراد، فيفقد صاحبها السيطرة عليها>>[1].

[1] – فرديناند دي سوسور، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص94.

ثالثا: النقد التشومسكي للتصور السوسوري البنيوي للغة

1/- فاعلية الذات الإنسانية في العملية الكلامية:

يؤكد سوسور بأنّ الإنسان كائن اجتماعي بكل ما تعنيه الكلمة من معنى أي أنّه فرد متشبع بالقيم والعادات والثقافة الاجتماعية التّي ينشأ فيها، سلوكياته وأقواله وأفعاله ليست سوى نتيجة حتمية لما أخذه وتعلمه من محيطه الاجتماعي، حتى أفكاره الداخلية الذهنية وصيغ التعبير عنها وانطباعاته النفسية كلها مأخوذة من ذلك المنطلق؛ إنّه باختصار عجينة صَنعتها وشكَّلتها الجماعة التّي ولد ونشأ فيها؛ يتعارض موقف تشومسكي مع هذا التصور السوسوري ويقف موقف الضد منه وهذا لاعتباراته العقلانية الممجدة للذات الإنسانية وللغة البشرية بوصفها خاصية ذهنية فطرية.

يعتبر تشومسكي أنّ سوسور نظر للفرد نظرة تقزيمية جدا، إذ جعله شبيها بآلة خرقاء تقوم بإعادة تكرار ما يُملى عليها من أوامر اجتماعية، وهذا غير صحيح مطلقا. صحيح أنّ الفرد يستأنس بوجوده ضمن جماعته لأنّه جزء من الكل الذّي يكوِنونه، ولأنّ العيش الإنساني قائم على مبدأ التفاعل والتناغم بين الأشخاص وجماعتهم؛ لكن هذا لا يعني أنّ هؤلاء الأفراد المنتمين لجماعتهم يُعتبرون نسخا عن بعضهم البعض، مثلما يُنظر إليهم في التصور السوسوري، فحتى وإنْ كان الأفراد جزءً من النظام الاجتماعي الموروث [=تقاليد، أعراف، ثقافة، سلطة] فهذا لا يعني أنّهم سيتعاملون مع كل الأحداث والمتغيرات وفق هذا النظام.

إنّ الفرد الإنساني ليس آلة تُسيرها أوامر وقوانين الحتمية الاجتماعية التّي تمثل سلطة على كل من ينتمي إليها؛ لأنَّ الفرد فاعل حر ذو إرادة فاعلة ووعي يُمَكِّنه من إحداث التغيير وتقديم الجديد الأصيل الذّي يُخالف حتى جماعته. حسب تشومسكي لقد خلَّصنا ديكارت من تلك الأفكار التّي ترى بأنّ الإنسان كائن خاضع متحكم فيه تنطبق عليه القوانين الحتمية الميكانيكة، لأنّ تصرفاتنا كبشر ذوي عقول <<حرة وغير محددة، وهو ما يعني أنّ

بإمكاننا ألا نعمل ما نُحَث ونُوجه إلى عمله، فإنّ شيئا من حرية الاختيار ما يزال يدخل في ذلك>>[1].

قد تكون البنيوية السوسورية نظرية متعلقة باللغة إلاّ الطرح اللغوي الذّي قدمته على أنّ اللغة حقيقة اجتماعية، يبرهن على أنّ الإنسان لا يتحكم في اللغة، ولا دور للمتكلمين في العملية الكلامية سوى إعادة ما تعلموه. <<...فالنظرية السوسورية أحدثت، بدراستها اللغة موضوعا مجردا، ونسقا نوابضه خارجة عن الفرد وعن الواقع المادي، أثرا تدميريا للفاعل البسيكولوجي الحر والواعي>>[2]، لقد أُلغي دور الفرد المتكلم تماما بل وأُقصي معه الوعي الإنساني المتحكم في الكلام والأفعال الشخصية وبهذا تكون نظرة سوسور تجاه الذات الفردية ودورها الفعلي في العملية اللغوية نظرة آلية اجتماعية وإقصائية للعقل الفردي.

يرى تشومسكي أنّ البنيوية السوسورية هدمت دور العقل الفردي تماما وجعلته تابعا للبنية المجتمعية بحيث تصورت أنّ العقل الفردي هو نسخة مصغرة عن العقل الجماعي فالأفكار الموجودة في عقول الأفراد هي تلك الأفكار التّي يسمح بها المجتمع ويقبلها فقط، وهذا مخالف للحقيقة فمن الاستحالة منطقيا أن تكون مجموع الأفكار الموجودة في عقول أفراد مجتمع معين هي نسخ متطابقة عن بعضها البعض، فالناس ليسوا حواسيب أو آلات بحيث يمكن تعبئة برامجهم بطريقة متطابقة ومتماثلة. حتى في مجال اعتبار أنّ اللغة وسيلة للتعبير عن الفكر فلقد تعارضت وجهات نظر اللغوِيَيْن _تشومسكي وسوسور_ فالأول يعتبر أنّ الفكر قوة ذهنية موجودة بصورة فطرية جينية في تصميمنا الجيني؛ وأنّ القدرة على إنتاج الأفكار هي من الملكات الإنسانية الخالصة نعبر عنها بواسطة اللغة، أمّا الثاني فلقد نظر للفكر على أنّه كتلة هلامية تتخذ شكلها فقط وقفا لاتحادها مع الصوت الذّي بدوره يمثل كيانا ماديا فيزيائيا تتبلور اللغة من خلال هذا الاتحاد الفكري الصوتي.

---

[1] – نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص202.

[2] – ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص105.

اللغة ليست منتوجا جمعيا ولا موروثا ماضويا يتبناه الفرد من الجماعة اللغوية التّي نشأ فيها، إنّها فوق هذا المستوى السطحي من الوصف إنّها نشاط ذهني وموروث جيني موجود في العقل/الدماغ الإنساني؛ فبفضل المقاربة اللسانية الفلسفية البيولوجية قدم لنا لتشومسكي تفسيرا بخصوص دراسة اللغة في نظريته النحوية التوليدية؛ مخالفا بذلك البناء السطحي للغة الذّي ركز عليه معظم البنيويين.

يتمثل عمق النحو التوليدي التحويلي في أنّه ركز على فهم اللغة من ناحية أنّها جزء من البنية العقلية الداخلية للإنسان تتصف بكونها ملكة جينية بشرية؛ أي أنّ كل إنسان في هذا العالم يولد وهو مزود بنظام عقلي يتضمن ذلك استعدادا جينيا للكلام، ولذلك فإنّ المجتمع الذّي يولد فيه الفرد ليس سوى محيط تظهر فيه هذه الملكة بصورة مجسدة وظاهرية. ناهيك على أنّ الذهن/الدماغ البشري أعقد بكثير من أن يتم النظر إليه على أنّ أبسط عضو فيزيولوجي وبنيته التركيبية معقدة للحد الذّي يجعلها محور النظر والتفسير اللساني والعلمي؛ وأنّ الأعضاء المسؤولة عن الكلام والأصوات المنطوقة ليست سوى تبعات ظاهرية وسطحية عرضية لجهاز داخلي ذهني عميق مسؤول عنها، فحتى الصم البكم الذّين لا يستطيعون الكلام وإحداث الأصوات المنطوقة والمسموعة كالأشخاص العاديين ابتكروا طريقة خاصة بهم للتعبير، تُمكِّنهم من فهم بعضهم البعض ومن فهمنا لهم وهو ما نسميه اليوم لغة الصم البكم، أليس هذا دليلا على أنّ جهازهم العقلي والحالة الذهنية الأولى المسؤولة عن اللغة تعمل لديهم بشكل عادي.

يُمثل المجتمع بيئة فقيرة جدا بالمقارنة مع الثراء الذّي يتميز به كلام الفرد؛ حتى الطفل في سنواته الأولى تكون لغته ثرية وغنية جدا مع أنّ احتكاكه بمحيطه اللغوي محدود جدا وهذا ما عبر عنه تشومسكي بمشكلة أفلاطون، مُقرًا <<أنّ ما يُقدم إلى الطفل أو يعرض له هو نوع من التنوع المحدود للمادة اللغوية التّي على أساسها يبني عقله بما يتضمنه من الحالة الأولية لغة مبنية داخليا تحدد وضع كل تعبير>>[1]. تمَكِن هذه الحالة

[1] –نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص92.

الذهنية الأولى في مرحلة نضجها بأن يتكون لدى المتكلم/المستمع طاقة هائلة لتكوين الجمل وتركيب التعابير اللفظية الملاءمة للمواقف والأحداث التّي يقابلها في حياته، إذ أنّ الملاءمة هي إحدى الخواص الملازمة للغة البشرية.

إنّ الجدة والأصالة في اللغة البشرية تنفي تماما مبدأ المواضعة السوسوري الذّي وضعه كشرط ضروري للتواصل الكلامي بين الأفراد، حسب تشومسكي يتصور السوسوريون بأنّ كل فرد متكلم/ مستمع ينشأ في جماعة لغوية متجانسة تماما[1]، أي أنّ الكلمات والجمل والتعبيرات اللفظية الحاملة للمعاني هي متماثلة عند كل فرد ينتمي لهذه الجماعة؛ وحتى التراكيب اللغوية التّي يعتمدها المتكلمون في تبليغ أفكارهم هي أيضا متماثلة وهذا غير ممكن، يُثبت لنا التمعن في الكلام المتبادل واللغة على اختلافها أنّ بني البشر يمتازون بالابتكارية في نمط تواصلهم اللغوي وهذا عكس ما يوجد لدى الأنواع الحية الأخرى التّي تتميز أنماط تواصلها بالغريزية، فهي لا تطور من أسلوب اتصالاتها إلاّ في حالات من الضرورة القصوى والتّي تستلزم التكيف والحاجة إلى حفظ البقاء، لكنها مطلقا لا تستطيع تحقيق نمط كلامي مثل كلام البشر ؛ ولا تقدر أن تُبدع في هذا النمط التواصلي الغريزي لأنّ كل إشارة لها تفسير محدد بحكم المثيرات والمحفزات في هذا النمط، غير أنّ البشر عكس ذلك تماما.

إن كانت اللغة تُفهم عند البشر على <<أنّها منظومة غير متناهية (جمل، كلمات..) من مجموعة من الحروف المتناهية>>[2] إلاّ أنّ هذا لا يعني أنهم يستخدمونها بنفس الطريقة ونفس الصيغة ونفس المعاني، إنّ اللغة نشاط توليدي خلاق ومبدع لهذا السبب ينفي تشومسكي مبدأ المواضعة السوسوري. اللغة إذن عند تشومسكي نظام معرفي ونسق ذهني فطري؛ أمّا عند سوسور فهي نشاط إنساني قائم على التفاعل الجماعي وهو نتاج التجربة

[1] – المصدر نفسه، ص 74.

[2] – نعوم تشومسكي، أصول النحو التوليدي كما يراها تشومسكي 'مقدمة كتاب البنية المنطقية للنظرية اللسانية'، مصدر سابق، ص87.

الاجتماعية والخبرة المشتركة بين أناس يتشاركون نفس الجغرافيا المكانية وكذلك الثقافة، الدين وغيرها؛ يجمعهم لسان واحد وهي ليست فطرية ولا معطى عقليا قبليا.

تتخالف التوليدية التشومكسية مع البنيوية السوسورية وتتجاوزها في عدة جوانب أهمها: <<أنّ التوليدية تتضمن البنيوية كمقاربة لبعض الظواهر (نسقية اللسان وإمكانية عزله عن أنساق كلامية أخرى، والتمييز بين اللغة واللسان...)؛ لكنها تتجاوزها حينما تتعارض معها في مقاربة ظواهر أخرى لتفضي إلى نتائج مختلفة بخصوص تصور حقيقة اللغة وعملية الاكتساب والإبداع اللغوي والاهتمام بالكليات وبأولوية اللغة عن اللسان..>>[1]؛ ويرى تشومسكي أنّ الدراسة اللسانية السوسورية قد ركزت على دراسة اللغة كنسق؛ ونظام خاص بالإنسان ضمن جماعته وقامت بتشييد صرح علمي ومعرفي لدراسة هذا النسق إلاّ أنّها اهتمت فقط بالجانب السطحي للغة، وأهملت تماما دور البنية العميقة الداخلية لها على الرغم من أنّ هذه الأخيرة هي أساس البحث اللساني بالإضافة إلى فقر الملاحظات والنتائج التّي ينتهي إليها المنهج الوصفي للغة وعدم كفايته، ولهذا <<يرفض تشومسكي التصور البنيوي وينتهي إلى الحكم عليه بأنّه تصور فقير ولا يحقق أي مستوى من مستويات الكفاية، لأنّ البنيوية لا تهتم إلاّ بالمستوى السطحي للسان ولا ترصد القواعد المستنبطة التّي تتحكم في عملية الإبداع اللغوي>>[2].

2/-اللغة نسق معرفي بدلا من كونها نسقا من العلامات والقيم:

اتجهت اللغويات البنيوية حسب تشومسكي إلى <<تصور اللغة كمجموع من الأحداث أوالمنطوقات (كالكلمات والجمل) يُزواج بينها وبين المعاني، أو كنظام من الأشكال أو الأحداث اللغوية... ففي البنيوية السوسوسرية أُخذت اللغة على أنّها نظام من الأصوات يرتبط به نظام من الأفكار. وتُرك مفهوم الجملة في مكان أشبه بزوايا النسيان>>[3]، فهي

[1] – محمد محمد العمري، الأسس الابستيمولوجية للنظرية اللسانية، مرجع سابق، ص 134.

[2] – المرجع نفسه، ص116.

[3] – نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص ص 77،78.

ركزت فقط على الجانبين الصوتي والدلالي اللذين يتميزان بكونها نفسيين، فلقد اهتمت تلك اللسانيات بالكلمة أو الجملة على أنّها كيان نفسي فقط قائم على جزأين هما الصورة الصوتية والتصور المرافق لها، مهملة بذلك جانبًا أهم بكثير من هذا وهو مما تتكون هذه الجملة نحويا بغض النظر عن معناها أو صورتها السمعية لأنّ الجملة مثلها مثل الكلمة والحرف لها أهمية ووزن كبير في بناء اللغة <<فيجب، لكي نفهم جملة ما، أن نعرف تحليلها في كل مستوى لساني، ونفهم تمثيلاتها بمعايير البنية المركبية والبنية التحويلية اللتَّيْن تعملان بصفتهما الآليتين التركيبين الكبريين المتوفرين في اللغة لغرضي التنظيم والتعبير عن المحتوى.

تهتم الدلالة بمشكلات المعنى والإحالة وبالاستعمال المطرد للآليات التركيبية المتوفرة في اللغة>>[1]؛ فبناء الجملة لا يعتمد فقط على الصوت المنطوق الذّي يُصرح بها وعلى الانطباع النفسي الذّي يحدثه هذا الصوت. إنّما يتم فهم بنية الجملة في نظر تشومسكي من خلال مستويات التحليل والتركيب اللغويين واعتمادا على البنية العميقة لها القائمة على معياري التركيب والتحويل اللذين يعملان على نقلها من المستوى الداخلي إلى المستوى السطحي الذّي نسمعها به؛ وأمّا دلالة الجملة فلا تقتصر على ذلك التصور الذّي يدعوه سوسور بأنّه تصور لا متمايز وغير عقلي.

ينتقد تشومسكي التصور السوسوري المعارض لمسألة كون الألفاظ والأشياء معطيات مسبقة، ويرى أنّ التصورات ليست نفسية ولا اجتماعية إنّما هي في مجملها معطيات نملكها مسبقا، قائلا : <<أنّ الطفل تتوفر لديه بكيفية ما بعض التصورات من قبل أن يمر بالتجربة مع اللغة، وأن ما يقوم به أساسا ليس إلاّ تعلم أسماء لتلك التصورات التّي تكوِّن جزءا من تركيبه التصوري المسبق>>[2]. إن كون هذه التصورات ذات أساس فطري قبلي يُفسر تعلم

---

[1] – نعوم تشومسكي، أصول النحو التوليدي كما يراها تشومسكي 'مقدمة كتاب البنية المنطقية للنظرية اللسانية'، مصدر سابق، 112.

[2] – نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص46.

الأطفال للمفردات والكلمات بسرعة كبيرة واستعمالها أيضا بطلاقة وبالتالي هذا دليل على الوفرة المعجمية التّي يتميز بها القاموس اللغوي للطفل، فمن غير الممكن أن نفسر ونصف القوة والكثرة التّي يتميز بها المعجم اللغوي بكونه ليس إلاّ تراكمات عند الفرد نتجت عن المواضعة الاجتماعية، لأنّ المعجم يتميز بكونه ذا مبادئ ذهنية محددة ومحدودة، والتّي تسمح في الوقت نفسه باللامحدودية في إنشاء وإنتاج الكلمات والجمل، وهذه أحد أهم مميزات الخِصِّيصة اللانهائية التّي تجعل من اللغة مجموعة لا متناهية وغير محدودة من الجمل التّي تتحكم فيها مبادئ محدودة.

حتى الصوت الذّي نظر إليه سوسور بكونه كيانا فيزيائيا لا شكل له إلاّ من خلال الانطباع البسيكولوجي الذّي يضفي على العلامة اللغوية فعاليتها، فإنّه لم يحدد الجانب المهم في دراسته؛ فهو لا يقل أهمية عن الفكرة والتصور بوصفه شكلا خارجيا وظاهريا لبنية اللغة وذو قواعد محددة تتحكم في طريقة تركيب الأصوات، وتآلفها لتكوين الملفوظات وإدراجها ضمن السياقات المختلفة للكلام وأسلوب التعبير ؛ وتلعب هذه القواعد دورا مهما في إتمام العملية الكلامية فنجد أن صيغ الاستفهام والتعجب والإخبار تختلف عن بعضها البعض في مستويات مختلفة منها التعبير الصوتي الخاص بكل واحد منها؛ يرى تشومسكي أنّ <<اكتساب قواعد البنية الصوتية يعتمد على مبادئ محددة تحكم الأنظمة الصوتية الممكنة للغات البشرية، وتحدد العناصر المكونة لها والطريقة التّي تتألف بها، والتغيرات التّي تحدث لها في السياقات المختلفة. وتشترك اللغات الإنجليزية والاسبانية والعربية واللغات البشرية الأخرى في هذه المبادئ، كما يستعملها بطريقة غير واعية الشخص الذّي يكتسب أية واحدة من هذه اللغات، وهي جزء من الملكة اللغوية الفطرية أي أنّها إحدى مكونات العقل/الدماغ>>[1].

إنّ اللغة نسق معرفي تتداخل في بنيته وتركيبته مجموعة هائلة من الأجزاء كل منها له دور وأهمية لا تقل عن الأخرى؛ تتعدد هذه الأجزاء في مبادئ وقواعد وتصورات

[1] – المصدر السابق، ص ص43،44.

وأصوات وآليات مسؤولة عن التركيب والتحويل والتوليد وعناصر أخرى غير أنّ ما يُميز هذا النسق هو أنّه ذهني فطري داخلي يجب التركيز في دراسته على هذا الجانب؛ بالإضافة إلى عدم حصره في جزء واحد أو دراسته من جهة واحدة فقط.

يتقارب المفهوم التشومسكي للبنية في اللغة مع التعريف السوسوري الذّي يراها نسقا من العلامات؛ ويعتبر الكثير من اللسانيين والمشتغلين بميدان علم اللغويات أنّ تشومسكي يدين بالكثير للمذهب البنيوي وخاصة للبنيوية السوسورية ويعتبرونه أحد البنيويين المعاصرين؛ غير أنّ النسق [=البنية] عند تشومسكي قائم على فكرة كلية اللغة وشمولية النحو عند البشر، أمّا عند سوسور فهو مفهوم يرتكز على أنّ كل لغة من اللغات الأخرى هي تَجلِ لخبرة جماعية خاص، بالإضافة إلى لها نظاما نحويا خاص.

فشلت اللسانيات السوسورية على حد رأي تشومسكي في إعطاء وصف وتفسير علمي لعمليتي اكتساب واستعمال اللغة عند الأفراد، بسبب اعتماد هذه اللسانيات على الوصف الخارجي للغة، وحصر الدراسة اللغوية على قضية التمايز بين اللغات الإنسانية نحويا وصوتيا، والتركيز على عملية التصنيف للجمل وتقسيمها ويتمثل <<بؤس التصور البنيوي للعلم وهو الذّي شكل أساس الرفض أو الدحض بالأصح. حيث يتصور أنّ العلم عبارة عن نشاط لا يتجاوز حدود الملاحظة وقابلية التحقق، وحيث الهدف هو الجمع والتصنيف لا الافتراض والتفسير>>[1].

يتصور سوسور أنّ الاستعمال اللغوي هو مجرد عملية تركيب بين الكلمات والألفاظ ووضعها ضمن سياق معين، بالنسبة إليه لا يُعد <<استخدام اللغة أكثر من مجرد مسألة لاستخدام الكلمات والتعابير>>[2]، وهذا تفسير يجعل من عملية الاستخدام عملية آلية مملة فهي وضع الكلمات في مواضع يفرضها الحديث والسياق فقط، وهذا غير منطقي لأنّ استعمال اللغة تتدخل فيه مجموعة من القواعد الضِّمنية الموجودة داخل ذهن/دماغ المتكلم

[1]– محمد محمد العمري، الأسس الإبستيمولوجية للنظرية اللسانية، مرجع سابق، ص 133.

[2]–Naom Chomsky, Aspects of the theory of syntac, p08.

المستمع؛ والتّي تتمثل مهمتها الأساسية في إنتاج وتوليد وفهم الألفاظ والجمل اللانهائية واستعمالها استعمالا صحيحا لأنّ <<اللغة هي استخدام لامحدود لوسائل محدودة>>[1] وهذه هي السمة الإبداعية التّي تتميز بها اللغة الإنسانية.

إنّ الإبداع الخلاق الذّي يميز الاستعمال اللغوي يلغي مبدأ القياس الذّي اعتمده السوسوريون _والذّي تبناه بعدهم اللغويون من المدرسة السلوكية_ فمن غير المعقول أن تكون التعابير التّي يكونها الأطفال والمتكلمون بصفة عامة قد تم تكوينها قياسا لما سمعوه من قبل الجماعة اللغوية التّي نشئوا فيها. ضف إلى ذلك أنّ الكلمات التّي يتلفظها الطفل تكون في أغلبها سليمة ومفهومة خاصة عند وصوله مرحلة النضج للغته الخاصة (إسبانية، أو عربية، فرنسية...) والحكم على سلامة هذه الجمل والتعابير لا يعود إلى الجماعة اللغوية بل إلى القدرة الفطرية الموجودة في الجهاز العقلي لكل متكلم، ومنه يكون <<المعيار اللغوي في الحكم على الملفوظات في التنظير السوسوري هو الجماعة، أمّا عند تشومسكي فهو حدس المتكلم/السامع المثالي>>[2].

من المآخذ التّي تؤخذ على اللسانيات السوسورية أيضا هو افتراضهم الذّي يرى بأنّ الجماعة اللغوية التّي ينشأ فيها الطفل تضطلع بمهمة تعليم تكوين الجمل وتركيبها وأنواعها وسلامتها نحويا للأطفال وفي ظل هذا التصور أصبح الإنسان إفرازا لغويا بدلا منه صانعا للغة[3]، ينحصر دور الجماعة في عملية اكتساب اللغة عند الأطفال في اكتسابهم للغتهم الخاصة. في رأي تشومسكي تعلم واكتساب اللغة لا يحتاج إلى التلقين الجماعي لها بل هي تعود إلى دور المورثات الجينية <<فتعلم التحدث أمر طبيعي وهو مثل تعلم المشي، وهو أمر يُثير الدهشة في ظاهره، حيث أنّ الأولى ظاهرة عقلية بينما الثانية بيولوجية>>[4] لكن

---

[1]- ibid, p 01.

[2]– محمد محمود الأمين، مفهوم اللغة بين سوسور وتشومسكي، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثالث للغة العربية بعنوان "الاستثمار في اللغة العربية ومستقبلها الوطني والعربي والدولي"، دبي، 07–10 ماي 2014، ص10.

[3]– المرجع السابق، ص06.

[4]–Naom Chomsky, Reflections on language, December 18- December 30, 2007, p 01

المتمعن جيدا في هذه المقارنة يجد أنّ الأمرين متماثلان في باطنهما، فتعلم اللغة ليس مختلفا عن تعلم المشي سوى في ظاهره فقط لأنّ كليهما أمران يدخلان في تركيبتنا الجينية والجماعة التّي ننشأ فيها لا تفعل شيئا سوى إيقاظ هاتين المعرفتين من كونهما داخليتين إلى تجسيدهما خارجيا.

يُمثل البحث في اللغة عند تشومسكي بحثا لغويا يسعى إلى فهم ملكة اللغة البشرية ابتداءً من اعتبار اللغة معطى عقليا وهبة جينية وخاصية نوعية ببني البشر، وهي ذات مبادئ وقواعد نحوية عالمية لا تختص بلغة دون أخرى بل هي شاملة لكل اللغات البشرية على الرغم من اختلافاتها العرضية والثانوية وهو ما يُسميه تشومسكي بالنحو الكلي، ومنه جاء البحث اللساني لتشومسكي منطلقا من دراسة الكل إلى فهم الجزء عكس سوسور الذّي حصر دراسة اللغة _كمفهوم اجتماعي وخاص_ في الجزء نافيا للكل.

انطلاقا من كون اللغة نظاما معرفيا داخليا يُفرق تشومسكي بين معرفة المتكلم بلغته ويُسميها بالكفاءة اللغوية وبين الكلام الذّي يمثل الإنجاز القولي للمتكلم وهو الأداء الكلامي، ويتقاطع تشومسكي هنا مع سوسور خاصة عما هو معروف من ثنائية سوسور اللغة والكلام (القدرة/الإنجاز) غير أنّه يمكن تحديد التشبيه بين الأداء اللغوي عند تشومسكي مع الكلام عند سوسور باعتبارهما فرديين، غير أنّ مفهوم الكفاءة يختلف اختلافا واسعا عن مفهوم اللغة عند سوسور وهو أقرب إلى المفهوم الهمبولتي حول الصورة الثابتة للغة؛ ومنه تمثل اللغة عند تشومسكي أكبر بكثير من تطبيقها وشكلها الاجتماعي لأنّ <<الكفاءة اللغوية لا تكتسب بصورة استقرائية بل هي نتيجة للقدرة المعرفية الفطرية الداخلية التّي يمتلكها البشر>>[1]. إنّ التعميم الذّي نادى به سوسور اعتمادا على المنهج الوصفي للغات لا يقدم الشيء الكثير لدراسة اللغة لأنّ يبقى تعميما على المستوى السطحي؛ في حين إذا ما تم الاستناد على فهم واستنباط المبادئ العامة والعالمية التّي تشترك بها اللغات البشرية وتزخر

[1]– جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص112.

بها الملكة اللغوية، فإنّ ذلك سبيل للوصول إلى التعميم بطريقة عميقة وإلى فهم مستويات أعمق من تلك التّي تظهر لنا للوهلة الأولى حسب تشومسكي.

المبحث الثاني:

المدرسة السلوكية (اللسانيات النفسية، التوزيعية)

أولا: السلوكية اللغوية عند سكينر

1/-النزعة السلوكية عند سكينر:

تتماثل رؤية سكينر* للسلوك الإنساني وللإنسان مع نظرة غالبية علماء النفس السلوكيين، ويدافع عن مبادئ هذه المدرسة بنفس حدتهم مع اختلاف بسيط بينهم وهو أنّه لا ينفي التصورات العقلية والحالات الشعورية تمام الإلغاء ففي نظره يمكن أن تُفهم بالنظر إلى الأفعال التّي تتشكل فيها؛ لأنّ النزعة السلوكية برأيه هي <<ليست علم سلوك الإنسان إنّما هي فلسفة علم سلوك الإنسان>>[1].

في نظر سكينر يمكن أن تكون الحالات الداخلية محل دراسة عالم النفس السلوكي لكن بشرط أن تكون هذه الحالات معبر عنها في سلوكيات ويؤكد قائلا: <<إنّنا لا نستطيع أن نحذف علم المصطلحات العقلية ولكن نستطيع أن نترجم تلك المصطلحات العقلية إلى سلوك>>[2]، لكن كيف يمكن هذا برأيه؟ يفرق سكينر بين نوعين من السلوك: الأول علني والثاني خفي، فأمّا الأول فهو كل فعل يمكن ملاحظته عن طريق الأشخاص والرصد الظاهري العادي والذّي يمكن ملاحظته ومراقبته وتتبعه بصفة ظاهرية خارجية؛ في حين يمثل الثاني وهو الخفي ذلك السلوك الذّي يحدث داخل الجسم فهو غير ظاهري ولا مرئي ولا يمكن ملاحظته خارجيا لهذا يرى سكينر أنّ في هذا النوع من السلوك <<تتدخل الدراسة المخبرية ويتم تتبعه ودراسته عن طريق الملاحظة العلمية المخبرية أولا>>[3].

---

*- بورهوس فريدريك سكينر(1990/1904) أخصائي علم النفس وفيلسوف اجتماعي أمريكي ومن الأوائل الذّين أسسوا للنظرية السلوكية في علم النفس ومن الذّين اشتغلوا على تطبيقها على اللغة البشرية، وهو معروف بتجاربه على السلوك الحيواني وما يُعرف بصندوق سكينر، ومؤلف كتاب السلوك اللفظي. انظر، علي عباس عليوي الأعرجي، ذاتية اللغة بين سكينر وتشومسكي، مجلة آفاق علمية، العدد 13، تمنغست، الجزائر، أبريل 2017، ص 116.

[1]- هناء صبري، فلسفة اللغة عند نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص122

[2]- المرجع نفسه، ص122.

[3]- المرجع نفسه، ص 122.

تفهم هذه الخطوة على أنّها أولى المحاولات السلوكية لدراسة الظاهرة النفسية واللغوية دراسة بيولوجية على أنّ هذه المحاولة لا تنطبق على السلوك العلني الظاهري بل على ما يُسميه سكينر بالسلوك الخفي وهو جملة الإدراكات العقلية والحالات الداخلية التّي تغيب عن الملاحظة الخارجية لأنّ هذه السلوكيات الخفية يمكن أن تساعدنا على فهم وتفسير الأفعال الخارجية ويعتبر هذا أمرا مخالفا لسلوكية واطسون التّي كانت تنفي تلك الحالات.

أقر سكينر أنّ السيكولوجيا هي فرع من علوم الأحياء والبيولوجيا لأنّ كِّلا العلمين يَعتبِران البيئة الخارجية [=الطبيعة] مصدر كل سلوك؛ ويعتمدان عليها في تفسير أفعال وملامح الكائنات الحية لأنّها هي التّي تُشكله. إنّ السلوك الإنساني سلوك آلي محدد وموجه وليس اختياري حر لأنّه لا يخرج عن إطار المثير والاستجابة والتعزيز، ولهذا لا يوجد ما يُسمى بالأفعال الإرادية الحرة وحتى تلك التّي تنطلق من الداخل (الحالة الذهنية، أو الشعور) إنّما هي أيضا محكومة بتلك الشروط لأنّ الحديث عن العمليات والمصطلحات العقلية هو حديث عن السلوكيات لا غير، ففي رأي سكينر إنّ <<التفكير الإنساني هو السلوك الإنساني>>[1]، هذا التماهي بينهما يجعل نظرته للعقل _مثل كل السلوكيين_ هو المخ وله أبعاد زمكانية فيزيائية لأنّه لو كان العقل غير مرئي وغير فيزيائي كما يدعي أصحاب علم النفس الاستبطاني والعقليون جميعا فكيف يعقل أن يكون مسببا لأحداث فيزيائية مرئية مادية؟ كيف يكون علة لأفعال وسلوكيات مادية؟ إنّ هذا غير مقبول ولا منطقي وإنّما الأصح علميا هو ما نَتَبَينُه تجريبيا وعلميا، ولهذا فعِلَّة المعلولات المادية لا يكون إلاّ مادة مثلها ويخضع لنفس القوانين والشروط الآلية الميكانيكية <<فالتفكير ما هو إلاّ أبعاد السلوك وليس صورة ذهنية لعملية داخلية وجدت التعبير عنها في السلوك... إنّ الخبرات الداخلية هي عمليات فسيولوجية ليس لها وضع خاص. لأنّ التطور الثوري لدينا جزء من نظامنا العصبي الذّي يسمح لنا بالاستجابة الخفية>>[2].

---

[1] – المرجع السابق، ص124

[2] – المرجع السابق، ص125

اللغة هي إحدى السلوكيات التّي يُسقط عليها سكينر الدراسة النفسية البيولوجية فجعل من النظرية التطورية لداورين إحدى المرجعيات والمنطلقات الهامة لدراسة الكلام والذّي يسميه بالسلوك اللفظي الذّي يُمثل أقصى درجات التطور والنضج الإنساني وهذا ما جعله يتصدر أعلى التسلسل الهرمي للكائنات الحية، فحسب زعمه أنّ <<الجنس البشري أخذ الخطوة الحاسمة للأمام عندما كان جهازه العضلي الصوتي تحت التحكم الإجرائي في إنتاج أصوات الكلام في الواقع، ومن الممكن أن نعزو كل الإنجازات المميزة للجنس البشري إلى التغير الجيني>>[1]. تفسر اللغة إذن على أنّها واحدة من السلوكيات الإنسانية التّي تتدخل فيها الأعضاء البيولوجية بصفة رئيسية ولهذا يفرق سكينر بين مصطلح اللغة والسلوك الكلامي فيعرف اللغة على أنّها مجموع <<ممارسات الجماعة اللغوية، مفصلا ذلك على سلوك كل عضو من أعضائها على حدة>>[2] أي أنّها تلك الأفعال المُحقّقة في الواقع تمارسها الجماعة التّي تتشارك اللغة نفسها وتمثل المرجعية الأولى للفرد الذّي يكتسب سلوكه اللفظي منها؛ ويمكن فهمها كالآتي:

[البيئة+ الجماعة اللغوية (سلوك لفظي1+ سلوك لفظي2+ سلوك لفظي3+...)= مجموعة من السلوكيات اللفظية الممارسة فعليا والمحققة في الواقع= اللغة].

السلوك اللفظي هو ذلك السلوك المعزز من طرف الجماعة اللغوية، تَشَكل نتيجة الاستجابة لمثير محدد خلال موقف معين. إنّه ذلك الفعل الكلامي الذّي يوصف في إطار ثلاثة مفاهيم وهي المثير والاستجابة والتعزيز؛ يمثل المثير الحافز والسبب الذّي يدفع بالفرد لإحداث ردة فعل نُسميها استجابة وعندما يتم تكرار هذه الاستجابة بناء على تعزيز معين (تعزيز إيجابي) يتم تكرار هذا السلوك (الألفاظ، الجمل) كلما ظهر لنا الحافز وهذا الأمر

[1] – المرجع نفسه، ص125

[2] – المرجع نفسه، ص126

متماثل ومتساو عند كل البشر، وهكذا يكتسب الأطفال الكلام أيضا؛ <<فكل السلوك اللفظي يتم اكتسابه والحفاظ عليه بقوة من خلال التعزيز>>[1].

2/- نظرية تعلم واكتساب اللغة عند سكينر:

يصف سكينر اللغة على أنّها سلوك يتم تعلمه وتلّقِيه من المحيط البيئي؛ وهي مجموعة من العادات اللغوية عند الفرد تتطور وتكتسب من خلال المثيرات والاستجابات، الإشراط، والتعزيز. وإذا الكلام المنطوق دليلا على التطور والنضج الجيني الذّي حدث للإنسان وجعله أعلى السلم الهرمي للكائنات فهو أيضا موروث جيني عند البشر؛ يولد الإنسان مزودا بمجموعة من المورثات الجينية تمكنه من الإدلاء بالأصوات وتركيب الكلام وتتمثل هذه المورثات في الجهاز العضوي العضلي المسؤول عن النطق وإصدار الأصوات. ينتقي الطفل المزود بهذه الموهبة البيولوجية من جماعته اللغوية الأصوات التّي تتفق مع ما هو مزود به فتتشكل لديه خبرة أولية ومجموعة من الكلمات أو حتى الحروف يتم تعزيزها وتدعيمها إيجابيا من طرف أبويه <<فالسلوك اللفظي هو السلوك الذّي يدعم من خلال توسط الأشخاص الآخرين>>[2]؛ وتكمن مهمة اللساني في علم اللغة في <<دراسة اللغات بوصفها الممارسات التعزيزية للجماعات اللفظية>>[3]. كلما تكرر المثير حدثت نفس الاستجابة ومع تكرارها دوما تتطور الاستجابة مع هذه التكرار وتترسخ العادة اللفظية معها.

---

[1]-Naom Chomsky, A Review of B.F. Skinner's Verbal Behavior, p57.

[2]- هناء صبري، فلسفة اللغة عند نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص193.

[3]- المرجع نفسه، ص193.

ثانيا: السلوكية التوزيعية (بلومفيلد)

1/- المقاربة الآلية السلوكية للغة عند بلومفيلد*:

إنّ المصطلحات العقلية كالذهن والإرادة والروح والتفكير وغيرها من ركائز السيكولوجيا العقلية ليست إلاّ كلاما لا معنى له لأنّ مثل هذه المفاهيم خارجة عن قوانين الوصف، التحكم، والتنبؤ العلمي ولهذا يجب الاهتمام بما هو خاضع لهذه القوانين المادية من سلوكيات (أفعال وأقوال) ظاهرية. النظرية المادية تفترض أنّ تنوع السلوك الإنساني ومنها السلوك الكلامي ناشئ فقط من حقيقة أنّ الجسم الإنساني نظام معقد جدا يخضع للنظام الفيزيائي الكوني الآلي وقوانينه المنتظمة (سبب، نتيجة) التّي تتحكم في السلوك وتساهم في تنوعه من خلال كثرة الأسباب ونتائجها[1].

من منطلق آلي مادي نظر بلومفيلد إلى مسألة المعنى وعلم الدلالة نظرة إلغائية؛ فأقر بأنّ المفاهيم الذهنية التّي تنادي بها السيكولوجيا الاستبطانية هي قُصور من العالمِ النفسي في تحديد مقابلاتها الفيزيائية البيولوجية؛ وأكد بأنّ <<مفاهيم الصورة الذهنية أو الإحساسات لا تعدو أن تكون شاملة لحركات جِدُّ ملموسة للجسد، ويصنفها في ثلاثة أنماط:1- سيرورات على نطاق واسع، تكاد تكون هي نفسها عند أشخاص مختلفين، ولأنّ لها أهمية اجتماعية فهي تمثل في صيغ خطابية تقليدية نحو: (أحس بالجوع، أنا غاضب، خائف، نتأسف..)،2- انقباضات عضلية وإفرازات لعابية محدودة، غير مرئية وجِّد متنوعة تختلف من شخص لآخر، وليس لها أهمية اجتماعية مباشرة، ولا تمثل بصيغ خطابية تقليدية،3- حركات صامتة للأعضاء الصوتية، تعوض حركات التكلم ولا تدرك من قبل الآخرين>>[2].

---

*- ليونارد بلومفيلد (1887/1949) ، عالِم لسانيات ولغوي أمريكي، حاول تحويل اللسانيات إلى علم فطبق مناهج المدرسة السلوكية في علم النفس على اللغة، مصطفى مرشد جبير، معجم الفلاسفة الأمريكان، مرجع سابق، ص 582.

[1]- ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص241.

[2]- المرجع السابق، ص ص245، 246.

إنّ قصور الوسائل العلمية لتقصي الظاهرة الداخلية العقلية خصوصا تلك المتعلقة بعملية التفكير وإعطاء الأشياء والتعابير معان ودلالات يُشكل عائقا في النهوض بالبحث اللساني العلمي؛ ومنه يجب عدم تأسيس التحليل النحوي للغة على مسائل المعنى لأنّها مسائل <<لا تقبل الانقياد لمناهج التحليل البالغة الدقة، لأنّها تمثل أَضعف نقطة في دراسة اللغة، وسوف تظل كذلك حتى تتقدم المعرفة الإنسانية إلى حد كبير>>[1]؛ فعلم الدلالة مبني في نظر بلومفيلد على أفكار وأراء بعيدة تماما عن الوصف والاستقراء العلميين.

يعارض بلومفيلد التصور الذهني للمدلول <<فالمدلول بالنسبة إليه هو مجموعة الأحداث العملية التّي يقترن بها ملفوظ، ولتقديم تعريف دقيق علميا لمعنى كل صورة من صور لغة ما، فإنّه يجب أن تكون لنا معرفة دقيقة علميا بكل ما يُشكل عالم المتكلم>>[2]؛ لكن علينا أن نلفت الانتباه إلى أنّ بلومفيلد لا يلغي المعنى تماما بل يشير إلى صعوبة وصفه نظرا لقصور الأدوات العلمية ومع ذلك هو استعاض من التصور الذهني للمعنى ومسألة الدلالة، وأكد أنّ <<معنى الشكل اللغوي هو الموقف الذّي ينطق فيه هذا الشكل(أو الحدث اللغوي) والاستجابة التّي يستدعيها هذا الشكل في نفس السامع >>[3] فهو يرتبط لديه بالوضعية التّي يكون فيها المتكلم والمستمع أثناء تلفظ المتكلم بالكلام(الحافز) والاستجابة التّي يقوم بها المستمع؛ ولهذا يجب اتباع المنهج الوصفي في دراسة اللغة والابتعاد عن مسألة المعنى _ ذات التصور الذهني_ الفضفاض <<واعتماد بدل ذلك العلاقات الموجودة بين الكلمات، أي الأماكن المتواترة التّي تتواجد فيها، في السلسلة الخطية لعملية التكلم>>[4].

---

[1]– جين إتشسن، اللسانيات مقدمة إلى المقدمات، تر: عبد الكريم محمد جبل، المركز القومي للترجمة، ط 01، القاهرة، 2016، ص75.

[2]– المرجع نفسه، ص ص243، 244.

[3]– بريجيته ليشته، مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص207.

[4]– شفيقة العلوي، محاضرات في اللسانيات المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، ط 01، بيروت، 2004، ص34.

السلوك اللفظي في اللسانيات التوزيعية هو امتداد لما قدمته المدرسة السلوكية عموما؛ فهو قائم على أساس العلاقة التّي يحددها المحفز والاستجابة؛ يعطي بلومفيلد مثالا عن تحليله لهذه العملية في كتابه اللغة وهو كالتالي: << لنفترض أنّ جاك وجيل يسيران أسفل ممر ضيق، جيل جائعة وشاهدت تفاحة على الشجرة، أحدثت ضوضاء بحنجرتها ولسانها وشفتيها، وثب جاك على السياج وتسلق الشجرة وأخذ التفاحة وأحضرها لجيل، وأعطاها لها في يدها، فأكلت جيل التفاحة>>[1]؛ في نظر بلومفيلد يمكننا أن نعتبر هذا الموقف أرضية نفهم فيها الطريقة التّي ينشأ بها الفعل الكلامي إذ يتم تقسيم هذا الموقف إلى ثلاثة أجزاء حسب رأيه وهي[2]:

أ_ الأحداث العملية السابقة على فعل الكلام؛ ربطها بلومفيلد بالأعضاء الحسية لجيل "الجوع مرتبط بالمعدة والسوائل التّي تفرزها، الحلق، اللسان، العطش. الضوء المنعكس من التفاحة إلى عينيها، تعاملاتها السابقة مع جاك"

ب_ الكلام؛ وهو الحدث الكلامي "تحرك جيل أحبالها الصوتية ولسانها ونفاذ الهواء، صورة أمواج صوتية"

ج_ الأحداث العملية التّي تتبع فعل الكلام؛ تتعلق بجاك وهو المستمع "إحضاره للتفاحة، وتقديمها لجيل وهي المتكلمة"

"إنّ الجوع ومشاهدة الطعام(أ) كحالة عضوية بيولوجية يمثل المثير رقم (01) بالنسبة لجيل، الكلام(ب) هو الاستجابة رقم (01) التّي أحدثتها جيل ويمثل في نفس الوقت المثير رقم (02) بالنسبة لجاك، قطف التفاحة وإحضارها لجيل(ج) هي الاستجابة رقم (02) التّي أحدثها جاك بعد استماعها لكلام جيل. يرى بلومفيلد أنّه لو لم يكن جاك موجودا مع جيل لكانت جيل أحضرت التفاحة بنفسها من دون أن تتكلم أو تحدث لبلبة صوتية مثلما يفعل أي

[1]–Leonard Bloomfied, language, London, 1933, p22

[2]– هناء صبري، فلسفة اللغة عند نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص131.

كائن آخر _حيوان على سبيل المثال_ أثناء إحساسه بالجوع، ولذلك يعد الفعل اللغوي سلوكا بديلا عن الفعل الحركي الذّي يمثل حدثا عمليا في حين يمثل الكلام حدثا لغويا"[1].

إنّ التحليل الذّي قدمه بلومفيلد لهذا المثال كعينة لفهم ماهية السلوك اللفظي ومحدداته المثير والاستجابة يعبر بوضوح عن نزعته العلمية وإدخالها في كل تفاصيل ميدان علوم اللغة واللسانيات*. تأخذ الحوادث والمواقف الخارجية الاهتمام الأول في بداية كل دراسة، المثير أي المحفز يجب أن يكون خارجيا تتم مشاهدته وملاحظته علميا فالجوع مثلا ربطه بالجسم الإنساني وبالوظائف العضوية (معدة، سوائل، العين رؤية الطعام...)، والاستجابة أيضا يجب أن تكون مسموعة ومُلاحظة؛ فالسلوك اللفظي بأعضاء النطق والسمع والاشارات العصبية وغيرها، ولقد حاول ترميز هذه الأحداث محاولا جعل لغة التحليل اللساني مثلها مثل لغة الرموز في الفيزياء والكيمياء والرياضيات؛ وأمّا التعزيز هنا فهو موجود من خلال علاقة جيل بجاك وتعاملاتها السابقة معه. الأمر الذّي نستنتجه من التحليل السابق لبلومفيلد إلغاؤه لأي حالة داخلية مرتبطة بالشعور أو التفكير، ولا جود هنا لدلالات ومعان ذهنية يحملها السلوك اللفظي معتبرا إياها غير موجودة من الأساس لأنّها لا تقدم أي تبريرات علمية ولا يمكن وصفها وترجمتها للغة العلمية.

دعا بلومفيلد إلى تطبيق النظرية التجريبية وقوانينها على اللغة والسلوك اللغوي مثلما تم تطبيقها في علوم المادة كالفيزياء والكيمياء وعلوم الطبيعة واقترح أن يكون للغة مخابر بحث لهذا الأمر؛ وفعلا تم إنشاء مخابر البحث اللسانية واعتبر الكلام مادة هذا البحث من أجل الحصول على النتائج العلمية وهذا باتباع منظومة من القواعد والخطوات <<أولها: العثور على من تُمثل اللغة المعنية لغة أُمًّا لهم، ثم تجميع كلامهم، وتصنيفه، في مجموعات متمايزة. وثانيتها: تحليل المادة المجمَّعة، من خلال دراسة القوالب الصوتية (الفونولوجية)، والتركيبية، لتلك اللغة المعنيّة، دونما استعانة بالمعنى قدر المستطاع، أعني الوحدات اللغوية

[1]– Leonard Bloomfied, language, p22.

*– انظر، هناء صبري، فلسفة اللغة عند تشومسكي، مرجع سابق، ص 131.

المكونة لهذه اللغة، قد جرى نظريا تعيينها، وتصنيفها، وَفق معيار واحد فقط هو السمة التوزيعية لكل من الوحدات داخل تلك المادة المجمَّعَة>>[1]؛ إنّ هذه الخطوات تساهم في فهم اللغة استنادا إلى كونها تنتج لنا مصطلحات لسانية <<قابلة للترجمة إلى لغة العلم الفيزيائي والبيولوجي>>[2].

2-/ اكتساب اللغة واستعمالها في اللسانيات التوزيعية:

إنّ محور الدراسة التوزيعية البلومفيلدية للغة يقوم على دراسة الكلام كسلوك ظاهري فهو المجال الوحيد القابل للملاحظة والوصف؛ وعلى العلماء اللسانيين التركيز عليه فقط وهذا عكس ما دعا إليه دو سوسور الذّي كان يميز بين اللغة واللسان والكلام الذّي اعتبره مجرد ظاهرة ثانوية فردية غير قابلة للوصف. بالاعتماد التجريباني العلمي واتخاذ الخطوات الإجرائية المخبرية على عينات الكلام التّي تم اختيارها وتحليلها واستنتاج القواعد النحوية منها أسست البلومفيلدية اللغوية لمجموعة من المقومات* التّي تعتبر عماد نظريتها في اللسانيات وتبريرها لعمليتي الاكتساب والاستعمال اللغويين.

اقترح بلومفيلد الابتعاد عن كل ما يؤسس للسانيات النظرية الذهنية ورسخ للدراسة اللغوية التطبيقية التّي تعتمد أساليب البحث العلمي وتتحرى الدقة وتتبع المنهج الوصفي لدراسة السلوك اللفظي. وبذلك أصبحت اللغة عنده هي الصورة الخارجية يُمَثلها السلوك اللفظي كمظهر خارجي تُطبق عليه قواعد المنهج الاستقرائي، يُمارس هذا السلوك في مجتمع

---

[1]- جين إتشسن، اللسانيات مقدمة إلى المقدمات، مرجع سابق، ص 76.

[2]- هناء صبري: فلسفة اللغة عند نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص130

*- من أهم مقومات ومقولات السلوكية البلومفيلدية مفهومي التصنيف والتوزيع، أمّا التصنيف فهو وضع الكلمة أو في خانة معينة مثلا الكلمة تكون اسما وقد تكون فعلا، قد تكون مُعرفةً أو نكرة وهكذا الجملة تكون اسمية أو فعلية، أو شبه جار ومجرور. والتوزيع هو ينطلق من مدونة محدودة، ليحصر مجموع السياقات أو المواضع التّي ترد فيها الوحدات اللغوية الدالة (أي الكلمات) عن طريق استبدال كلمة بأخرى من أجل تحديد توزيعها، أي القسم الذّي تنتمي أليه متميزة عن بذلك عن الوحدات الأخرى فالتوزيع –إذا_ هو (مجموعة القرائن الخاصة بالعناصر)، إن التوزيع مفهوم يرتبط بالموضوع الذّي توجد فيه الكلمات أي كل ما يحيط بها يمينا أو شمالا. انظر، شفيقة العلوي، محاضرات في اللسانيات المعاصرة، مرجع سابق، ص35.

يتشارك اللغة نفسها التّي هي مجموعة من السلوكيات اللفظية؛ ويؤكد بلومفيلد هذا بقوله: <<أنّ اللغة مجموع المنطوقات التّي يمكن أداؤها في جماعة لغوية>>[1]، أي هي مجموع ما تسمح به الجماعة اللغوية التّي ينتمي إليها الفرد من أفعال وسلوكيات كلامية وتعززها، والجماعة اللغوية يقصد بها هي: <<تجمعات الأفراد ذوي السلوك اللغوي الواحد>>[2].

تكون الدراسة الوصفية قائمة على دراسة كل لغة على حدة وأنّ اللغات الإنسانية المختلفة والموجودة في هذا العالم هي لا لغات لا ترتبط ببعضها البعض مطلقا ولا وجود للكليات لغوية مشتركة بينها، وعليه فإنّ علم اللغة يجب أن يقوم على دراسة كل لغة لوحدها لأنّ كل لغة لها خصائصها الخاصة بها، لذلك لا يوجد تعميم لما يُسمى لغة إنسانية بل هناك لغات إنسانية لأنّ <<التعميمات الوحيدة المفيدة حول اللغة هي التعميمات الاستقرائية وانّ هذه الملامح التّي نظن أنّها تعم اللغات جميعا قد لا نجدها عند دراستنا للغة أخرى>>[3]، إذ يتم دراسة الكلام وهو المتكون من مجموعة من الكلمات والجمل والتعبيرات اللفظية على أساس التقطيع والتصنيف والتوزيع وبناء الجملة والتحويل اللغوي.

يرى بلومفيلد أنّه إذا كانت كل لغة من اللغات هي بمثابة لغة خاصة قائمة بذاتها فهذا معناه أنّ كل منها تملك خصائص نحوية وتركيبية وصوتية خاصة بها ما يجعل القواعد النحوية لكل لغة تنطبق فقد على مجموع الأحداث والسلوكيات اللغوية الخاصة بهذه اللغة ولا يمكن تعميمها واستقراؤها على لغة أخرى غيرها. فنحو كل لغة هو نحو خاص ولا وجود لنحو كلي شامل تشترك فيه اللغات من خلال بعض الخصائص الكلية؛ ويمثل النحو عند بلومفيلد نظاما خاصا للغة معينة فهو <<مجموع صور العرض الوصفية الخاصة باللغة

[1] – نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص74.

[2] – المصدر نفسه، ص 74.

[3] – جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، مرجع سابق، ص236.

المجسدة الخاصة بأحداث الكلام الفعلية أو الممكنة...ويكون ذلك جنبا إلى جنب مع وصف لسياق استخدام هذه الصور أو وصف لمضمونها الدلالي>>[1].

لا يخرج مفهوم النحو الخاص عند بلومفيلد عن منهجه الوصفي وقراءته الآلية لغة فهو تلك المنظومة المتكونة من العينات والسلوكيات اللفظية التّي تم وصفها بالنظر إلى كونها استجابات حدثت في سياق سلوكي صرفي؛ يُفهم السياق في المنظور الوصفي على أنّه مرتبط بالأحداث الخارجية الظاهرية من مثيرات واستجابات التّي تمثل الوسط الذّي تتكون فيه المعاني، ولا ريب في أنّ بلومفيلد أصر بأنّ <<النحو هو نظام الأشكال ذوات الدلالة في اللغة>>[2] .

يرى بلومفيلد وأتباعه بأنّ الكلام الذّي هو موضوع الدراسة اللسانية ومحورها الأساسي ليس إلاّ دراسة في السلوك وليست دراسة في ملكة ذهنية فطرية كما يدعي العقلانيون وغيرهم من اتباع المنهج الاستبطاني؛ ومن هذا المنطلق السلوكي التجريبي يؤكدون أن اكتساب اللغة عند البشر ليس سوى عملية قائمة على مبدأ التعلم والتلقين واستعمالها ليس سوى نسق من السلوكيات تتم وفق شرطي المثير والاستجابة اللّتان تنتظمان لدى الفرد من خلال التكرار والعادة.

تعد عملية اكتساب اللغة أحد المحاور المهمة في البحوث اللساني ولا تكاد تخلو نظرية في تاريخ اللسانيات من وصف لهذه العملية، يمكننا فهم هذه الخطوة من معرفة كيف تتم هذه العملية وما العوامل التّي تتدخل فيها وغيرها من التساؤلات. على خطى واطسون وسكينر وعلماء النفس السلوكيين أكد بلومفيلد أنّ اللغة هي<<مجموعة من العادات الكلامية التّي يكتسبها الطفل...تحت تأثير محفزات مختلفة تجعله ينطق ويكرر الأصوات في السنوات الأولى من حياته>>[3]؛ تُمثل العائلة والوالدان البيئة اللغوية الأولى التّي يكتسب منها

[1] – نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص 78.

[2] – المصدر نفسه، ص78.

[3] - Leonard Bloomfied: Language, p29.

الطفل هذه العادة، يثرثر الوالدان بالكلام في حضرة طفلهما الذّي يكون مزود بجهاز عضوي مسؤول عن التقاط الأصوات(أعضاء السمع)؛ فيقوم الطفل بواسطة أعضاء النطق بإحداث استجابة لفظية مشابهة لتلك الأصوات(المثير) التّي سمعها وقلدها؛ فتترسخ في ذهنه هذه التجربة ومع الأيام يتكرر التقاطه للمثيرات الصوتية وتتكرر معها استجاباته الكلامية وتتشكل لديه هذه العادة اللفظية. يتم تعزيز هذه العادة بربطها بمثيرات حسية مادية فمثلا تقوم الأم بإعطاء ولدها دمية وتقوم بتلقينه كلمة دمية مع التنبيه على شكلها ومادتها الحسية وهكذا يتعزز الاستعمال اللفظي لديه بربطه بالشكل الحسي ويتم إنجاز الكلام عن طريق هذه الخطوات[1] وقياسا على هذه يتم تعلم الكلمات والتعابير عند الأطفال ويعد اكتساب اللغة عند بلومفيلد واللسانيين التوزيعيين قائما على تعلم العادات الكلامية وما يتبعها من ممارسات عملية وأخرى لفظية تتم وفقا للتلقين والتقليد، الممارسة الفعلية والتكرار.

ينفي التوزيعيون أي عوامل داخلية عقلية تتدخل في عملية اكتساب وتعلم الكلام عند البشر، فالسلوك اللفظي ليس سوى <<مسألة تدريب وعادات>>[2] وهو حادثة خارجية قابلة للملاحظة والتجريب فالادعاءات التّي يقول بها العقليون بأنّ هناك ملكة ذهنية مسؤولة عن اكتساب اللغة عند البشر بعيد تماما عن الوصف والتحليل العلمي لأنّ البشر ليسوا سوى آلات ويخضعون للتحكم الفيزيائي الذّي تخضع له جميع الكائنات في الكون. إنّ اللغة على حد زعمهم هي نسق من العادات والسلوكيات التّي اكتسبها الفرد من بيئته ومحيطه الخارجي.

يقوم استعمال اللغة في التوزيعية البلومفيلدية على مبدأ الإشراط السلوكي (مثير، استجابة، تعزيز) فالسلسلة الكلامية عندهم هي تتابع تلازمي لهذه الشروط. إنّ توفر هذه الشروط هو الذّي يثمر لنا السلوك اللفظي؛ إنّها الحتمية الآلية التّي تتحكم في كل شيء حتى في كلام البشر الذّي تعد غايته الأساسية تحقيق التواصل بين الأفراد وتحقيق الوظائف والغايات؛ يتماثل هذا مع سلوكيات الحيوانات ونظم التواصل فيما بينها، فكما نرى أن

[1] -ibid, p29.
[2]- ibid, p34.

الحيوانات عندما تحس بالجوع تتحرك للبحث عن الطعام وعند إحساسها بالخطر تصدر أصوات تنذر بها بني جنسها سواء من نفس النوع والصنف أو مع غيرها. حظي جمع الأصوات باهتمام بلومفيلد وأتباعه فركزوا على اعتباره الجانب المهم في دراسة الكلام وعلى بنية الكلمة ولم يركزوا على كيفية بناء الجملة التّي كان يتم النظر إليها على أنّها <<كلٌ لغوي مستقل لا يدخل عن طريق أي تركيب نحوي في شكل لغوي أكبر منه>>[1].

إنّ اللغة الإنسانية لا تختلف عن أنظمة الاتصال الحيواني فكلاهما محكوم بمبدأي الحافز والاستجابة فنظم التواصل الحيوانية قائمة على الحاجة التّي تحركه وتوجهه، كذلك اللغة البشرية محكومة وموجهة بحكم الحاجة الوظيفية يقول بلومفيلد في كتابه "اللغة" بأنّه <<لا يوجد فرق جوهري بين أنظمة لغة الإنسان وأنظمة التواصل الحيواني>>[2]. على حسب رأيه فإنّ البشر لا يملكون أية مواهب إبداعية تجعلهم يختلفون عن الكائنات الأخرى خاصة في مجال الكلام الذّي يعتبر نسقا من العادات والتمارين التّي تخضع للتجريب والحتمية الآلية فلا معنى للحديث عن ابتكار في الألفاظ والكلمات والتعابير وبالنسبة للمنطوقات الجديدة التّي يتلفظ بها المتكلمين فهي قد قيلت قياسا على ألفاظ وجمل قد قيلت من قبل؛ ولهذا يأخذ مبدأ القياس في اللغة مكانة مركزية في الاستعمال اللغوي عند بلومفيلد، الذّي يقر بأنّه ليس هنالك جمل جديدة مبتكرة على مبدأ الإبداع العقلي.

[1]–نابي نسيمة، البنية التركيبية للجملة في المنهج التوليدي التحويلي، ضمن: مجلة اللغة العربية، جامعة أم البواقي، الجزائر، العدد 40، الثلاثي الثاني 2018، ص131.

[2]–Naom Chomsky, la linguistique cartésinne, p31

ثالثا: المقاربة الذهنية التشومسكية بديلا عن السلوكية

1/- نقد الأسس السلوكية وإعلاء الأساس العقلي:

<<رفض تشومسكي رأي السلوكيين المبني على أنّ اللغة استجابة لمثير ما، إذْ ركز السلوكيون على الشكل الظاهري فحسب، وبهذا قد ألغوا كلَّ عوالم شعورية وعقلية مرتبطة بالحدث اللغوي، مؤثِّرة فيه، ثم تجعلُه على النحو الذّي يوصله إلى السامع>>[1]؛ ولهذا يَعتبر بأنّ هذه النظرة التّي قدمها السلوكيون حول الإنسان خاطئة تماما ولا يمكن قبولها، لأنّ الإنسان برأيهم هو مجرد آلة تخضع للتحكم والهيمنة الخارجية التّي تمارسها عليه الطبيعة أو البيئة، فلقد حصر هؤلاء الفعل الإنساني بما فيه اللغة بين المثير والاستجابة؛ فكما تتحكم الطبيعة في سلوك الحيوانات وتسيطر عليها كذلك تفعل بالإنسان مهملين بذلك أي إرادة له.

على حسب رأيه طمس السلوكيون الوصفيون الجانب الحقيقي الذّي يتحكم في أفعال البشر وهو الجانب الذّي يجب أن يكون محل الدراسة الفعلي وهو الجانب الداخلي الذهني للإنسان. إنّه أكثر الكائنات تميزا على الإطلاق مقارنة مع الأنواع الأخرى من الكائنات الحية ويرجع سبب هذا التمايز في أنّه يمتلك عقلا/دماغا يُمَكَّنه من الانفلات بدرجة كبيرة عن قوانين الآلية والحتمية التّي تحكم نظام الحياة الكوني وتحكم سلوك الكائنات الأخرى، إنّ الإنسان فاعل وليس مفعولا به؛ يستطيع أن يفكر وأن يقبل ويرفض، أن يفعل وألا يفعل، إننا برأيه كائنات حرة ذات إرادة واختيار ولهذا فالآلية لا يمكن أن تحكم أفعالنا ومنها الفعل اللغوي وعلى هذا الأساس <<يكون المنهج الوصفي غير قادر على تفسير الحدث اللغوي المعبر عن عواطف أو مشاعر تكتنف الإنسان>>[2].

ينتقد تشومسكي التصور الوصفي للعقل/الدماغ البشري المبني على الطرح التجريبي ويؤكد أنّ الطفل لا يولد بعقل/دماغ فارغ خال من أي قدرات معرفية بل بالعكس إنّ

---

[1]- علي عباس عليوي الأعرجي، ذاتية اللغة بين سكينر وتشومسكي، مرجع سابق، ص 119.

[2]- المرجع نفسه، ص 119.

العقل/الدماغ البشري هو أحد الأعضاء الأكثر تعقيدا من حيث تكوينه وتركيبته الجينية ما يجعل منه نظاما معرفيا غنيا وحقلا للدراسة العلمية الحقة، ولا نعني بذلك دراسة السيالات العصبية وعمل المخ والأعصاب بل نقصد التركيز على القدرات الذهنية الأخرى كالفهم، الذاكرة، التفكير ، واللغة وغيرها من النظم التّي تدخل في التكوين الوراثي لهذا النظام المركب، ولقد جاء توظيفه لهذه المقاربة بين علم اللغة وعلم النفس الإدراكي <<بدافع تفنيد أطروحات علم النفس السلوكي بمختلف صيغه>>[1].

في نظر تشومسكي يجب على البحث اللغوي أن يركز على كيفية بناء وإنتاج الجمل والكلمات عقليا داخليا لأنّ اللغة ليست <<ظاهرة تكتسب بالتقليد والتعزيز وتدرس بجمع مادة منها وتصنيفها وأنّه لا جامع بين لغة وأخرى. بل إنّها تنشأ عن مورثات عضوية في الدماغ وتكتسب بعملية نُموُّية تحدث للطفل تلقائيا من غير شعور منه مثلما تنضج الأنظمة الأحيائية الأخرى لديه من غير شعور من أو ممن حوله>>[2].

يتفق تشومسكي في بعض التصورات مع التحليل السلوكي للغة خاصة تلك المتعلقة بأنّ اللغة الإنسانية تعد طفرة جينية غيرت المسار التطوري للجنس البشري، لكنّه يختلف معهم اختلافا حول الفكرة القائلة بأنّ التطور والتغير حدث في الجهاز العضلي الصوتي وأنّ الإنسان انحدر من أحد الكائنات الحية وأقربها القردة والغوريلات؛ تعد هذه الفكرة خاطئة تماما ومخالفة للتصور التشومكسي الذّي أكد أنّ البشر من الممكن أنّهم قد انحدروا من نوع ما من الأنواع الحية، لكن هذه النوع لا يُشبه مطلقا القردة والغوريلات والكائنات الحية الموجودة أمامنا اليوم واللغة الإنسانية لم تتطور من صيحات الكائنات، وأمّا الطفرة التطورية التّي حدثت فهي لم تحدث على مستوى الجهاز العضلي الصوتي بل حدثت على مستوى أعلى بكثير هو المستوى العقلي/الدماغي المنتج للكلام.

---

[1] – محمد محمد العمري، الأسس الابستيمولوجية للنظرية اللسانيةّ البنيوية والتوليدية"، مرجع سابق، ص 185.

[2] – نعوم تشومسكي، أصول النحو التوليدي كما يراها تشومسكي "مقدمة كتاب البنية المنطقية للنظرية اللسانية"، مصدر سابق، ص74.

أكد تشومسكي أنّ سكينر وبلومفيلد وغيرهم من الوصفيين قد وجهوا البحث اللغوي نحو مسار خاطئ هو دراسة اللغة تجميع العينات الكلامية وتصنيفها على أساس أنّها سلوك قابل للملاحظة والوصف؛ وأنّه لا مبادئ ولا قواعد مشتركة بين اللغات البشرية المتعددة. إنّ هذا المسار بعيد تماما عن العلمية والموضوعية التّي حاول الوصفيون إضفاءها لدراساتهم. إذ يتصور الوصفيون أنّ البيئة اللغوية للطفل تقدم له تجربة غنية، دقيقة وكافية من المثيرات اللفظية التّي تحفزه للاستجابة لها وتكوين معرفة باللغة، وهذا غير منطقي لأنّ الأطفال يتعلمون اللغة بسرعة فائقة من دون توفر محفزات ولا رعاية دقيقة تمكنهم من تعلم أبجديات الكلام، إنّ البيئة فقيرة جدا مقارنة بالكلمات والتعابير التّي يكونها الأطفال ويتلفظون بها؛ إنّهم يملكون قابلية جينية لاكتساب اللغة تمثل هذه القابلية نظاما فطريا غنيا يحتاج فقط لتوفر بيئة معينة والتّي تكون <<فقيرة جدا وغير محددة فهي لا تستطيع تقديم هذا النظام للطفل بما يتميز به من غنى وقابلية للتطبيق>>[1] في نفس السياق؛ كيف نفسر تمييز الأطفال لمعاني مئات الألفاظ والعبارات التّي يسمعها يوميا، إذا وضعنا بعين الاعتبار أنّ بعض الجمل والكلمات تكون متشابهة من حيث البنية السطحية، أليس هذا دليلا على أنّ هناك بنية عميقة تعمل داخل العقل/الدماغ لتفرز لنا هذه البنية السطحية.

يرى تشومسكي أنّ نظام اللغة الإنساني مغروس في طبيعتنا الإنسانية وهو لا يُماثِل نظام الاتصال الحيواني؛ ولهذا فإنّ التجارب التّي أقامها سكينر وغيره من علماء النفس السلوكيين على الحيوان لا يمكن تعميم نتائجها على الكلام البشري. إنّ السلوك التواصلي الحيواني مرهون بالحاجة والغريزة بالإضافة إلى أنّه يقع في خانة المثير والاستجابة فلا يمكن أن تكون صيحات القردة وزئير الأسود مشابهة للكلام البشري الذّي لا ينحصر في استجابات وردود لمحفزات ودوافع لأنّ الإنسان يتكلم للتعبير أو الإعجاب، الضحك، واللعب، المناقشة والحوار من دون أن يخضع لمثير أو دافع داخلي أو خارجي. و<<بصرف النظر عن تعقيد وتنوع أنظمة التواصل عند الحيوانات، فإنّ أيا من المخلوقات الأخرى ليس له لغة كلغتنا؛

[1] – نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص210.

فبالرغم من أنّ قردة الشمبانزي والبابون يمكن تدريبها لتستخدم منظومة مثيرة من الإشارات بغية التواصل معنا أو فيما بينها، إلاّ أن اللغة البشرية، ولا سيما علم بناء وتركيب الجمل ضمن اللغات الإنسانية إنّما يمثل أمرا فريدا من نوعه>>[1] وأمّا مفهوم التعزيز الذّي قدمه سكينر بوصفه أساس التعلم والقوة المحركة لكل سلوك لفظي ونفسي <<ليس له محتوى واضح وهو يعمل كمصطلح للتغطية..>>[2].

إنّ اعتماد الوصفيين على دراسة الشكل الخارجي للفظ والجملة(الصوت المنطوق) لا يُمكننا من فهمها، بل يجب أن نعرف أنّ لهذا الشكل بنية داخلية ذات معنى، لأنّ الكلمات والعبارات والمنطوقات ليست تتابعا لمجموعة من الأحرف وليست مجرد استجابات لمحفزات خارجية وليست تبادلا لفظيا ولا وسيلة تواصلية فقط، إنّها منظومة معقدة ونسق مكون من تمثيل داخلي وآخر خارجي وعملية إدراك وفهم وإنتاج توليدي ذهني. اللغة ليست جمعا للعينات الكلامية وتصنيفها ووصفها؛ إنّها تفسير للكيفية التّي ينتج بها عقل/دماغ الإنسان مجموعة من المنطوقات والعبارات ويفهمها حتى وإن كانت جديدة تماما بالنسبة إليه.

برهن الاعتماد الآلي في وصف استخدام اللغة عند الوصفين عن عدم نجاعته وخاصة في مجال الإبداعية والابتكارية التّي تتسم بها اللغة الإنسانية؛ فإذا كان البشر لا يتكلمون إلاّ بدافع أو مثير يدفعهم للرد فهذا يعني أنّ اللغة الإنسانية محدودة ومقيدة بهذه الاعتبارات السلوكية الآلية، غير أننا نعرف أنّ الأفراد يتبادلون أطراف الكلام من دون علل مؤثرة عليهم أو دوافع تُملي عليهم ذلك ما يُفسر لنا أنّ اللغة الإنسانية متحررة من المثيرات الخارجية وحتى الداخلية، ولهذا تقدم لنا تنوعا لانهائيا وغير محدود من الجمل والعبارات التّي تتميز بجدتها وأصالتها فالمتكلم في معظم الحالات يدلي بجمل وتعابير تكون جديدة وغير مسموعة من قبل فهو لا يكرر ما سمعه ولا يقلد آخرين في بيئته، وكذلك المستمع يستطيع أن يفهم ويستوعب ما قيل له بالرغم من جِدَة العبارات التّي سمعها. إنّ جدة وأصالة الجمل التّي

[1] – نيل سميث ونيكولاس آلوت، الأفكار والمثل، مرجع سابق، ص34.

[2] – Naom Chomsky, A Review of B.F. Skinner's Verbal Behavior, p57.

ينتجها متكلم ما هو ما يجعل اللغة الإنسانية تتميز بسمة الإبداعية التّي ركز عليها تشومسكي ما يعني أنّ الأطفال حين يتلفظون بجملة جديدة فهم لا يقيسون ذلك بجمل سمعوها من قبل على حسب زعم الوصفيين بل هم يؤلفون جملا وعبارات جديدة.

يرى تشومسكي بأنّ علم اللغة الوصفي قام على التوحيد بين المعرفة اللغوية والقدرة اللغوية أي أنهم لم يميزوا بين المعرفة باللغة وكيفية استخدامها؛ حيث كان من البديهي عند التوزيعيين أنّ <<تَحَدُّث اللغة وفهمها لا يعنيان أكثر من وجود قدرة عملية لدى المتكلم تشبه القدرة على ركوب الدراجة أو لعب الشطرنج>>[1]؛ فاللغة عندهم ليست سوى ذلك الحدث اللغوي الفعلي الظاهر والمتشكل في سلوك مُلاحظ، يُمثل هذا السلوك تجسد القدرة الكلامية للمرء إنّه مثل تعلم أي مهارة أو التدرب على تمرين معين، فالكلام هو تلك القدرة العملية التّي يُمارسها الفرد للتواصل أو لوظيفة ما؛ تتميز هذه القدرة بالمحدودية والتنظيم المشروط إذ لا يمكن للأفراد إحداث تغيير فيها أو إبداع ومشروطة بالمحفزات والاستجابات المرهونة بزمن ومكان محددين، ولهذا لا وجود في رأيهم لمعرفة لغوية مختلفة عن تلك المهارة والقدرة وكثيرا ما كان يُتصور عندهم بأنّ <<القدرات والمهارات يمكن تجريدها لتكون نوعا وحسب من العادات والاستعدادات، واللغة تعد نظاما من الاستعدادات يُمكِّن منْ يَستعمِله من التصرف بطريقة محددة تحت ظروف معينة>>[2].

لقي هذا التصور معارضة وانتقادا من طرف تشومسكي الذّي عدّه تصورا خاطئا تماما؛ لأنّ المعرفة باللغة ليست هي نفسها القدرة على استعمال اللغة فالأشخاص قد يمتلكون معرفة بلغاتهم دونما أن يكون لهم نفس الاستخدام لهذه اللغات؛ ففهم ومعرفة الشاعر والخطيب والرجل العادي بلغتهم العربية مثلا هي واحدة، لكن استعمالهم لها يختلف تماما إذ قد تنحصر لغة الرجل العادي في مجموعة من الألفاظ والجمل عادية أو فضفاضة حتى، في حين يكون استعمال الشاعر والخطيب للغة سويا ومنمقا ومبنيا بطريقة مميزة وصحيحة

[1] – نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، مصدر سابق، ص22.

[2] – المصدر نفسه، ص ص 22،23.

نحوية وغيرها. ولهذا فإنّ المعرفة باللغة تختلف اختلافا تام عن القدرة فالأولى تشكل مخزونا لغويا امتلكه الفرد وتنسب إلى الملكة اللغوية الفطرية الموجودة في الذهن البشري بصورة ثابتة غير متغيرة؛ أمّا القدرة تمثل نوعا من الممارسة العملية للمعرفة باللغة لا غير؛ ويعلل تشومسكي رفضه للنظرة الوصفية الموحدة بين المعرفة باللغة والقدرة على استعمالها فلو <<وُضع شخصان يشتركان في مستوى واحد من المعرفة في مقام واحد، فإنّ كل منهما ربما ينحو إلى قول أشياء تختلف عمّا سيقوله الآخر. ولهذا فمن الصعب أن نقتنع بأنّ المعرفة هي القدرة>>[1]؛ فالأفراد يمتلكون معرفة بلغاتهم بصورة فطرية في حين أنّهم يتباينون في الكيفية والممارسة الفعلية لهذه المعرفة.

إنّ العلاقة بين المعرفة والقدرة هي علاقة غير محددة ولا مترابطة فهي لا تتأثر بتحسن وتغير أحدهما أو فقدانه على حسب رأي تشومسكي؛ لأنّه يحدث أحيانا أن تتحسن القدرة اللغوية لمتحدث دونما أن يحدث أي تحسن ولا تغير في معرفته اللغوية فهو بتحسينه لمهارته وقدرته على الاستعمال الكلمات والتراكيب إنّما هو يُحسن من أدائه ومن صياغة هذه التراكيب، ويصح الأمر أيضا في حالة ما إذا ما أصيب هذا المتحدث بخلل أو حادث يفقده استعمال الكلام، فهو يفقد القدرة فقط لا المعرفة لأنّه لو تمت معالجته من الإصابة أو الخلل الذّي تعرضت له القدرة سيتكلم مباشرة دونما أن يعاد تلقينه وتدريبه على الكلام، وسيفهم ما يُقال له دون تعليم أيضا ولهذا فإنّ فقدان القدرة على الكلام لا يعني فقدان المعرفة اللغوية والفهم الإنسانيين؛ فالمعرفة باللغة ليست إلاّ جزءً من <<النظام المعرفي للعقل/الدماغ، ومن البيِّن أنّ امتلاك هذه المعرفة لا يمكن عدّهُ قدرة على الكلام والفهم، أو نظاما للاستعداد، أو الخبرات أو العادات. فليس من الممكن أن نطرد الشبح الذّي في الآلة بتجريد المعرفة، وعدِّها قدرة أو سلوكا أو استعدادا>>[2]؛ وينطبق الأمر أيضا مع مجموع القدرات والمهارات التّي يمارسها الإنسان فهي عُرضة لمعايير التبدل والتغير والتحسن.

---

[1] – المصدر السابق، ص 24.

[2] – المصدر السابق، ص 25.

يرى تشومسكي أنّ تركيز الوصفيين على دراسة اللغات كل واحدة على حدة لا يقدم أي شيء للبحث اللساني بل يزيد من تعقيد البحث دونما إعطائنا نتيجة واضحة والأصح في الأمر على حسب استنتاجاته هو أنّ اللغات الإنسانية هي لغات تختلف اختلافا سطحيا فقط لأنّها تتشارك مبادئ وقواعد مشتركة، فتنوع اللغات الهائل وتعقيدها ليس إلاّ أمرا ظاهريا فقط تدخلت فيه عوامل مختلفة كالجغرافيا والثقافة والتنظيم الاجتماعي وغيرها من النواحي. فإذا كانت اللغة ملكة عقلية فطرية معنى هذا أنّها مغروسة في تكويننا الجيني الذّي تطور عبر ملايين السنين وأنّ كل النوع البشري يمتلك هذه الملكة الفطرية إذ <<تمثل اللغة خاصية من خصائص الجنس البشري، وبالرغم من الاختلافات السطحية من لغة إلى لغة ومن فرد إلى آخر، يبدو أنّ البشر متطابقون من حيث الأساس بالموهبة اللغوية التّي مُنحوا إياها>>[1]؛ وما يعاب على الوصفيين هو تركيزهم على الشكل الخارجي للغة أي على الشكل المختلف من لغة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر ومن فرد إلى فرد وحتى من جيل إلى جيل.

يرى الوصفيون بأنّه ليس هنالك مبدأ وسمة مشتركة بين اللغات البشرية وأنّه ليس هنالك مبادئ وقواعد لنحو كلي عالمي؛ وبدراستهم للعينات والأحداث الكلامية أكدوا أنّ كل لغة قائمة بذاتها لها نحو خاص بها؛ ومصطلحاتها الخاصة لذا يجب أن تدرس كل لغة بعيدة عن الأخرى ولا وجود لتقارب وتشابه بينها[2]، غير أنّ تشومسكي يصر على أنّ هناك نحوا كليا عاما ومشتركا بين البشر يتمثل هذا النحو في كونه يمثل الحالة الأولية للملكة اللغوية (S_0)، وتتكون هذه <<الحالة التّي يمثلها النحو الكلي من مجموعة من المبادئ العامة التّي تحكم اللغات الطبيعية. وتعبر الحالة الذهنية الأولى عن وحدة اللغات الطبيعية وائتلافها>>[3]؛ وما الاختلافات الظاهرة بين اللغات ليست إلا اختلافا سطحيا يرجع إلى المعطيات والتجارب الخاصة للمجتمعات؛ وجميع عقول/أدمغة المتكلمين مزودة بالنحو الكلي الذّي يعتبر الجزء الأهم في جهاز اكتساب اللغة الذهني؛ وهذا دليل على أنّ الملكة اللغوية

---

[1] – نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي "الأفكار والمثل"، مرجع سابق، ص82

[2] – نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص101.

[3] – نعوم تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، مصدر سابق، ص15.

جزء لا يتجزأ من تركيبتنا الجينية بالمفهوم الذّي قدمته لنا المقاربة اللسانية الأحيائية، وقد أتاحت هذه المقاربة حسب تشومسكي بتقديم تفسير هام حول كيفية اكتساب اللغة عند الطفل بهذه الطريقة:

تجربة لغوية ⟵ النحو الكلي (المبادئ والوسائط) ⟵ لغة/نحو خاص[1]

فالطفل المزود بهذا النحو الكلي _الوراثي_ يستطيع بفضله تكوين لغته الخاصة وهذا بتواصله مع جماعته اللغوية والتّي تمثل البيئة والتجربة اللغوية التّي يعيش فيها، يمثل المخطط السابق عملية اكتساب اللغة التّي ينظر إليها باعتبارها جهازا؛ <<لهذا الجهاز دخل تمثله تجربة لغوية معينة، وله خرج تمثل لغة خاصة أو نحو خاص؛ فعملية اكتساب اللغة يحددها النحو الكلي أساسا، أمّا التجربة فمساهمتها فقيرة في هذه العملية>>[2]، فالطفل الذّي يعيش في اليابان كتجربة لغوية له يولد مزودا بنحو كلي ومشترك _بين جميع الأطفال في العالم_ سيتعلم اللغة اليابانية التّي يسمعها من أهله وبفضل مبادئ النحو الكلي ستتكون له معرفة باللغة اليابانية التّي ستصبح لغته الخاصة، ويصح الأمر نفسه إذا ما نقلناه إلى تجربة لغوية عربية أو إسبانية في سن مبكرة جدا أي ما بين السنتين والأربع سنوات فإنّه سيتعلم لغة البيئة الموجود فيه؛ إلاّ ما يهمنا هو أنّه يستطيع تكوين معرفة غنية وواسعة مقارنة بمحدودية وفقر البيئة التّي سيعيش فيها.

2/-التحول من اللغة المجسدة الخارجية إلى اللغة المبنية داخليا:

خلصت انتقادات تشومسكي للمدرسة الوصفية السلوكية إلى أنّ المنهج الوصفي غير كافي لدراسة الظاهرة اللغوية وأنه علينا اعتماد مبدأ التفسير والتعليل لهذه الظاهرة الإنسانية الفريدة ولقد ترتب عن هذا التحول الانتقال من دراسة اللغة في مظهرها الخارجي إلى دراستها على أنّها نسق ذهني داخلي يجب فهم تركيبته الداخلية وكيفية بنائه وإنتاجه للفعل اللغوي؛

[1] – المصدر نفسه، ص 15.

[2] – المصدر نفسه، ص15.

ويمثل هذا التحول خطوة جريئة في مجال البحث اللساني اللغوي الذّي قام به تشومسكي ضد السوسورية والسلوكية، باعتباره تحولا من دراسة السلوك اللغوي وما يُقدمه هذا السلوك إلى معرفة ما يكمن خلف هذا السلوك؛ ومحاولة تفسير العمليات الداخلية الذهنية التّي تتدخل مباشرة في إنتاجه.

يمكن فهم هذه اللغة بالعودة إلى التصور الوصفي السلوكي الذّي يرى أنّ دراسة اللغة الإنسانية لا تخرج عن الإطار السلوكي القابل للرصد والملاحظة الخارجية، ويتحدد هذا السلوك في الشكل الخارجي للجمل والكلمات أي في الصورة الصوتية المنطوقة مع إقصاء وإلغاء أي تدخل للكيانات الذهنية والمعاني الداخلية. حاول الوصفيون وضع تعريف للغة بوصفها كيانا خارجيا ماديا فهي تمثل منظومة من الجمل والمنطوقات القابلة للتعريف والتصنيف والدراسة العلمية لأنّها خارجية عن الفرد فهو يكتسبها من البيئة والمحيط الخارجي؛ فتوصف اللغة عندهم بأنّها عبارة عن <<مجموعة من الألفاظ/الجمل، تتمتع بوضع مطلق ومستقل عن الأفراد الذّين يتحدثون لغتها>>[1].

اعتماد الشكل الخارجي للغة كمركز البحث اللساني هو في نظر تشومسكي بمثابة محاولة لدراسة لغة مصطنعة شبيهة كتلك المستعملة في الرياضيات والفيزياء (لغة رمزية متواضع عليها) واستبعاد اللغة الطبيعية. فعلم اللغة الوصفي تصور لنا السلوك اللغوي الإنساني على أنّه لغة خارجية مستقلة عن الفرد الناطق بها والفاعل فيها وهذا على حسب اعتقاده أمر خاطئ تماما، لأنّ اللغة ليست كيانا خارجيا عن الإنسان إنّها جزء منه ومن تكوينه الذهني فهي ممثلة في أدمغة البشر؛ ولقد عمل تشومسكي<<في صياغته للنحو التوليدي على تحويل التركيز من دراسة اللغة باعتبارها كيانا خارجيا إلى دراستها باعتبارها نظاما للمعرفة اللغوية المكتسبة والممثلة في الدماغ داخليا>>[2]

[1] – نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي "الأفكار والمثل"، مرجع سابق، ص81.

[2] –المرجع السابق، ص81

تم التحول من دراسة اللغة في صورتها الخارجية إلى اللغة باعتبارها بنية ذهنية داخلية ولعل من أول الأسباب التّي دفعت تشومسكي إلى هذا التحول هو عدم كفاية الوصف السلوكي لهذه الظاهرة الإنسانية المتسمة بالتنوع والتعقيد، أمّا عن أهم ما دفعه إلى هذا التحول فهو أنّ البشر برأيه _كما ذكرنا سابقا_ يمتلكون أداة داخلية في أدمغتهم تعمل هذه الأداة على تمكين الإنسان من توليد وإنتاج اللغة وفهمها. تمثل هذه الأداة جهازا عقليا منظما ومشتركا بين كل البشر المتكلمين _باستثناء المرضى _ وعلى علم اللسانيات أن يعنى بدراسة وفهم هذا الجهاز وتفسير كيفية عمله وبنائه للغة التّي تبدو <<في جوهرها نظام حوسبي غني معقد البنية بدقة كاملة، وصارم في عملياته الأساسية، فهو ليس شيئا أشبه على الإطلاق بمركب من النزعات أو بنظام من العادات والأقيسة>>[1] .

إنّ اللغة الداخلية هي ذاك <<المكنون من قدراتنا على إنتاج وفهم الكلام والجمل في مناسباتها الصحيحة>>[2]، أي أنّ اللغة المبنية داخليا هي مجموع القدرات الذهنية التّي يتمتع بها الفرد والتّي تمكنه من اكتساب واستعمال اللغة بطريقة سهلة وغير معقدة، فكل فرد متكلم على حسب زعم تشومسكي يمتلك بداخل عقله/ دماغه نظاما يعمل كنشاط توليدي بالمفهوم الهمبولتي على إنتاج الكلام وفهمه في مناسباته ومواقفه الملائمة، وقد تم اعتماد المقاربة اللسانية البيولوجية التّي تبناها تشومسكي واعتمد عليها في نفي الطرح السلوكي وتقوم هذه المقاربة بجعل اللغة المبنية داخليا والتّي تعد جزءا من الاستعداد الوراثي المغروس في خلايا الذهن البشري. ولهذا فإنّ التحول من اللغة الخارجية إلى اللغة المبنية داخليا هو:

– تحول من اللغة كظاهرة خارجية مستقلة عن الفرد إلى اللغة باعتبارها نظاما داخليا أي من الفرد المتلقي للغة إلى المتكلم المنتج والعارف بهذه اللغة وهو تحول مفاهيمي أولا، قام تشومسكي بتغيير مسار البحث اللساني من خلال الإطاحة بالمفاهيم الوصفية السلوكية وإظهار ضعفها وعدم كفايتها كمفهوم التعلم والتقليد في اكتساب اللغة والتدريب والقياس في

[1] – نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص107.

[2] – نيل سميث ونيكولاس آلوت، الأفكار والمثل، مرجع سابق، ص84

استخدامها، ومن أهم المصطلحات التّي تم استبعادها في هذا التحول هي تلك المتعلقة بالطرح السلوكي وهي: المثيرات والاستجابات والتعزيز .

_تحول صوب الواقعية[1] من ناحيتين؛ من الناحية الأولى هو تحول صوب دراسة اللغة كموضوع ذهني مادي قابل للوصف والتفسير بدلا من بنية اصطناعية؛ والثانية هو تحول صوب دراسة اللغة كمعرفة ذهنية فردية أولا وبشرية عامة ثانيا، بعيدة كل البعد عن الأبعاد السياسية والثقافية والاجتماعية والتاريخية.

_تحول من الوصف التجريباني الآلي الصرف إلى التفسير العقلاني والتأويل التصوري يتضمن هذا التحول <<دراسة التركيب والفونولوجيا والصرف...ويعالج مجموعة من المستويات المفترضة الخاصة بالتمثيل العقلي بما في ذلك صور التمثيل؛ الشكل التركيبي والشكل المعجمي>>[2]؛ فهو لا يقوم على دراسة اللغة من ناحيتها الصوتية السمعية إنّما يدرسها من جهة التمثيلات العقلية التّي تدخل في تركيبها وتتضمن هذه الناحية التركيبية والفونولوجية (الصوتية) والصرفية وحتى الناحية الدلالية والمعجمية لها.

_تحول في التصورات والرؤى فمن التصور الآلي الاجتماعي الذّي يرى بأنّ اللغة هي مجموع المواضعات الكلامية التّي تقررها الجماعة اللغوية، إلى كونها نظاما حوسبيا موروث مغروس وثابت في خلايا عقولنا ولهذا فإنّ هذا التحول ينتقل من <<موضوع دراسة اللغات كأنظمة اجتماعية معينة أو مجموعة من الألفاظ نحو فكرة أنظمة بايولوجية تمكننا من اكتساب وتحدث اللغات>>[3]. يصر تشومسكي على أنّ هذا الاتجاه الجديد الذّي أدخله إلى علم اللغة وهو دراسة اللغة باعتبارها نسقا حوسبيا ذهنيا هو المسار الصحيح لفهم هذه الخاصية النوعية التّي يمتاز بها الجنس البشري دون غيره من الكائنات والأسس الفلسفية

[1] – نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، مصدر سابق، ص89.

[2] – المصدر نفسه، ص107.

[3] – نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي الأفكار والمثل، مرجع سابق، ص119.

العقلية التّي تبناها كان لها الدور الكبير والحاسم في هذا التحول الذّي يعد تحولا من <<السلوك وما ينتجه؛ إلى نظام المعرفة الذّي له دور في السلوك>>[1].

3/-الوصف والتفسير في تحليل ودراسة الظاهرة اللسانية:

إنّ تجميع الوقائع الكلامية وتصنيفها وفقا للوصف الذّي قدمته الدراسات التوزيعية والبيهافورية لا يكفي لفهم اللغة الإنسانية كونها حالة داخلية ونظاما ذهنيا معقدا ومتنوع، وتظهر عدم كفايته في كثير من الموضوعات حسب وجهة نظر تشومسكي فلقد اعتبر أنّ وصف اللغة من خلال صورتها الخارجية المتعلقة بمبدأ التعلم والإِشراط الذّي صرح به سكينر يقف عثرة طريق في فهم الكثير من المسائل اللغوية كتلك المتعلقة <<باستعمال التحويل اللغوي من صيغة لأخرى مثل التحويل من المبني للمعلوم إلى المبني للمجهول>>[2]. فإذا كان الكلام بوصفه استجابة لمثير هذا يعني أنّه يستلزم حضور كلا الطرفين المثير والاستجابة فإذا كنا نريد صيغة الكلام إلى الغائب المجهول فإننا لا نستطيع ذلك وحتى إن فعلنا فإننا لا نقدر على إفهام الطرف المتلقي ذلك لأنّ تلقين طفلا وتعليمه لجملة ما يشترط ربط الكلمة أو الجملة بمقابلات حسية ومثيرات خارجية حسب الوصفيين فكيف لنا أن نعلمهم منطوقات وجمل دون أن يكون لها مقابلات حسية مادية.

يكمن الضعف المتوالي للمنهج الوصفي السلوكي في فهم اللغة في أنّه فشل في تقديم وصف كامل لمسألة المعنى وقضية البنية العميقة للجمل لأنّه مقصور على البنية السطحية لها، فاللغة ذات مظهرين أساسيين لكن يعد المظهر الداخلي [=بينة ذهنية] أهم وأولى للدراسة من المظهر الخارجي وهو الصوت والأداء الكلامي؛ والسبب في هذا أنّ البنية الداخلية هي التّي تُحدد في كثير من الأوقات الأداء. ولهذا فإنّ الجملة في أي لغة لها بنية عميقة هي التّي تحدد دلالاتها ومعناها؛ والبنية السطحية تظهر في شكلها الخارجي الصوتي. وفي نفس السياق يعجز الوصف عن التعبير عن البنية العميقة للجملة اعتمادا

[1] – نعوم تشومسكي، قوى وأفاق _تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، مصدر سابق، ص206.

[2] – هناء صبري، فلسفة اللغة عند نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص203.

فقط على الصورة الصوتية فنحن نستعمل جملا كثيرة ذات بنية عميقة واحدة لكنها تختلف اختلافا جذريا من ناحية بنيتها السطحية. ويتماثل الأمر بالنسبة لمشكلة المعنى ودلالة الألفاظ والجمل مع أنّ علم الدلالة يمثل أحد الأجزاء المهمة من علم اللسانيات. فشلت الوصفية أيضا في تقديم تفسير كامل وكلي للعلاقات الداخلية تحت الجمل أو العلاقات التّي تمتلكها الجمل التّي وصفها وتصنيفها.

يصر تشومسكي أنّ قصور المنهج الوصفي الذّي اعتمدته اللسانيات السوسورية والسلوكية في فهم بعض المسائل اللغوية، وعجزه عن الإجابة عن بعض التساؤلات المهمة خاصة السؤالين المتعلقين باكتساب اللغة وطريقة استعمالها؛ هو مكمن الضعف في نظرياتهم، غير أنّه لم يستبعد الوصف من أعماله ومن بحثه اللغوي بل أقام عليه الكثير من دراساته لكنه رفض أن يتم الاعتماد عليه فقط ولذلك لم يجاري الوصفيين في استخدام آلياتهم وأساليبهم وإن كان في بعض المرات يستوحي أفكاره من دراساتهم؛ إلاّ النجاح الذّي قدمه باستغلاله للأسلوب الوصفي فلقد تمثل في <<الربط الذّي أقامه بين علم اللسانيات وعلم الرياضيات... وتتمثل أهم النظريات التّي قدمها تلك المتعلقة ببنية العبارة والنحو التحويلي، استخدام الخصائص النحوية، تطبيق الفهرسة...>>[1].

تعارضت آراء تشومسكي تعارضا شديدا مع آراء وافتراضات السلوكيين، فهو يعتقد أنّ الهدف الأساسي لعلم اللغة هو بناء نظرية استدلالية خاصة بتركيب اللغة الإنسانية؛ بحيث يمكن تطبيقها على جميع اللغات وليس على اللغات التّي نعرفها فحسب بل وعلى جميع اللغات المحتمل أن نعرفها، ويرى أنّ هذه النظرية لا ينبغي أن تكون مغرقة في التعميم، حتى يمكن تطبيقها على نظم الاتصال الأخرى أو أي نظام آخر نريد له أن يدخل في إطار ما نطلق عليه مصطلح "اللغة"، وأنّ علم اللغة ينبغي أن يكون عاما وشاملا ومحددا للخصائص الأساسية للغة الإنسانية[2].

---

[1] – نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي الأفكار والمثل، مرجع سابق، ص 132.

[2] – جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، مرجع سابق، ص236.

كان اهتمام تشومسكي منصبا على فهم الكيفية التّي تنشأ بها اللغة عند الأطفال وكيف يمكنهم بسرعة فائقة ومن دون خضوعهم لبرامج تعليمية مكثفة أن يكتسبوا ويتعلموا لغاتهم الخاصة ويستخدمونها بطلاقة تامة؟ هذا إذن ما عجزت الكفاية الوصفية على تحقيقه ولهذا وجب إدخال مبدأ التفسير واستخدامه للبحث اللساني؛ ولعل النجاح الأكبر الذّي يمكن أن يحققه الاعتماد على هذا المبدأ هو تفسير كيفية الحصول على اللغة عند جميع المتكلمين.

اِنتقل التساؤل من الحديث عن خصائص اللغة البشرية إلى الحديث والاستفسار عن علة وجود هذه الخصائص وأسباب كينونتها بهذا الشكل وليس بشكل آخر. يفترض مبدأ "الكفاية التفسيرية" منطلقا أساسيا للبحث وهو <<أنّ قواعد النحو للغات المختلفة يتوفر على المبادئ الأساسية ذاتها، إلاّ أنّها قد تختلف في بعض الوسائل الضيقة التّي تعرف باسم "المعايير">>[1] يعد الاكتشاف الأهم الذّي تمخض عن الانتقال من الوصف إلى التفسير هو تقديم تفسير عدم عشوائية تنوع واختلاف اللغات الإنسانية، فلقد ظل البحث اللساني لعقود طويلة يُرجع سبب الاختلافات والتنويعات بين اللغات إلى أسباب الصدفة والعشوائية والعبثية إلاّ أنّ تشومسكي أقر بأنّ السبب الرئيسي لوجود هذا الكم الهائل من اللغات المتنوعة إنّما يعود إلى أنّ <<هناك شموليات تكمن وراء التنوع السطحي>>[2]، فليست الاختلافات بين اللغات والتنوع الكبير فيما بينها سوى اختلافات عرضية وتنويعات على المستوى السطحي فقط أمّا من حيث الجوهر والمبدأ فإنّ جميع اللغات الموجودة والمعروفة حاليا وحتى تلك التّي لا نعرفها، واللغات التّي اندثرت وحتى التّي ستكون مستقبلا فإنّها جميعا محكومة بنفس المبادئ العامة يُسميها تشومسكي بالشموليات والكليات؛ تُعد هذه الأخيرة حلاًّ جوهريا وإجابة مكتملة للتساؤل حول تحقق الكفاية التفسيرية.

جادل تشومسكي مقتنعا ومصرا على أنّه وبالرغم من كون كل لغة من اللغات الإنسانية تعد نسقا ثريا وتركيبة معقدة جدًّا إلاّ أنّها تتماثل في التركيبة الأولية التّي جاءت منها والسبب

[1] – نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي الأفكار والمثل، مرجع سابق، ص 117.

[2] – المرجع السابق، ص118.

في هذا أنّ كل هذه اللغات تعتمد على بنية فطرية واحدة موزعة على كل العقول البشرية تتمثل في جهاز ذهني عمله الأساسي هو اكتساب اللغة؛ يتضمن هذا الجهاز <<مبادئ ثابتة مثبتة فيه إلى جانب وجود معايير تكميلية>>[1] تتمثل هذه المعايير في أنّ <<هناك مفاتيح يمكن ضبطها بطريقة أو بأخرى أثناء فترة الطفولة، وأنّ اكتساب المرء للغته الأولى يمثل عملية ضبط لهذه المفاتيح>>[2]، لم يتفق نحويو النظرية التوليدية على ضبط ماهية المعايير وكيفية عملها الدقيق إلاّ أنّ المتفق عليه فيما بينهم هو أنّه في مرحلة ما من عمر الإنسان وخاصة مرحلة الطفولة المبكرة التّي تبتدأ فيها قدرة الطفل اللغوية بالظهور تكون بحوزته مجموعة من المفاتيح يتم ضبطها تلقائيا من النظام الفطري لاكتساب لغة جماعتهم.

يبدو العمل الذّي تحققه الكفايتين الوصفية والتفسيرية متناقضا ومتباعدا إلى حد بعيد خاصة إذا نظرنا إلى الأساليب المتبعة في كل منهما، لكن الواقع يمثل عكس ذلك لأنّ النتائج التّي يمكن أن تسفر عن كليهما يُقدم لنا حقائق مترابطة ومتسلسلة تقودنا إلى فهم أعمق وأبسط للغة الإنسانية حيث أنّ <<...الكفاية الوصفية تتحقق إذا ما توفرنا على نظريات جيدة للحالات المستقرة للنظام الذّي نجده عند البالغين، فيما تتطلب الكفاية التفسيرية إيجاد الخصائص الأولية للنظام وتفسير الانتقال لتلك الحالات المستقرة>>[3]، تمثل الحالات المستقرة مرحلة نضج اللغة واكتمالها عند البالغين أي هي تلك المرحلة التّي يصل إليها المرء التّي يكون فيها متحكما في لغته ومفرداتها واستعمالاتها؛ وبفضل النهج الوصفي الصحيح لهذه الحالات المستقرة يمكن صياغة نظريات مهمة لفهم هذه الحالات والنظام اللغوي الذّي يحكم هذه الحالة في هذه المرحلة. في حين يُمَكَّننا المبدأ التفسيري الذّي يسعى لمعرفة الخاصيات الأولية الفطرية التّي يتوفر عليها النظام اللغوي وكيفية بنائها من الداخل وطريقة انتقالها وتجسدها في تلك الحالات المستقرة.

---

[1] – المرجع السابق، ص118.

[2] – المرجع نفسه، ص118.

[3] – المرجع السابق، ص 119.

خلاصة:

إنّ الطرح العقلاني التشومسكي مثل ردة فعل قوية انعكاسية ضد التيارات اللسانية البنيوية السوسورية والسلوكية التوزيعية وقد مثلت ردة الفعل هذه ثورة ابستيمولوجية في ميدان علم اللغويات ويمكن أن نستنتج من خلال العرض السابق لهذه المذاهب وأهم تصوراتها وأفكارها والمعارضة التشومسكية لها أنّ هذا النقاش المتعارض قد مس جوانب كثيرة ومثل صراعات كبيرة ابتدأت من:

أولا: الأسس التّي انطلقت منها هذه المدارس للتقعيد لنظرياتها في اللغة هي أسس متعارضة مع المنطلقات التّي تبناها تشومسكي وبنى عليها نظريته في اللغة فكان الصراع بالدرجة الأولى صراعا وتعارضا بين الأسس، إذ تعتبر النظرية الاجتماعية أساس المذهب البنيوي، وتُعد التجريبية الآلية أهم مرجعية ومنطلق للمدرستين السلوكية والتوزيعية، في حين مثلت العقلانية الفلسفية واللغوية أهم المرجعيات والأسس للنظرية التوليدية التحويلية لتشومسكي.

ثانيا: التصور العام للغة عند السوسوريين والسلوكيين و يختلف اختلافا تاما مع تصور تشومسكي، إذ يقتصر البحث اللساني عند هؤلاء على دراسة وفهم اللغة بوصفها ظاهرة خارجية قابلة للملاحظة والتجريب، على عكس تشومسكي فإنّ تصوره قائم على فهم اللغة من الداخل أي اعتبارها ظاهرة عقلية داخلية ويتم اعتماد مبدأ التفسير والتعليل مع الوصف للوصول إلى درجة أكبر من الموضوعية والتعميم.

ثالثا: من حيث الأدوات، إذ يعتمد البحث البنيوي والسلوكي والتوزيعي على آليات التصنيف والتوزيع للغة، في حين ينفي تشومسكي ذلك ولا يعتبره وسيلة لفهم اللغة بل يعتمد على الآليات والعمليات الداخلية التّي تدخل في تركيب اللغة

خاتمة

خاتمة:

إنّ النشاط الفكري الذّي حفلت بها الأوساط اللسانية في الولايات المتحدة الأمريكية خلال القرن الماضي تمخضت عنه رؤى ونظريات لغوية متنوعة، وقد حظيت النظرية اللغوية التشومسكية بمكانة مهمة أهلتها لاحتلال الصدارة في الدرس اللساني المعاصر منذ أواخر خمسينيات القرن الماضي وحتى يومنا هذا، ويعود ذلك للنتائج النظرية والتطبيقية التّي أفرزتها في فهم الظاهرة اللغوية وتفسير عملية اكتسابها وكيفية استخدامها. وإنْ كانت القطيعة المعرفية التّي أحدثتها منذ لحظتها التأسيسية الأولى مع الاتجاهات اللسانية وقتئذٍ، مثلت ثورة ضد النزعة الآلية المادية التّي أطرت آراء تلك الاتجاهات، فإنّ الانفتاح على الأفق الفلسفي العقلاني واتخاذه مرجعية أولى يَتَحدَد وِفقه المسار الألسني هو من كان له الدور المركزي في إحداث تلك القطيعة.

ترتبط الكينونة الإنسانية عند تشومسكي باللغة التّي تتخذ عنده معيار التفرد والتميز الإنساني على الأنواع الأخرى؛ فقادته تصوراته حولها بوصفها ظاهرة إنسانية خالصة إلى أفكار الفلاسفة واللغويين العقليين _وخاصة أفلاطون وديكارت، فقد كانت مقولة فطرية اللغة أهم مرتكز قام عليه النحو التوليدي التحويلي الذّي طرحه غير أنّ صياغته لهذه المقولة قادته إلى جعل اللغة ضمن صميم أبحاث علوم الوراثة والأعصاب؛ ومن ثم أصبح اكتساب اللغة واستعمالها يُدرس وفق مسارٍ تُحدِّدُه القراءة الجادة لمصدر هذه الظاهرة وهو الإنسان. كان لإعادة إحياء التراث الفلسفي العقلي في دراسة اللغة دوافع كثيرة أهمها؛ إعادة الاعتبار للذات الإنسانية كفاعل مفكر حرٌ وواع، في الوقت الذّي كانت الرؤية الاختزالية للنظريات اللسانية آنذاك قد جردت هذه الذات من جوهرها ودورها الفاعل. يُعد هذا الإحياء ترميما للجرح الذّي سبَّبَه النزوع التجريبي المادي للفلسفة العقلية وللكوجيتو الديكارتي. ومع أنّ التبلور القاعدي للنظرية اللغوية لنعوم تشومسكي جاء مبنيا على هذا الإحياء الفلسفي، إلاّ أنّه لم يتوقف عنده بل استمر في تحديث وضبط مسارات بحثه من خلال تقريب الدراسة اللسانية من ميادين علمية أخرى كالرياضيات والبيولوجيا؛ مقيما نظرية لغوية ذات قوة معرفية

متعددة المشارب؛ اِقترن فيها الأصل الفلسفي بالتفسير والصياغة العلمية من خلال الانتقال من اللغة كمعطى عقلي فطري إلى اللغة كمعلومة وراثية يحملها البشر في تصميمهم الجيني، حتى أُعتبرت النظرية التوليدية التحويلية فلسفة لغوية إنسانية بامتياز.

وفق تبنيه للاتجاه الفلسفي وجد تشومسكي نفسه ضمن خط معرفي يتحدد وفق ثوابت هذا الاتجاه، فكان مناطقة مدرسة بور–رويال وفيلهلم فون همبولت أهم مرجعيتين لسانيتين لقيام نظريته التوليدية التحويلية. فمن الفطرية كإحدى الثوابت الفلسفية إلى مقولة الكلية والشمولية في منطق بور–رويال وتوليدية اللغة في فلسفة همبولت اللغوية، علل تشومسكي بناءه للنحو الكلي الذّي يقوم على افتراض رئيسي وهو أنّه وراء هذا التنوع اللامحدود للغات الطبيعية الإنسانية توجد قواعد كلية وعامة مشتركة تشترك فيها هذه اللغات وهو دليل على أنّ اللغة البشرية واحدة في أصلها، وما هذا التنوع سوى اختلاف سطحي له أسباب عدة أهمها اختلاف الأداء الكلامي بين الناس. ومن خلال ربط فهم اللغة بمبادئ علم المنطق أصبحت اللسانيات من منظور تشومسكي أفقا ينفتح على مجموعة من القراءات المنطقية والرياضية، حيث تُدرس اللغة من خلال عمليات الحوسبة والتمثيلات الذهنية، والقضايا المنطقية.

إضافة إلى النزوع نحو ربط علم اللسانيات بعلوم الأعصاب والبيولوجيا والرياضيات لخلق تكامل معرفي بين العلوم من خلال اللغة، كان التحول من دراسة اللغة باعتبارها ظاهرة خارجية وسلوك آلي إلى اللغة بوصفها بنية ذهنية داخلية؛ مدخلا إلى فهم اللغة كظاهرة نفسية تتم دراستها من خلال صلتها بعمليات الإدراك؛ التفكير والفهم، الإرادة والوعي، الذاكرة والخيال، القصدية والانتباه، وهذا لبناء علم النفس الإدراكي، وقد جاء هذا التداخل اللساني السيكولوجي ردا على علم النفس السلوكي الذّي أحكم قبضته في مجال الدراسات اللسانية خاصة مع مدرسة واطسون وسكينر والمدرسة التوزيعية لبلومفيلد.

خلاصة القول إنّ أهم ما ميز الطرح اللغوي لتشومسكي هو أنّه قدم براديغم جديدا في الدرس اللساني وهذا من خلال البعد الفلسفي العقلاني الذّي سيطر على نظريته

التوليدية التحويلية حيث زخرت بمجموعة من المقولات الفلسفية العقلية التّي بواسطتها عالج تشومسكي اللغة باعتبارها قوة داخلية ذهنية <<من خلال مقولة النحو الكلي ذي الأساس الفطري، وتنفتح على ضربين من القراءة: الأولى تفسر اللغة من خلال مقولات الطبيعة والدماغ أو الضرورة والآلة أو الذاكرة والوراثة. أمّا الثانية فإنّها تُفسر الوقائع اللغوية من خلال مقولات العقل والثقافة أو الحرية والإبداع أو التوليد والتحويل>>[1]؛ فإذا كانت النظرية اللغوية لنعوم تشومسكي تدخل ضمن إطار البحث اللساني فإنّ الأفكار التّي حُمِّلت بها هذه النظرية تؤكد بأنّ اللغة واحدة من الظواهر الإنسانية التّي من الممكن أن يكون تَعدُد البحث فيها وسيلة لفهم أعمق وتفسير دقيق لها، فحضور المقولات الفلسفية وتقريبها من مجال علوم الطبيعة وعلم النفس وعلوم الإدراك وحتى الأبحاث الاجتماعية ضمن الدراسات اللغوية قد يقدم لنا برهانا عن أنّ الفكر الفلسفي لا يمكن الاستغناء عنه ولا إقصاؤه من دائرة البحث الإنساني لأنّه يُغنيها ويثريها، وقد يفتح لنا هذا الأنموذج التشومسكي آفاقا أخرى للبحث والدراسات في مجالات متنوعة حول ظواهر أخرى.

[1] – علي حرب، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي، مرجع سابق، ص108.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

-المصادر باللغة العربية:

- نعوم تشومسكي، أصول النحو التوليدي كما يراها تشومسكي "مقدمة كتاب البنية المنطقية للنظرية اللسانية"، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2020
- نعوم تشومسكي، آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، ترجمة عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، الطبعة الأولى، 2009م.
- نعوم تشومسكي، بنيان اللغة، ترجمة ابراهيم الكلثم، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2017م.
- نعوم تشومسكي، البنى النحوية، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد، 1987م.
- نعوم تشومسكي وميشال فوكو، عن الطبيعة الإنسانية، ترجمة أميز زكي، دار التنوير للطباعة والنشر، القاهرة،، الطبعة الثانية،2019م.
- نعوم تشومسكي، غريزة الحرية، ترجمة عدّي الزعبي، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 2017
- نعوم تشومسكي، قوى وأفاق تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، ترجمة ياسين الحاج صالح، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1998م.
- نعوم تشومسكي، اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، ترجمة محمد الرحالي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2013م
- نعوم تشومسكي، اللسانيات الديكارتية فصل في تاريخ الفكر العقلاني، ترجمة محمد الرحالي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2020م.

- نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1990م.
- نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، ترجمة: محمد فتيح، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1993.
- نعوم تشومسكي وروبرت سي بيرويك، البرنامج البايولساني" ماذا هو عليه الآن"، ضمن اللسانيات العربية رؤى وآفاق، ترجمة: مرتضى جواد باقر، عالم الكتب الحديث، ج 01، إربد، الأردن، ط 01، 2019.

-المصادر باللغة الإنجليزية:

- Naom Chomsky, Aspects of the theory of syntax, the Massachusetts institute of technology press, Cambridge, Massachusetts, 1965.
- Naom Chomsky, A Review of B.F. Skinner's Verbal Behavior,
- Naom Chomsky, Language and Mind, Cambridge university press, New York, third edition, 2006.
- [1]-Naom Chomsky, Reflections on language, December 18-December 30, 2007.

-المصادر بالفرنسية:

- Naom Chomsky, la linguistique cartésienne, 'Un chapitre de l'histoire de la pensée rationalisme',Trad Nelcya Delanoe, Dan Sperber, éditions du Seuil, Paris, 1969.

-المراجع باللغة العربية:

- إبراهيم مصطفى إبراهيم، قصة الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، دون طبعة، 2001م.
- أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، الطبعة الثانية، 2005.

- أحمد عصام الدين عبد الجواد، المنهج في منطق بور رويال "مقال عن المنهج العقلي (التحليل والتركيب)"، دون دار نشر، دون طبعة، 2006.
- أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، الطبعة الثانية، 2005.
- أفلاطون، محاورات أفلاطون (محاورة ثياتيتوس)، ترجمة شوقي داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، دون طبعة، 1994م.
- أفلاطون، محاورة فيدون(في خلود النفس)، ترجمة عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثالثة، 2001م.
- أفلاطون، محاورة مينون(في الفضيلة)، ترجمة عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دون طبعة، 2001م.
- إيتين جيلسون، اللسانيات والفلسفة 'دراسة في الثوابت الفلسفية للغة'، ترجمة قاسم مقداد، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 2017م.
- بريجيته بارتشت، مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى نعوم تشومسكي، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004.
- جفري سامسون، مدراس اللسانيات التسابق والتطور، ترجمة محمد زياد كبة، النشر والمطابع لجامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، دون طبعة، 1997.
- جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ترجمة فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت، الطبعة الأولى، 2008,
- جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، الطبعة الأولى، 1985.
- جين إتشسن، اللسانيات مقدمة إلى المقدمات، ترجمة عبد الكريم محمد جبل، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2016.

- جون ماهر، اللغة والسياسة (أقدم لك نعوم تشومسكي)، ترجمة محي الدّين مزيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003م.
- –حمو النقازي، في منطق بور رويال، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2013م.
- رونيه ديكارت، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الرابعة، 1988م
- رونيه ديكارت، حديث الطريقة، ترجمة عمر الشارني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2008م
- رونيه ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، 1968م
- زكي نجيب محمود وأحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للنشر، المملكة المتحدة، دون طبعة، 2018.
- ستيفن بنكر، الغريزة اللغوية "كيف يبدع العقل اللغة"، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، الرياض، دون طبعة، 2000م.
- شفيقة العلوي، محاضرات في اللسانيات المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 2004.
- فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، دون طبعة، 1985.
- علي حرب، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1998.
- لويك دوبيكير، فهم فرديناند دو سوسور وفقا لمخطوطاته "مفاهيم فكرية في تطور اللسانيات، ترجمة ريما بركة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، أيلول/سبتمبر 2015.

- ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ترجمة محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، مارس 2012.
- محمد محمد العمري، الأسس الابستيمولوجية للنظرية اللسانية "البنيوية والتوليدية"، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2012م.
- محمد محمد علي يونس، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط 01، 2004
- محمود جاد الرب، علم اللغة نشأته وتطوره، دار المعارف، الطبعة الأولى، 1985م.
- مرتضى الجواد باقر، مقدمة في نظرية القواعد التوليدية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2002.
- مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مفاهيم وأمثلة، عالم الكتب والحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، 2010م.
- ميشال زكريا، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، 1986.
- نعمان بوقرة، اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، إربد، الطبعة الأولى، 2009.
- نيل سميث ونيكولاس آلوت، تشومسكي "الأفكار والمثل"، ترجمة الهادر المعموري، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2020م
- ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، دون طبعة، 1984م.

- هناء صبري، فلسفة اللغة عند نعوم تشومسكي، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 2014م.

-المراجع باللغة الفرنسية:

- Antoine Arnauld et Claude Lancelot, Grammaire générale et raisonnée de Port-Royal, l'imprimerie de Munier, Paris, 1830.
- Antoine Arnauld et Pierre Nicole, La logique ou L'art de penser, éditions Gallimard, Paris , 1992.

-الموسوعات والمعاجم:

- إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة للشؤون الأميرية، دون طبعة، القاهرة، 1983
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، دون طبعة، بيروت، 1982
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، دون طبعة، بيروت، 1982.
- روي هاريس، أعلام الفكر اللغوي "التقليد الغربي من سقراط إلى سوسور، ترجمة أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الجزء الأول، بيروت، الطبعة الأولى، 2004.
- لالاتد، الموسوعة الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، المجلد الأول، بيروت، الطبعة الأولى، 2001.
- مصطفى مرشد جبير، نعوم تشومسكي، ضمن معجم الفلاسفة الأمريكان من البراجماتيين إلى ما بعد الحداثيين، منشورات الضفاف، بيروت، الطبعة الأولى، 2015م.

-المجلات:

- إبراهيم محمد علي راجح، نظرية تشومسكي وتفسير القضايا الإدراكية الذهنية "دراسة لسانية إدراكية بينية"، ضمن: المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، العدد الثاني، المجلد الخامس، يونيو 2019.
- امحمد الطيب بنكيران، الخلفية الفلسفية في النظرية التوليدية، ضمن مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد الثالث، المجلد الخامس والعشرون، يناير/مارس 1997.
- حسام عدنان الياسري ومصطفى هاتف بريهي، مرحلة النظرية المعيار في المدرسة التوليدية ومسألة المعنى، المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد الرابع عشر، 2020.
- عبد الرزاق دوراري، بعض الأسس المعرفية لنظرية تشومسكي 'آراء كارل فيلهالم فون همبولت المؤسسة'، ضمن مجلة اللغة والأدب، العدد السادس عشر.
- علي عباس عليوي الأعرجي، ذاتية اللغة بين سكينر وتشومسكي، ضمن مجلة آفاق علمية، العدد الثالث عشر، تمنغست، الجزائر، أبريل 2017.
- مصطفى بلبولة، فلسفة اللغة واللسانيات في الفكر المعاصر على خطى همبولت، ضمن: مجلة الأكاديمية للدراسات الإجتماعية والإنسانية، جامعة الشلف، الجزائر، العدد الثامن عشر، جوان 2017.
- منتهى عبد الجاسم، نظرية المحاكاة في الفلسفة اليونانية رؤية نقدية، ضمن: مجلة الفلسفة، كلية الآداب، جامعة المستنصرية، بغداد، العدد السادس عشر، كانون الأول، 2017.
- نابي نسيمة: البنية التركيبية للجملة في المنهج التوليدي التحويلي، ضمن: مجلة اللغة العربية، جامعة أم البواقي، الجزائر، العدد الأربعون، الثلاثي الثاني 2018.
- ناصر فرحان الحريص، المظهر الإبداعي للغة "مقاربة أدنوية إدراكية، ضمن: مجلة اللسانيات العربية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربي، المملكة العربية السعودية، العدد السادس، يناير 2018.

-أطروحات الدكتوراه:

- أسماء بن منصور، النحو الكلي بين اكتساب اللغة وتفسيره "دراسة تحليلية وصفية"، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في العلوم اللغوية، جامعة باتنة (01)، الجزائر، 2018/2017م
- مصطفى بلبولة، اللغة والأمة "مقاربة لفلسفة همبولت"، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الفلسفة، جامعة وهران 02، الجزائر، 2013/2012م

_الأنترنت:

- إبراهيم الكلثم، حوار مع فهد المطيري، منصة معنى، 2022/03/03، ص06، الرابط: https://mana.net
- محمد محمود الأمين، مفهوم اللغة بين سوسور وتشومسكي، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثالث للغة العربية بعنوان "الاستثمار في اللغة العربية ومستقبلها الوطني والعربي والدولي"، دبي، 07-10 ماي 2014، الرابط: https://www.alarabiahconferences.org/wp-content/uploads/

الملاحق

ملحق الأشكال والجداول:

الأشكال:

الشكل (01) عملية اكتساب اللغة	ص 34
الشكل (02) الرسم الشجري للجملة	ص 103
الشكل (03)مثال عن الرسم الشجري	ص 104
الشكل (04) عملية التحويل	ص 105
الشكل (05) الدال والمدلول	ص 169
الشكل (06) النحو الكلي واكتساب اللغة	ص 206

الجداول:

الجدول (01) اللغة والكلام	ص 156

ملحق الأعلام:

أنطوان أرنولد	ص (86، 87، 88، 92، 94)
أرنست كاسيرر	ص (118)
أفلاطون	ص (18، 19، 20، 21، 22، 23، 23، 26، 27، 50، 82، 217)
إيمانويل كانط	ص (117، 118، 119)
إيميل دو كايم	ص (163)
بيير نيكول	ص (86، 87، 88، 92)
جاكوب إنجل	ص (117)
رونيه ديكارت	ص (50، 51، 53، 54، 55، 56، 58، 59، 61، 62، 64، 67، 68، 82، 86، 87، 90، 92، 96، 100، 120، 121، 128، 130، 135، 217)
سيغموند فرويد	ص (163)
سكينر	ص (185، 186، 187، 188، 196، 200، 201، 202، 210)
فردينان دي سوسور	ص (152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 170، 171، 172، 173، 174، 177، 178، 179، 180، 181، 182، 183، 193، 215)

فيلهلم فون همبولت	ص (84، 117، 118، 119، 120، 121، 124، 125، 126، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 135، 136، 137، 138، 139، 140، 142، 143، 208، 217)
ليونارد بلومفيلد	ص (189، 190، 191، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 198، 200، 201)
كلود لانسلو	ص (87، 92، 94)
نعوم تشومسكي	ص (11، 12، 13، 26، 27، 28، 30، 31، 32، 34، 35، 36، 38، 39، 42، 43، 44، 45، 46، 47، 61، 62، 63، 64، 66، 68، 70، 71، 74، 75، 76، 77، 79، 81، 82، 84، 100، 101، 102، 103، 105، 107، 108، 110، 135، 136، 137، 138، 139، 140، 141، 144، 145، 146، 172، 173، 174، 175، 176، 177، 178، 179، 180، 182، 183، 199، 200، 201، 103، 204، 205، 206، 207، 208، 209، 210، 211، 212، 213، 215، 217، 218)
هيردر	ص (121، 122، 123، 135)

ملحق المصطلحات:

العربية	الإنجليزية
الأداء اللغوي	Performance language
الإبداعية	Creativity
الإعداد الأحيائي	Biological endowment
الاستجابة	Reponse
استعمال اللغة	Use of language
الاستقراء	Induction
الاستنباط	Deduction
اكتساب اللغة	Language acquisition
البرنامج الأدنوي	The Minimalist Program
البنية السطحية	Surface Structure
البنية العميقة	Deep structure
التصنيف	Classification
التفسير	Escplanation
التعزيز	Rienforcement
التعلم	Learning
التكرارية	Recursive
التوليد	Generation
الحالة الأولية	Initial state
الحدس	Intuition
اللانهائية اللامتمايزة	Descrete infinity

علم الدلالة	Semantics

Verbal behavior	السلوك اللفظي
Behaviorism	السلوكية
Mind/Brain	العقل/الدماغ
Rationalism	العقلانية
Instinct	الغريزة
Innateness	الفطرية
Philosophy	الفلسفة
Poverty of stimulus	فقر المنبه
Competence language	الكفاءة اللغوية
Universality	الكلية
Linguistic Universal	الكليات اللغوية
Escplanatory adequacy	الكفاية التفسيرية
Descriptive adequacy	الكفاية الوصفية
Biolinguistics	اللسانيات الأحيائية
Language	اللغة
Externalized language	اللغة الخارجية
Internalized language	اللغة الداخلية
Stimuls	المثير
Meaning	المعنى
Faculty of language	الملكة اللغوية
System	النسق
Grammar	النحو
Transformative generative grammar	النحو التوليدي التحويلي

Particular grammar	النحو الخاص
Universal grammar	النحو الكلي
Language growth	نمو اللغة
Description	الوصف
Congnitive psychology	علم النفس الإدراكي
Principles and parameters	المبادئ والوسائط

فهرس المحتويات

المحتويات:

الإهداء

شكر وعرفان

مقدمة.....04

مدخل

مفاهيمي.....09

الفصل الأول:

المرجعيات الفلسفية لنظرية تشومسكي اللغوية

المبحث الأول: التصور الأفلاطوني للمعرفة الإنسانية والمقاربة التشومسكية.....17

المبحث الثاني: المنظور الديكارتي للغة والقراءة التشومسكية له.....49

الفصل الثاني:

المرجعيات اللغوية لتشومسكي

المبحث الأول: مدرسة بور–رويال والنحو الكلي التشومسكي.....85

المبحث الثاني: فيلهلم فان همبولت وتوليدية اللغة عند تشومسكي.....116

الفصل الثالث:

اللسانيات السوسورية والسلوكية والدحض التشومسكي لها

المبحث الأول: اللسانيات السوسورية والنقد التشومسكي.....151

المبحث الثاني: المدرسة السلوكية والتفنيد التشومسكي لها.....183

خاتمة.....214

قائمة المصادر والمراجع.....218

الملاحق.....227

فهرس المحتويات.....234

الملخص

الأصول الفلسفية لنظرية تشومسكي اللغوية

خديجة مانع

جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، 2022

تُعنى هذه الدراسة بمحاولة تقصي الجوانب الفلسفية والبحث عن المنطلقات العقلية في النظرية اللغوية المعروفة بالنحو التوليدي التحويلي الذّي أسسه الفيلسوف وعالم اللغويات الأمريكي أفرام نعوم تشومسكي، فمنذ الثورة المعرفية التّي أحدثتها أراءه الانقلابية في ميدان علوم اللغة واللسانيات الأمريكية والعالمية عامة، أصبح الحديث عن نظريته اللغوية هو حديثا عن عودة التفكير الفلسفي والتنظير العقلي لدراسة وفهم الظاهرة اللغوية الإنسانية.

تهدف هذه الدراسة إلى تبيان الوجه الفلسفي الذّي صبغ النظرية التوليدية، والذّي بواسطته استطاع تشومسكي الإطاحة بمعظم النظريات اللسانية التّي كانت سائدة وقتئذٍ والتّي كانت تعتمد على الدراسات الوصفية والقراءة التجريبية للغة الإنسانية حيث كان الجانب المنطوق القابل للملاحظة هو أساس الدرس اللساني، في حين أنّ تشومسكي قلب هذه التصورات وعارضها، وأعطى الأولوية البحثية للغة بوصفها بنية ذهنية داخلية أولا. وقد اعتمد في هذا التفنيد على التصورات الفلسفية المستوحاة من الفلسفة العقلية لأفلاطون ورونيه وديكارت وغيرهم، ممن جعلوا من مقولات الفطرية والكلية والعقل؛ ركائز لتفسير مصدر المعرفة الإنسانية وكيفية بنائها بما في ذلك المعرفة اللغوية.

Summary
The philosophical origins of Chomsky's linguistic theory
Khadidja Manaa
Abdelhamid Ben Badis University, Mostaganem, 2022

This study is concerned with an attempt to investigate the philosophical aspects and search for rational starting points in the linguistic theory known as generative-transformative grammar, which was founded by the American philosopher and linguist Avram Noam Chomsky. Since the cognitive revolution brought about by his revolutionary views in the field of language sciences and American and international linguistics in g
eneral, talk about his linguistic theory has become Recent talk about the return of philosophical thinking and mental theorizing to study and understand the human linguistic phenomenon.

This study aims to clarify the philosophical aspect that colored the generative theory, and through which Chomsky was able to overthrow most of the linguistic theories that were prevalent at the time, which were based on descriptive studies and experimental reading of human language, where the observable spoken aspect was the basis of the linguistic lesson, while Chomsky overturned He opposed these perceptions, and gave research priority to language as an internal mental structure first. In this refutation, he relied on philosophical concepts inspired by the rational philosophy of Plato, Renaissance, Descartes and others, who made the categories of innateness, universality, and mind; Pillars for explaining the source of human knowledge and how it is built, including linguistic knowledge.

Résumé

Les origines philosophiques de la théorie linguistique de Chomsky

Khadidja Manaa

Université Abdelhamid Ben Badis, Mostaganem, 2022

Cette étude vise à explorer les aspects philosophiques et à rechercher des points de départ rationnels dans la théorie linguistique connue sous le nom de grammaire générative-transformatrice, fondée par le philosophe et linguiste américain Avram Noam Chomsky. Depuis la révolution cognitive provoquée par ses vues révolutionnaires dans le domaine des sciences du langage et de la linguistique américaine et internationale en général, parler de sa théorie linguistique est devenu un discours récent sur le retour de la pensée philosophique et de la théorisation mentale pour étudier et comprendre le phénomène linguistique humain.

Cette étude vise à clarifier l'aspect philosophique qui a coloré la théorie générative et grâce auquel Chomsky a pu renverser la plupart des théories linguistiques qui prévalaient à l'époque, basées sur des études descriptives et une lecture expérimentale du langage humain, où l'observable L'aspect parlé était la base de la leçon de linguistique, tandis que Chomsky renversait ces perceptions et donnait la priorité à la recherche sur le langage en tant que structure mentale interne. Dans cette réfutation, il s'est appuyé sur des concepts philosophiques inspirés de la philosophie rationnelle de Platon, de la Renaissance, de Descartes et d'autres, qui ont créé les catégories de l'innéité, de l'universalité et de l'esprit ; Piliers pour expliquer la source de la connaissance humaine et la manière dont elle se construit, y compris la connaissance linguistique.